مروان بن الحكم ينقذ الحكم الاموي

د. محمد ارشيد العقيلي
ج. الامارات العربية المتحدة

يتناول هـذا البحث علماً هاماً من الاعلام الاسـلامية ، تردد اسمه في خلافـة عثمان بن عفان، واثير حوله لغط وشبهات في دوامة الفتنة التيأحاطت بهذا الخليفة، هذا العلم هو مروان بن الحكـم . ثم ولايته على المدينـة في مستهل الحكم الامـوي وموقفه أثناء العاصفة التيكادت تطيح بهذا الحكم ، والتي شغر فيها منصب الخلافة الاموية في دمشق . وكيف أسلست لـه الخلافة قيادها . فأستنقذ بذلك الحكـم الاموي ، ولكنه في الوقت نفسه أسدل الستار على حكم الاسـرة السفيانية وظلت الخلافة تتسلسل في ابنائه وأحفاده (المروانيون) حتى أطيح بها على يد العباسيين.

إذن نقاط الجدل في هذه الدراسة سوف تدور :

أولا : حول نشأة مروان ، ثم استقصاء سيرته ، وما انطوت عليه حتى نهايـة ولايته على المدينة . ومناقشة الشبهات التي اثيرت حوله .

ثانيا : كيف آلت اليه الخلافةالاموية وسط فتنةكادت تعصف بالدولة الاموية، فيستنقذ هذا الخليفة الحكم الذي كان على حافة الانهيار . وينحصـر الخلافة في البيت المرواني .

نسب مروان ونشاته :

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن عبد شمس بن عبد مناف(١) . وامه آمنة بنت علقمة بن صفوان . وتكنى أم عثمان المدني(٢) .

ثمة خلاف حول ولادة مروان ، يقوذ الى خلاف آخر : اهو صحابي ام تابعي ؟ يذكر ابن حجر انه ولـد بعد الهجرة بسنتين ، وقيـل بأربع ، وروى عن النبي (ص) ولا يصح له سـماع(٣) . وأما ابن حجر العسـقلاني فيذكر ان النبي (ص) مات وعمر مروان ثمان سنوات . فيكون مولده بعد الهجرة بسنتين(٤) . ولم يجزم بصحبته ، لانه لم يكن مميزا . ثم ان اباه الحكم اخرج من قبل الرسول (ص) الى الطائف بعـد

فتح مكة عام ٨ هـ، ومروان معه . في حين يقول الامام الذهبي أنه ولد سنة ٢ هـ ، أو نحوها ، ولم ير النبي (ص)(٥) .

يتضح من الروايات السابقة أن مروان لم يحظ بصحبة الرسول (ص) لانه كان صغيرا غير مميز . ولكن المحدثين يعدونه من خيرة كبار التابعين من الطبقة الثانية .

صفات مروان ومكانته العلمية :

من ابرز صفات مروان الخَلقية انه كان قصيرا كبير الراس واللحية رقيق الرقبة أحمر الوجه(٦) . ووصفه الذهبي(٧) بالشجاعة والشهامة ، وانه كان صاحب فكر ودهاء . اما من حيث مكانته العلمية فهو من الشخصيات التي اختلفت فيها الروايات . فصاحب كتاب الخميس(٨) ذكر أنه كان أقرأ الناس للقرآن . كما قال ابن العربي(٩) أنه كان من كبار الامة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين . اما التابعون فأصحابه في السن وان حازهم في الصحبة في أحد الاقوال . وعرف بين رجال الحديث وشهد له الصالحون من التابعين أمثال عروة بن الزبير بأنه روى عن الصحابة والتابعين . وذكر الامام الرازي(١٠) صاحب الجرح والتعديل بأنه روى عن عمر وعثمان وعلي ، وروى عنه سهل بن سعد ، وعلي بن الحسين ، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن عقبة .

عاصر مروان عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وتوفي قبلهما . وكان له معهما سباق في المجال العلمي . ويروي ابن حجر أن مروان قال في محاورة بينه وبين **روح بن زنباع** (١١) « ليس ابن عمر بأخبر مني ، ولكنه أسن مني ، وكانت له صحبة» كما ذكر ابن عبد البر في كتاب **الاستيعاب** (جـ ٢ : ص ٣٩٠) بأن عروة بن الزبير قال : « كان مروان لا يتهم في الحديث » .

وثمة صفحات من تاريخ مروان بن الحكم لم يكن لها حظ من عناية المؤرخين منها قصة المرأة التي جاءت الى عبد الله بن عمر تستفتيه بانها نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة في أمر ان هي فعلته ، ففعلت ذلك الامر . فقال لها : لا اعلم الله أمر في النذر الا الوفاء به . كما نهى الله ان تقتلوا انفسكم . ثم أفتى لها أن تنحر مائة من الابل مكان ابنها على غرار ما فعل عبد المطلب حين فدى ابنه عبد الله بمائة من الابل. فبلغ هذا الحديث مروان بن الحكم ، وكان حينها اميرا على المدينة . فقال ما أرى ابن عمر ولا ابن عباس قد أصابا الفتيا . **انه لا نذر في معصية** . وقال للمرأة : استغفري الله وتوبي وتصدقي واعملي ما شئت من الخير . أما أن تنحري ابنك فقد نهاك الله

عن ذلك . فسر الناس واعجبهم قول مروان ، ورأوا انه قد اصاب الفتيا . فلم يزالوا يفتون «لا نذر في معصية» . ويبدو أن مروان اعتمد في هذه الفتيا على حديث عائشة «من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصيه»(١٢) .

بيد أن **ابن الاثير**(١٣) يروي أن مروان كان في ولايته للمدينة يبالغ في سب علي بن ابي طالب ، وعندما وليّ سعيد بن العاص المدينة كف عن ذلك . ونفهم من ذلك أن مروان كان يضغن على علي ، ويسبه على المنابر .

غير أن **ابن الاثير** في رواية أخرى يناقض هذا الزعم فيقول : « سئل محمد ابن علي (الباقر) عن مروان فقال : كان مروان خيرا لنا في السر ، وسعيد خيرا لنا في العلانية »(١٤) . وهذا يعني أن مروان كان هواه مع علي وآل بيته ، مما يجعلنا نتحفظ على رواية ابن الاثير الاولى ، وانها تنطوي على شيء من المبالغة ، وليس أدل على ذلك من أن ابن الاثير نفسه قال : « كان الحسن والحسين يصليان خلف مروان فلا يعيدان الصلاة »(١٥) . فكيف يصلي الحسن والحسين وراء رجل يلعن أباهما على المنبر في المدينة . ومجرد لعن الحي يكفي لتفسيق صاحبه فضلا عن اللعن على الاموات .

ويذكر **ابن العربي** أن فقهاء الامصار كلهم على تعظيم مروان واعتبار خلافته والالتفاف الى فتواه ، والانقياد الى روايته . وأما **السفهاء** من المؤرخين والادباء فيقولون على أقدارهم(١٦) .

بذلك يتضح أن بعض الروايات التاريخية التي نسبت الى مروان تتنافى مع ما ذكره عنه رجال الحديث ، مما يحملنا على الاعتقاد أن سيرة مروان لا تسمح بتصديقها . وانه بالتالي شخصية أخرى غير الشخصية التي عبثت بها تلك الروايات .

التهم التي وجهت الى مروان :

التهمة الرئيسية التي وجهت الى مروان بن الحكم هي انه عندما كان كاتبا لاسرار عثمان وحاملا لختمه استغل هذا المنصب فارسل كتابا على لسان امير المؤمنين عثمان مع غلام للخليفة على جمل من جمال الصدقة المسؤول عنها عثمان الى واليه على مصر عبد الله بن سعد بن ابي السرح يأمره فيه بقتل جماعة من المصريين او جلدهم أو قطع أيديهم وارجلهم من خلاف . واكتشف الوفد هذا الكتاب في الطريق وهم راجعون من المدينة . فاعتقدوا أن هذه مكيدة من الخليفة ، فرجعوا اليه ثانية

ليخلعوه أو يقتلوه . وقد وقرت هذه التهمة في أذهان الجماهير الاسلامية وتناقلتها الاجيال المتعاقبة . ويسترسل **الطبري وابن الاثير** في استكمال جوانب هذه المسألة وخلاصتها أن الثوار من الكوفة والبصرة ومصر عادوا للمرة الثانية الى المدينة بعد ما صرفهم علي بن ابي طالب في المرة الاولى . فلما لقي علي وفد مصر قال لهم : « **ما ردكم بعد ذهابكم ؟** » فقالوا أخذنا مع البريد كتابا بقتلنا .

ولما لقي طلحة اهل الكوفة سألهم عن سبب عودتهم فقالوا مثل ذلك . ولما لقي الزبير أهل البصرة ، قالوا له مثل ذلك . وكل منهم يقول : « **نحن نمنع اخواننا وننصرهم** » ، كأنما كانوا على ميعاد . فقال لهم علي كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا اهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل حتى رجعتم علينا . هذا والله أمر ابرم بليل .. فقالوا « ضعوه كما شئتم لا حاجة لنا في هذا الرجل ... ليعتزل عنا »(١٧).

وفي رواية لابن العربي أنه حين كان الوفد المصري عائدا من المدينة الى مصر « اذا براكب يتعرض لهم ، ثم يفارقهم مرارا ، قالوا له : مالك ؟ قال : انا رسول أمير المؤمنين الى عامله في مصر ، ففتشوه فاذا هم بالكتاب على لسان عثمان عليه خاتمه الى عامل مصر أن يصلبهم ، ويقطع أيديهم وأرجلهم . فأقبلوا حتى قدموا المدينة ، فأتوا عليا فقالوا له : ألم تر الى عدو الله كتب فينا كذا وكذا . وقد أحل الله دمه . قالوا له قم معنا اليه . قال : والله لا أقوم معكم . فقالوا فلم كتبت إلينا ؟ قال : والله ما كتبت إليكم ، فنظر بعضهم الى بعض ، وخرج علي من المدينة »(١٨) .

فانطلقوا الى عثمان فقالوا له : كتبت فينا كذا . فقال لهم عثمان :إما ان تقيموا شاهدين على ذلك ، والا فيميني اني ما كتبت ولا امرت . وقد يكتب على لسان الرجل ويضرب على خطه وينقش على خاتمه . فقالوا لتسلم لنا مروان . فقال : لا أفعل . ويرى ابن العربي(١٩) أن عثمان لو سلمه لكان ظالما . لان تسليمه يعني ادانته ولا يوجد أدنى دليل على ذلك .

كما نسبوا الى عائشة رضى الله عنها أنها كتبت الى الوفود تأمرهم بالخروج على عثمان . ويروي الطبري أن عائشة حينما ندمت بقتلة عثمان قال لها مسروق: « عملك كتبت الى الناس تأمرينهم بالخروج عليه » فقالت عائشة « والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت اليهم سوادا ببياض » . قال الاعمشي « فكانوا يرون أنه كتب على لسانها »(٢٠) .

ولسنا هنا بصدد التأريخ للفتنة التي احاطت بعثمان ، ونحصر الحديث في الجانب الذي يتعلق بمروان بن الحكم والتهمة التي وجهت اليه .

في ضوء المعطيات السابقة ومحاكمة النصوص التي أوردها بعض المؤرخين نستطيع أن نتلمس أطراف المشكلة ونضع اصابعنا على ابعاد مؤامرة كبرى ، ليس مروان بن الحكم من يتحمل وزرها ، او أوقد شعلتها ونفخ في كورها حتى صارت لهبا أحرق وحدة المسلمين ومزق شملهم . وإنما هي وليدة تنظيم سري وايد خفية جعلت لها مراكز في المدينة وفي جميع الامصار الثائرة ، تدس الدسائس وتختلق الشائعات حتى يستعصي الامر على العلاج وتأخذ الفتنة أبعادها لتمزيق وحدة الامة وتحقيق طموحات ورغبات بعض الطامعين من ذوي النيات الخبيثة .

ولا يجد المدقق في النصوص كبير عناء في الكشف عن هذه المؤامرة . وكفانا امير المؤمنين علي ابن ابي طالب مؤونة المشقة ، حين سأل كل الوفود سؤالا واضحا محددا : « كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر ، وقد سرتم مراحل حتى رجعتم الينا ..» فأفحموا . وبذلك كان أول من كشف كذب هذا الادعاء ورد عليهم بما رواه الطبري « هذا والله أمر ابرم في المدينة »(٢١) او كما جاء عند ابن الاثير : « هذا والله أمر ابرم بليل »(٢٢) .

والملفت للنظر أن الثوار لم يحاولوا تبرير موقفهم أو اثبات صدقهم . بل ردوا بكل جراة وبجاحة : « ضعوه حيث شئتم لا حاجة لنا بهذا .. ليعتزل عنا »(٢٣).

ويتضح الدس والكذب من مضمون الكتاب . فتارة يقال فيه : « اذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس فأجلده » وأخرى : « اذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان فأقتلهم ..».

ومما يؤكد أن قصة الكتاب تنطوي على مؤامرة أبرمت بليل هو أن الثوار العائدين الى المدينة نسبوا تارة الى علي أنه راسلهم يستقدمهم ، وتارة الى عائشة انها ارسلت اليهم كتابا تحرضهم فيه بالخروج على عثمان . وقد استنكر علي ذلك. كما أن عائشة حلفت أنها لم تكتب سوادا ببياض . كل ذلك يؤكد ان التهمةاستهدفت تمرير المؤامرة من ناحية وتفجير الموقف بين الخليفة وامين سره من ناحية اخرى لتصديع وحدة الامة .

ان ما قصدنا اليه ليس تبرئة مروان بن الحكم من كل نقيصة او خطأ في في سياسته **او سلوكه** ، بل الكشف عن أن هذه التهمة المختلقة لم تستند الى دليل ، **وان منطق التاريخ** يرفضها . ومسألة تزوير الرسائل والكتابة على لسان اخرين قضية معروفة تاريخيا . وهذا يستدعي من المؤرخين اعادة كتابة تاريخنا وتنقيته من الروايات المدسوسة او المغالطات الواضحة بهدف تشويه صورة هذا التاريخ ورموزه.

ثمة تهمة اخرى وجهت الى مروان وهي توجيهه سهم الى طلحة بن عبيد الله في معركة الجمل أرداه قتيلا . يذكر ابن حجر أن قتل طلحة كان متأولا فيه(٢٤) . وأما ابن العربي(٢٥) فيقول بملء فيه : ان هذا لم ينقله مصدر ثبت . كما أن هناك زعما بان الاحنف هو الذي أمر بقتله . وبذلك يتضح أن اتهام مروان بقتل طلحة لا يستند الى دليل قاطع . فضلا عن انه اثناء احتدام القتال وتشابك الصفوف تتداخل الامور ، وتتعدد الروايات والاغراض ، ويختلط الحابل بالنابل .

ولاية مروان المدينة :

ولي مروان المدينة في مستهل خلافة معاوية بن أبي سفيان . ونسب **ابن كثير** لمعاوية انه قال لما سئل لمن تركت الامر بعدك ، فقال الى : « القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله ، الشديد في حدود الله ، مروان بن الحكم »(٢٦) . ويستدل من هذا أن معاوية كان يثق بمروان في دينه وفقهه وعدله . وحين ولاه المدينة رضى به معظم الصحابة . فكان عادلا بينهم ، يتبع نهج عمر بن الخطاب في القضاء .

وذكر **ابن الاثير** أن مروان تولى المدينة عام ٤٣هـ ، وحج في هذه السنة(٢٧) . اما في سنة ٤٤ هـ فقد بنى مروان مقصورة في المدينة ، وهو أول من قام بهذا العمل(٢٨) الذي يعد من ابرز أعماله المعرانية . كما أن مروان حج بالناس عام ٤٨هـ . وكان يتوقع من معاوية أن يعزله لموجدة كانت عليه .

ثم ولاه معاوية المدينة عام ٥٤هـ . وحج بالناس مرتين إحداهما عام ٥٤هـ ، والثانية عام ٥٥هـ ، واستخلف ابا هريرة على المدينة ، في إحدى السنتين أو في كليهما(٢٩) .

وفي عام ٥٧ هـ صرف معاوية مروان عن المدينة ، وولاها الوليد بن عيينة بن أبي سفيان ، فلم يزل واليا عليها حتى مات معاوية ، وبهذا نستطيع القول ان ولاية مروان على المدينة كانت متقطعة ، وسيرته حميدة عند أهلها .

والجدير بالذكر ان مروان حين أدرك العنت الشديد الذي يعانيه سكان المدينة في الحصول على مياه الشرب قام باستغلال « العين الزرقاء » التي تنبع من بئر عند قباء غرب مسجد قباء ، وبذل جهدا كبيرا في الانتفاع بمياه هذه العين ، فمد مجراها حتى مصلى الاعياد(٣١) ، وهناك أقيم عليها قبة مفتوحة من جانبيها الشمالي والجنوبي . وفي كل جانب مدرج ينزل منه الناس لاخذ المياه . وتستمر مياه العين الزرقاء في مسيرها نحو الشمال الى أن تصل الى مسجد السيق حيث أقيم لها منهل

يستقي الناس منه ، ثم تتابع مسيرها مارة بشمالي جبل سلم قرب مسجد الراية، بحيث أصبح نفعها يعم جميع سكان المدينة .

الاحداث في الحجاز والشام قبيل وفاة يزيد بن معاوية :

بعد استشهاد الحسين بن علي في كربلاء خلا الجو لعبد الله بن الزبير . فدعا وجوه أهل تهامة والحجاز الى بيعته فبايعوه جميعا باستثناء عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية (٣٢) . ووثب أهل المدينة على عاملها عثمان بن محمد بن ابي سفيان ، وعلى مروان بن الحكم وسائر بني أمية وأخرجوهم من المدينة وحصبوهم بالحجارة(٣٣) . ويروي الطبري أن **عبد الله بن الزبير** هو الذي كتب الى عامله على المدينة ان ينفي بني أمية منها بعيالاتهم ونسائهم الى الشام(٣٤) . فلما بلغ **يزيد** ذلك أعد جيشا قوامه ١٢ الفا لتأديب أهل المدينة والقضاء على حركة ابن الزبير، وجعل على قيادته **مسلم بن عقبة المري** . وفي هذا الجيش **الحصين بن نمير السكوني**.

ولما اقترب جيش يزيد من المدينة تأهب سكانها لمواجهته وأحاطوا المدينةبخندق وعسكر جيش يزيد في الجوف من ناحية الحرة في ذي الحجة من عام ٦٣هـ . ولما استعصى اقتحام المدينة ، لجأ مروان الى الحيلة وخدع بعض سكانها ، ودخل ومعه مائة فارس ، فأحدث ثغرة ، ثم تبعه الجيش الاموي وجالت خيول هذا الجيش واستباحت المدينة ثلاثة أيام . ثم امسكوا بعد ذلك(٣٥) . وبذلك أسلمت المدينة قيادها **لمسلم بن عقبة المري** ، وبايع سكانها ليزيد بن معاوية عنوة .

واصل مسلم سيره نحو مكة ، وما كاد يصل الى موقع المشلل(٣٦) حتى أغتيل، وقد استخلف على القيادة الحصين بن نمير السكوني . ووصل الحصين مكة في ٢٦ محرم عام ٦٤هـ وقد تولى الدفاع عنها الى جانب عبد الله بن الزبير جماعة من الخوارج النجدات بقيادة نجدة بن عامر الحنفي . وظل جيش الحصينيحاصرها حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية في أول ربيع الاخر من عام ٦٤هـ . فتوقفوا عن القتال .

وفكر **الحصين** مليا ، وارتأى أن يفاوض ابن الزبير ، وكان يميل الى مبايعته في ظاهر الامر ، لانه لا جدوى من القتال بعد موت الخليفة . ففتح له ابن الزبير أبواب المسجد ، فطلب الحصين أن يبايع ابن الزبير على أن يخرج معه الى دمشق. فانتزع عبد الله بن الزبير يده من يد الحصين وهو يجهر بقوله : « ابعد قتل أهل الحرة ؟ لا والله حتى اقتل بكل رجل من اهل الحجاز عشرة من اهل الشام . فقال الحصين : لقد كذب من زعم انك من دهاة العرب ، أكلمك سرا ، وتكلمني علانية . وادعوك الى الخلافة ، وتدعوني الى الحرب »(٣٧) .

انصرف الحصين بعد ذلك مع جنده الى بلاد الشام . ثم بويع معاوية بن يزيد بالخلافة بالشام في الوقت الذي انضوى فيه أهل الحجاز الى جانب ابن الزبير وبايعوه(٣٨) . ولكن معاوية كان زاهدا بالخلافة ولم يلبث ان توفي بعد شهرين دون أن يعهد بالخلافة لاحد من أبنائه أو اقاربه ، تاركا الامر شورى لينصب المسلمون من يرونه أهلا . مما أفسح المجال لنزاع حاد بين المسلمين ، وأتاح الفرصة للطامعين وذوي الاغراض الشخصية ، ووضع دمشق على أبواب ازمة حادة وهي شغور منصب الخلافة فيها ، وتصارع القوى والتيارات القبلية في بلاد الشام وظهور أكثر من مرشح لدار الخلافة فضلا عن تطلع الزبيريين في كل مكان لوراثة الحكم الاموي .

شغور منصب الخلافة في دمشق :

عشية وفاة معاوية بن يزيد انتشرت الفوضى في الاقاليم العربية والعجمية على حد سواء . واضطرب الامن ، وظهرت الفتن ، واستشرت العصبية القبلية . فابن الزبير نودي به بالحجاز خليفة(٣٩) . غير أن الخوارج الذين ناصروه أثناء حصار جيش بني أمية مكة ما لبثوا أن غادروها الى البصرة . وفي البصرة انقسم الناس الى شيع(٤٠) . وحاول عبيد الله بن زياد أن يحمل الناس على مبايعته اميرا عليهم حتى يجمع الامة على خليفة ، وأظهر المجتمعون موافقتهم(٤١) ، ولكن ما لبثوا أن نفضوا أيديهم من بيعته ، فاضطر الى الرحيل الى الشام .

أما في الشام فقد تعددت مراكز القوى وتباينت الطموحات الشخصية ، واستشرت الولاءات القبلية . فالضحاك بن قيس الفهري كان يهوى هوى بن الزبير ، ويدعو له سرا . كما كان زفر بن حارث الكلابي بقنسرين يبايع له أيضا(٤٢) . وكان **حسان بن مالك بن بحدل الكلبي** عاملا لمعاوية ولابنه يزيد على فلسطين والاردن . وكان ناتل بن قيس الجذامي بفلسطين يميل الى ابن الزبير . فخرج منها حسان الى الاردن ، واستخلف عليها روح بن زنباع الجذامي . فوثب على ناتل واخرجه منها ، واستولى عليها ، وبايع لابن الزبير .

فلما رأى مروان بن الحكم اختلاف الناس ، وتفرق أهوائهم فكر بالخروج الى ابن الزبير بمكة ، فيبايع له ، ويأخذ أمانا لبني أمية . وفي طريقه الى الحجاز لقيه باذرعات من جند دمشق عبيد الله بن زياد قادما من العراق ، فسأله عن حالته . فأخبره عن قصده فلامه وثناه وأشار عليه أن يدعو الى نفسه . فهو شيخ قريش وأحق الناس بالخلافة ، وضمن له أن يكفيه قريشا ومواليها ، لا يخالفه منهم أحد. وقد لامس ما طرح على مروان الرغبة الكامنة في نفسه . فرجع الى تدمر وجمع بني أمية فبايعوه بالامارة عليهم كما بايعه اهل تدمر(٤٣) .

ولكن المشكلة أن **حسان بن بحدل الكلبي** استقر في الاردن بعد أن خرج من فلسطين . وكان يتحزب لبني أمية ويحب أن تكون الخلافة فيهم ، ويدعو أن تكون في ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية . وجميع الروايات متفقة على الدور القبلي المبدئي الذي لعبه حسان . فقد صرحت القبلية وبصورة جدية من قبل القبائل اليمنية التي حافظت خلال العهود السابقة على خصائص نظامها القبلي حيث وجدت الصلات المشتركة من التنظيم الاجتماعي مما جعلها تحافظ على كيانها وطابعها حيثما نزلت سواء في البادية أو القرى أو المدن(٤٤) .

استغل **حسان الكلبي** العصبية القبلية في تحريك القبائل اليمنية ، فدعا أهل البلقاء واذرعات(٤٥) وقبائل تدمر ، الى جانب قبائل طبريا والجولان . فالتفوا حوله، واخذ يدعو الى ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية(٤٦) أربعين يوما(٤٧) . وفي الوقت نفسه يحرّض هذه القبائل ضد خليفة الحجاز عبد الله بن الزبير(٤٨) ، معبرا بذلك عن موقفه القائم على السياسة القبلية التي احتلت حيزا من العلاقات الجيدة مع الدولة الاموية من حيث النفوذ داخل نظام الدولة منذ عهد معاوية ومن تلاه ، الذي تبلور الى ما يمكن أن يسمى **سلطة الظل** . وقد بدت هذه العلاقة واضحة فيما كان يفرض لهم من الصدارة والحل والعقد والمشورة والعطاء(٤٩) .

وبذلك يتضح كيف أن الواقع فرض نفسه من حيث شدة الالتصاق والاستقطاب بسبب عمق المصالح المشتركة بينهما ، ولان أية رياح عاصفة قادمة يمكن أن تجرد الطرفين من كل نفوذ وسلطة .

وخلاصة القول ان وضع بني أمية أصبح في غاية الحرج . الدولة الاموية بدون خليفة ، وعبد الله بن الزبير بويع في الحجاز والعراق ومصر وفلسطين وحمص وقنسرين . وفي دمشق كان هوى الضحاك بن قيس الفهري مع ابن الزبير ، ويأخذ له البيعة سرا . وبنو أمية تتقاسمهم الاهواء والحكم مهدد بالزوال . وكان الموقف يحتم وبالسرعة الممكنة التوفيق بين الطرفين الامويين : **حسان بن بحدل** الذي يؤازر ابن أخته خالد بن يزيد ، وعبيد الله بن زياد ومعه أعداد غفيرة من بني أمية ، يؤازرون **مروان ابن الحكم** . وكان لا بد من لقاء لمواجهة هذه الاخطار التي تهدد كيانهم في كل مكان فكان **مؤتمر الجابية**(٥٠) الذي عقد في ذي القعدة من عام ٦٤هـ اللقاء الذي حسم الامر .

مؤتمر الجابية :

كان في مقدمة أولويات المؤتمر توحيد الآراء المتباينة لاختيار رجل قادر على الخروج ببني امية وحلفائهم اليمنيين من مأزقهم . فبعض المجتمعين يريد أن يجعل

الخلافة لخالد بن يزيد ، والبعض الاخر يريدها لمروان بن الحكم . وكان ذلك يصطدم بتوجهات القيسية في بلاد الشام الذين يمالئون ابن الزبير في الحجاز(٥١) .

واستفحل الخلاف بين القيسية وتحول الى منازعات ومصادمات قوية. فاقترح الضحاك بين قيس عليهم أن يجتمعوا **بالجابية** لينظروا في الامر ويتشاوروا فيمن يقلدونه الخلافة . ودعا أنصار ابن الزبير ، وأنصار بني أمية للاجتماع . فلما كانوا ببعض الطريق الى الجابية تصدى القيسية **الى الضحاك** ، وأنكروا عليه تخليه عن بيعة ابن الزبير ، ولاموه وأنبوه ، فأذعن لهم وعاد معهم الى **مرج راهط** ، فبايع لابن الزبير ، وخلع ولاءه لبني أمية(٥٢) .

وصار بنو أمية ومواليهم وأنصارهم الى الجابية ، ووافاهم حسان هناك فصلى بهم اربعين ليلة ، وهم يتشاورون فيمن ينتخبون للخلافة .

وظاهر الامر أن اجتماعهم في البداية كان اجتماعا حرا(٥٣) . لانهم لم يرشحوا للخلافة رجالا من أهل الشام فحسب ، بل من أهل الحجاز أيضا مثل **ابن الزبير وابن عمر** . ويبدو ان فريقا من اليمنية من أهل الاردن كانوا يؤثرون ابن الزبير ويقدمونه على غيره . قال البلاذري : « يقال أن بعض أهل الاردن قد كانوا مائلين الى **نائل** ، ومنحرفين عن **حسان بن بحدل** ، وكانت الزبيرية بالشام تقول ان ابن الزبير أولى أهل زمانه بالامر ، لانه ابن حواري رسول الله (ص) والمطالب بدم عثمان . ورجل له شجاعة وفضل »(٥٤) .

واستندوا في الموازنة بين المرشحين الى أساسين هما :

الاول : الكفاءة والجدارة .

والثاني : مصلحة بني امية ، ومصلحة أهل الشام . أما **ابن الزبير** فقد اقروا بفضله وعلو مكانته ، ولكنهم استبعدوه لمنازعته بني أمية في الامر وثورته عليهم ، وخلعه خليفتين منهم . وأما **ابن عمر** ، فاعترفوا بسابقته وصحبته وعلمه وفقهه ، ولكنهم اسقطوه لضعفه وتردده(٥٥) . فلم يبق الا مرشحا بني أمية : خالد بن يزيد ، ومروان بن الحكم ، والاهواء ازاءهما مختلفة . **فالحصين بن نمير** هواه مع مروان بن الحكم ، ومالك بن هبيره مع خالد بن يزيد . قال مالك للحصين : هلم نبايع خالد بن يزيد ، فقد عرفت منزلتنا عند أبيه . فقال الحصين : لا والله لا يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي . فقال مالك: ويحك . إنّ مروان وآل مروان يحسدونك على سوطك وشراك نعلك، وظل شجرة تستظل بها ،ومروان أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعم عشرة،

وإن بايعتموه كنتم عبيدا له . ولكن عليكم بابن اختكم خالد. فقال مروان شيخ قريش، والمطالب بدم الخليفة المظلوم . وهو يديرنا ويسوسنا ، ولا نحتاج أن نديره ونسوسه. وغيره الى الان يدار ويساس(٦٥) .

ولم يكتف هؤلاء بالتلميح والتلويح بعدم قبولهم اختيار الاطفال ، بل أخذوا يعارضون بصراحة ووضوح . فهذا عبيد الله بن زياد يقول : « إنكم اخطأتم الرأي في بيعة يزيد ، وقد بايع الناس ابن الزبير . تبايعون غلاما حديث السن ليست له حنكة، وتريدون أن تقارعوا ابن الزبير ، وأرى أن تبايعوا مروان بن الحكم ، فان له سنا وفقهاً (٥٧) .

واما قبيلة كلب اليمنية فكانت تدعو الى بني امية، والى خالد بن يزيد بالتحديد، لانه ابن أختهم(٥٨) وأظهر حسان بن بحدل الدعوة له وعزم عليه(٥٩) . فقال له عبد الله بن عضاء الاشعري بالجابية(٦٠) : » أراك تريد هذا الامر لخالد بن يزيد وهو حديث السن ، فقال : انه معدن الملك ومقر السياسة والرئاسة ، فأتي ابن عضاء خالدا في جماعة من نظرائه من الوجوه ، فوجدوه نائماً مضطجعا فقال : يا قوم انجعل نحورنا أعراضا للاسنة والسهوم بهذا الغلام . وهو نائم في هذه الساعة . وانما صاحب هذا الامر المجد المشمر الحازم المتيقظ ، ثم أتى مروان بن الحكم ، والفاه في فسطاط له ، واذا درعه الى جانبه ، والرمح مركوز بفنائه ، وترسه مربوط الى جانب فسطاطه ، والمصحف بين يديه ، وهو يقرأ القرآن ، فقال ابن عضاء : يا قوم هذا صاحبنا الذي يصلح له الامر . وهوابن عم عثمان امير المؤمنين ، وشيخ قريش وسنها ، فرجعوا الى حسان بن بحدل ، وأخبروه بخبر خالد ومروان ، واعلموه أنهم مجمعون على مروان لانه كبير قريش وشيخها .

وازاء هذا الاجماع لم يسع ابن بحدل إلا الرضوخ للامر الواقع بالقول : « رأيي لرايكم تبع ، وانما كرهت أن تعدل الخلافة الى ابن الزبير وتخرج من أهل البيت». ثم قام حسان خطيباً . فحمد الله واثنى عليه ثم ذكر مروان فقال : « هذا كبير قريش وسنها ، وابن عم الخليفة المظلوم والطالب بدمه قبل الناس أجمعين ، فبايعوه رحمكم الله ، فهو اولى بميراث عثمان وأحق بالامر من الملحد ابن الزبير الذي خلع الخلافة وجاهر الله بالمعصية ، فسارعوا الى بيعته وماسحوه »(٦١) . والتفت اليه بنوا امية، فقالوا الحمد لله الذي لم يخرجها منا .

ودعا حسان خالدا فقال له(٦٢) : « يا ابن اختي ، إن الناس قد ابوك لحداثة سنك ، واني والله ما اريد هذا الامر إلا لك ولاهل بيتك ، وما أبايع مروان الا نظرا

لكم . فقال له خالد : بل عجزت عنا ، قال : لا ، والله ما عجزت عنك ولكن الراي لك ما رأيت » .

وهكذا يتبين ان حسان وجد نفسه امام ضغط من اصحاب الراي ، مضطرا للتخلي عن ابن اخته[٦٣] لاعتقاده بعدم جدوى دعمه له ، وتوجه نحو مروان بن الحكم الاكثر قدرة على استيعاب الظروف القادمة ، فضلا عن قدرتـه على التغيير للخروج بالجميع مما هم فيه . بيد أنه أراد أن يعرف موقع ابن أخته خالد بعد هذه التنازلات، وان يحتفظ بكل **الامتيازات السابقة** له ولقبيلته ، وعبر عن رغبته أن تكون الخلافة لابن أخته خالد من بعد مروان[٦٤] .

وبالمقابل ، كان مروان يتفاعل مع هذه الاراء وأكثر ادراكا لدور العصبية القبلية والطموحات الشخصية واهميتها . فكان عليه أن يستوعب رغبات الجميع لاستنقاذ النظام المرتبط عضويا بمصلحة الجميع المهددة . ولذا فان مروان لم يتردد في مؤتمر الجابية من ركوب **الموجة القبلية** والمطامع الشخصية ، فاستوعب رغبات أصحابها على **امل أن يوظفها** مستقبلا لصالحه . وانحنى أمام مطالب حسان بن مالك[٦٥]، واستجاب لمطالب مالك بن هبيره اليشكري[٦٦] ، ولبى شروط الحصين بن نمير[٦٧] ، ووعد عمرو ابن سعيد الاشدق بالخلافة بعد خالد بن يزيد[٦٨] . ولم يكتف بذلك ، بل تزوج ام خالد[٦٩] شقيقة حسان ، وأرملة الخليفة يزيد ليعزز الاواصر مع الكلبيين، ويعمق العلاقة المتبادلة بينهما ، وليدلل على حسن نواياه لعله يحتوي خالداً وخؤولته من بني كلب .

وبذلك اختتم **مؤتمر الجابية** بقرارات توفيقية ، في مقدمتها عدم مبايعة ابن الزبير ، واستبعاد خالد لصغر سنه ، **والبيعة لمروان بن الحكم** بصفته شيخ بني أمية المحنك والمعول عليه في اخراج الجميع من الازمة . ونصت القرارات ان يتولى خالد بن يزيد الخلافة من بعده ، ثم عمرو بن سعيد الاشدق بعد خالد والاستعداد للتصدي لاتباع ابن الزبير في الشام[٧٠] . وكان ذلك كله مقدمة للمعركة الحاسمة مع الضحاك والقيسية في مرج راهط .

معركة مرج راهط (محرم ٦٥ هـ) :

كان ابن الزبير قد ولى الضحاك بن قيس دمشق . وولى **النعمان بن بشير الانصاري حمص** ، وزفر بن الحارث الكلابي **قنسرين** ، وناتل بن قيس الجذامي فلسطين بعد ان بلغه أنهم دخلوا في طاعته وبايعوا له[٧١] . فأرسل اليهم الضحاك

يستمدهم فأمده النعمان بأهل حمص ، وزفر بأهل قنسرين ، وناتل بأهل فلسطين . ولكن أنصاره كانوا من قيس ، اذ كانت قيس بالشام تدعو الى ابن الزبير ونصرة الضحاك(٧٢) .

وثمة رواية للواقدي مفادها أن الناس بدمشق بايعوا الضحاك بعد وفاة معاوية الثاني ، على أن يصلي بهم ، ويقيم لهم امرهم حتى تجمع الامة على خليفة جديد . ويدعي الواقدي أن الضحاك أراد الخلافة لنفسه ، ولكنه ، وهو غير القرشي والخلافة في قريش ، اضطر لمبايعة ابن الزبير(٧٣) .

وليس غريبا أن يكون في هذا الزعم بعض الصواب ، لانه يصعب علينا ان نصدق أن الضحاك بما نعرفه عن ماضيه المفرط في أمويته ، قد مال لابن الزبير دونما سبب. فقد كان كما هو معلوم ساعد معاوية الايمن ، وبطل الاجتماع الذي تمت فيه البيعة ليزيد بن معاوية .كما أن توليه الضحاك امارة دمشق بعد وفاة معاوية الثاني الذي مات دون أن يولي أحدا من بعده ، دليل اخر على ثقة الامويين به وأيمانهم بأنه سيحفظ الامر لهم حتى يتفقوا على مرشح من بينهم(٧٤) .

ان استنكاف الضحاك عن حضور مؤتمر الجابية تم إذن بتأثير قومه من القيسية. يؤيد ذلك ما ورد في الطبري على لسان بعض القيسيين يخاطبون الضحاك : « دعوتنا الى طاعة ابن الزبير ، فبايعناك على ذلك ، وأنت تسير الى هذا الاعرابي من كلب لتستخلف ابن اخته خالد بن يزيد »(٧٥) . ولعل جذور النزاع بين قيس وكلب قد استجدت بعد هجرة القبائل القيسية الى بلاد الشام عقب الفتوحات ، واصهار معاوية الى بني كلب ، مما قوى شوكتهم وزاد من نفوذهم ، ، وادى الى نقمة القيسيين عليهم. وحملت قيس الضحاك على ذلك نكاية ببني كلب(٧٦) وزعيمها حسان .

هذا فضلا عن أن حسان كان عدوا لدودا للضحاك ، واذا أضفنا الى ذلك أن بني أمية كانوا منقسمين على أنفسهم ، ادركنا أن ميل الضحاك لابن الزبير له ما يبرره ، سيما وأن بعضا من بني أمية كانوا يقولون هذا القول . كما أن **القيسية** كانوا يرون في كل تقارب مع الامويين **مذلة لهم** ، لان الامويين أنصار خلص لعدوهم حسان بن بحدل وبني قومه من بني كلب .

خرج الضحاك **الى مرج راهط** على بعد عدة أميال من دمشق في جموع هائلة من القيسية والمضرية ، وجماعة من نزار وقضاعة ، والجموع التي انضمت اليه من حمص وقنسرين وفلسطين . اما **مروان بن الحكم** فقد اجتمع اليه حشود من كلب وغسان

والسكاسك والسكون ، فجعل على ميمنته عمرو بن سعيد ، وعلى ميسرته عبيد الله ابن زياد ، وسار بهم من **الجابية** نحو **مرج راهط** .

وكان يزيد بن أبي النمس الغساني مختبئا بدمشق ، لم يشهد الجابية. فاستغل فرصة خروج الضحاك الى مرج راهط ، وغلب على دمشق ، واخرج عامل الضحاك منها ، واستولى على الخزائن وبيوت الاموال . وبايع فيها لمروان ، وأمده بالاموال والرجال والسلاح(٧٧) . فكان أول فتح لبني أمية .

ثم اشبك الفريقان في مرج راهط في ذي القعدة سنة ٦٤ هـ(٧٨) وقيل في المحرم سنة ٦٥ هـ(٧٩) ، في قتال عنيف استمر عشرين يوما . وانتهى بهزيمة القيسية وقتل الضحاك ، وقتل معه ثمانون رجلا من أشراف أهل الشام ، وذكر المؤرخون أن القيسية لم تشهد هزيمة مثلها ، وانها قتلت مقتلة لم يقتل مثلها في موطن قط(٨٠) . وتلاحقت فلولهم الى أجنادهم ، فبلغت الهزيمة **النعمان بن بشير في حمص** ، فخرج هاربا ، فطلبه أهل حمص من **اليمنية** فقتلوه . **اما زفر بن الحارث** فقد فر من قنسرين الى قرقيسيا وتغلب عليها وتحصن فيها . في حين تراجع ناتل بن قيس الجذامي عن فلسطين ، ولحق بابن الزبير بمكة . وبذلك **انفرط عقد** القيسية وآلت بلاد الشام جميعها الى مروان .

ودخل مروان بن الحكم دمشق . لقد تلقى في **الجابية** بيعة **القبيلة** ، ولكنه يحوز في دمشق على بيعة **الامة** . ويلتزم بتعهداته بتعيين نائبه الاول خالد بن يزيد أميرا لحمص . ونائبه الثاني عمرو بن سعيد بن الاشدق أميرا على دمشق .

كان لموقعة **مرج راهط** آثار خطيرة في ابتعاث العداء التقليدي ، واشعال نار الفتنة القبلية في سائر أنحاء العالم الاسلامي . فقامت الحرب بين **القيسية واليمنية** في مناطق عديدة من دار الاسلام . وبذلك تكون قضية العصبية القبلية قد دخلت لاول مرة مسرح السياسة العليا للدولة . وبعد أن كان الخلاف محصورا بين فروع **قبيلة قريش** ، أصبح مشاعا بين القبائل يصطبغ **بصبغة حزبية قبلية** . غير أن النصر الذي حاز عليه الكلبيون في مرج راهط كان **نصرا مؤقتا** ،لان الصراع بين العصبيتين القبليتين سوف يستمر طيلة الحكم الاموي ويكون في النهاية من عوامل انهيار الدولة الاموية.

استيلاء مروان على مصر :

كانت مصر قد بايعت **لعبد الله بن الزبير** فأناط ولايتها منذ شعبان سنة ٦٤هـ **بعبد الرحمن بن عتبه بن جحدم** . وبعد انتصار مروان في مرج راهط دعا شيعة بني

امية في مصر الى تخليص بلادهم من تبعية ابن الزبير ، ثم زحف على رأس جيش ضخم الى مصر ومعه وجوة اليمنية بقيادة خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد وعبد الرحمن بن الحكم وحسان بن بحدل ، سار بحذاء الساحل . وسيّر جيشا آخر بقيادة عبد العزيز الى **ايلة**، وامره أن يدخل مصر من تلك الناحية(٨١) .

لما ترامت انباء هذا الزحف الى ابن جحدم عزم على التصدي لاهل الشام. فحفر خندقا حول الفسطاط ، وارسل بعثاً بقيادة الاكدر بن حمام اللخمي ليغير على الشام . كما بعث فرقة بقيادة السائب بن هشام العامري ليقطع على مروان طريقه الى مصر ، وجيشا بقيادة **زهير بن قيس البلوي** الى أيله ليمنع عبد العزيز بن مروان من المسير عليها، وقد باءت معظم هذه التدابير بالفشل . **فالسائب** رجع بجيشه ولم يقاتل . وهزم **زهير بن قيس** بالقرب من **أيلة**(٨٢) . ولما وصل مروان الى مصر اشتبك مع قوات ابن جحدم فتراجعت هذه ومنيت بخسائر فادحة . واسفر الامر عن صلح بين **الطرفين** دخل مروان بموجبه **الفسطاط** في غرة جمادى الاولى سنة ٦٥هـ . وضربت اعناق ثمانين رجلا من **قبائل معافر** ، امتنعوا عن خلع ابن الزبير(٨٣) .

اقام مروان في مصر شهرين ، ثم اسند ولايتها الى ابنه عبد العزيز وعاد الى دمشق. وأثناء عودته نزل في **الصنبرة من أرض الاردن**(٨٤) ، فبلغه هناك أن**مالك بن هبيرة** السكوني يقول : « شرط لي مروان بالمرج أن يجعل لي ولقومي **كورة البلقاء** »، وأن عمرو بن سعيد الاشدق يقول : « **الامر لي بعد مروان** » وأن خالد بن يزيد يقول : « **الامر لي بعد مروان** » . فقال لحسان بن بحدل الكلبي : إن قوماً يزعمون أني اشترطت لهم شروطا ووعدتهم عدات(٨٥) . ثم أخذه بالترغيب والترهيب لحمله على مبايعة ولديه عبد الملك ثم عبد العزيز . وأورد الطبري(٨٦) أن مروان قال **لحسان:** بلغني أنك تقول : اني اشترطت على مروان ان يولي خالد بن يزيد الخلافة بعده . مما حدا بحسان على الجد في بيعةولدي مروان عبد الملك ثم عبد العزيز ، ليكذب ما ابلغ مروان عنه .

ولما اجتمع الناس عند مروان قام حسان فقال : « إنه بلغنا ان رجالا يتمنون اماني ، ويدعون اباطيل ، فقوموا ، فبايعوا لعبد الملك ابن امير المؤمنين بالعهد ، ثم لعبد العزيز من بعده ».

كانت بيعة مروان لولديه وعزل خالد بن يزيد ، أول مخالفة **لمقررات مؤتمر الجابية** . ولم يعارض ابن بحدل في ذلك بسبب احراج الخليفة له ، ولم يكن باستطاعته أن يكذبه . فضلا عن أن حسان يعلم أن مروان كبير السن ووفاته متوقعة في القريب

العاجل ، ثم ان خالدا ما زال في سن لا تؤهله لتسلم الخلافة . وكان ابن بحدل يخشى أن تؤول الخلافة الى عمرو بن سعيد الاشدق ، ويعتقد أن مروان وابناءه أحق بهذا المنصب منه .

والجدير بالذكران مروان قبل ان يأخذ البيعة لولديه أخذ يتحرش بخالد بن يزيد ، ويتعمد اهانته امام الاخرين(٨٧) بغية تحجيمه واعطاء صورة للناس بعدم صلاحيته للخلافة .

وحاول مروان بعد أن استتب له الامر في عدد من الامصار ان يرسل حملة للاستيلاء على الحجاز الذي كان لا يزال بيد ابن الزبير ، وولى **جيش بن دلجة** قيادة هذه الحملة . كما أرسل الى العراق بعثا بقيادة **عبيد الله بن زياد** ولكن هذين القائدين لن يتمكنا من اتمام المهمة في حياة مروان ، اذ أن المنية عاجلته قبل ان ينفذ هذان القائدان ما ارسلا من أجله(٨٨) .

مات مروان تاركا لولي عهده عبد الملك احداثا جساما ومعضلات كبيرة ، يتطلب حلها أن يكون على رأس الدولة رجل قوي لا تهزه الخطوب كعبد الملك ، الذي سيتمكن في مدة وجيزة من استعادة العراق والحجاز الى حظيرة الدولة الاموية . مما جعل بعض المؤرخين يعتبرونه المؤسس الثاني للدولة الاموية بعد معاوية بن أبي سفيان .

توفي مروان في دمشق في شهر رمضان من عام ٦٥هـ ، بعد أن حكم اقل من سنة. وقد اختلف المؤرخون ومن عني بأخبار بني أمية بسبب وفاته . فمنهم من رأى أنه مات حتف انفه ، ومنهم من رأى أن فاختة بنت ابي هاشم بن عتبه أم خالد بن يزيد هي التي قتلته . وكان قدتزوجها بعد أن أخذت البيعة له . فلما عزل ابنها عن ولاية العهد ، واستخف به وافحش له بالقول شكاه اليها . فأضمرت ان تنتقم لابنها ونفسها ويقال إنها وضعت له سما في لبن فشربه فمات ، ويقال انها غطت وجهه بوسادة وهو نائم فمات مخنوقا(٨٩) . والقول الاخير هو الارجح عند المؤرخين .

* * *

الحواشي :

(١) ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة جـ٣، ص ٤٥٥ . **ابن حزم الاندلسي** ، جمهرة انساب العرب ص ٨٧٢ .

(٢) ابن حجر ، **تهذيب** التهذيب جـ ١٠، ص٩١.

(٣) المصدر نفسه ، ٩١/١٠ .

(٤) **ابن حجر العسقلاني** ، الاصابة في تمييز الصحابة جـ٣ ، ص ٤٥٦ . وانظر ، محمد ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، جـ٤، ص ١٢٦ . ويذكر انه ولد ليلة بدر في السنة الثانية للهجرة وتوجه الى الطائف معاً بيه.

(٥) **الذهبي** ، تجريد اسماء الصحابة ، جـ ٣ ، ص ٤٥٦ .

(٦) **الذهبي** ، سيرة اعلام النبلاء، جـ٣ ص٤٧٦.

(٧) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ٤٧٧ .

(٨) **الديار البكري** ، الخميس في أنفس نفيس، جـ ٢ ص ٢٩٧ .

(٩) **ابن العربي** ، العواصم من القواسم ، المكتبة العلمية ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٨٩ .

(١٠) **الرازي** ، كتاب الجرح والتعديل .

(١١) **ابن حجر** ، تهذيب ، جـ١٠ ، ص ٩٢ .

(١٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ، ص ٢٢٩ . وانظر ، ابراهيم علي شعوط ، أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، المكتب الاسلامي ، ١٩٨٨ ، ص ٢٦٢ .

(١٣) **ابن الاثير** ، الكامل في التاريخ ، جـ٣ ، ص ٣٤٨ .

(١٤) المصدر نفسه ، ٢٤٨/٣ .

(١٥) المصدر نفسه ، ٢٤٨/٣ .

(١٦) **ابن العربي** ، العواصم ، ص ٩٠ .

(١٧) **الطبري** ، تاريخ ، جـ ٤ ص ٣٥١ .

(١٨) **ابن العربي** ، العواصم ، ص ١٢٧ ، ١٢٨.

(١٩) المصدر نفسه ، ص ، ١١٠ .

(٢٠) **الطبري** ، تاريخ ، جـ ٥ ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٧ . وانظر ، **ابن العربي** ، العواصم ، ص ١٣٦ .

(٢١) **الطبري** ، تاريخ ، جـ ٤ ص ، ٣٥١ .

(٢٢) **ابن الاثير** ، الكامل ، جـ٣ ، ص ٨٠ .

(٢٣) **الطبري** ، التاريخ ٣٥١/٤ .
ابن الاثير ، **الكامل** ، ٨٠/٣ .

(٢٤) **ابن حجر** ،**مقدمة في** فتح الباري شرح صحيح البخاري ، جـ٢ ، ش ١٦٤ .

(٢٥) **ابن العربي** ، العواصم ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢٦) **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ٢٥٧/٨ .

(٢٧) **ابن الاثير** ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٢١٨ .
تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٠٦ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ٢٢١/٤ .

(٢٩) المصدر نفسه ، ٢٢٨/٤ . **ابن خياط** ، ص ٢٢٣ . وانظر ، **عبد المنعم صالح العلي** ، دفاع عن ابي هريرة ، مكتبة النهضة ١٩٨١ ص ١٥٦ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ٢٢٨/٤ .

(٣١) **محمد الشرقاوي** ، المدينة المنورة ، ص ١٦.

(٣٢) **المسعودي** ، مروج الذهب ، ٢٠٧/٣ .

(٣٣) المصدر نفسه ، الكامل ٢٠٨/٣ . وانظر **ابن سعد** ، **الطبقات** ، ٤١/٥ .

(٣٤) **الطبري** ، **تاريخ** ، ٥٢١/٥ .

(٣٥) **ابن قتيبة** ، **الامامة** والسياسة ، ص ٢٠٥ وانظر ، **السيد عبد العزيز سالم** تاريخ الدولة العربية ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية ١٩٧٣ ، ص ٢٧٢ .

(٣٦) **ابن قتيبة** ، **الامامة** والسياسة ، ص ٢٠٤.
اليعقوبي ، تاريخ ، ٢٥١/٢ .

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ٢١٥ .

(٣٨) **السيد عبد العزيز سالم** ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٧٢ .

(٣٩) **نبيه العاقل** ، تاريخ خلافة بني امية ، دار الفكر ، ط٣ ، ١٩٧٥ . ص ١١٨ .

(٤٠) **يوليوس فلهوزن** ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١١٦ .

(٤١) **حسين عطوان** ، **الامويون والخلافة** ، دار الجيل ، ط١ ، ١٩٨٦ ، ص ١٠٥ .

(٤٢) **البلاذري** ، انساب ، ١٣٢/٥ . **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ٣٣٩/٨ .

(٤٣) **ابن كثير** ، ٢٤١/٨ . **ابن عساكر** ، **تهذيب**

تاريخ ابن عساكر ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٩ ، ١١١/٧ . **الطبري**، تاريخ ، ٥٤٠/٦ .

(٤٤) احسان **النص** ، القبيلة وأثرها في الشعر الاموي ، دار اليقظة العربية ، بيروت ص٥٧ .

(٤٥) **البلاذري** ، انساب ، ١٢٨/٥ .

(٤٦) **البلاذري** ، انساب ، ١٦٥/٤ . **الطبري** ، تاريخ ، ٥٢٥/٥ . **ابن الاثير** ، الكامل ، ١٤٦/٤ .

(٤٧) **البلاذري** ، انساب ، ١٢٥/٥ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ١٣٢/٥ . الطبري، ٥٣١/٥ .

(٤٩) **المسعودي** ، مروج الذهب ، ٩٥/٣ ، (كان يفرض لالفي رجل منهم ألفي درهم ، وان مات قام ابنه او ابن عمه على أن يكون لهم الامر والنهي ، وصدر المجلس وكل ما كان من حل وعقد).

(٥٠) قرية في نواحي الجولان على مسيرة يوم الى الجنوب من دمشق ، انظر المسعودي، ٩٦/٣ .

(٥١) **البلاذري** ، انساب ، ١٢٧/٥ ، ابن عساكر تهذيب ، ١٠/٧ . **ابن كثير** ،البداية والنهاية ٢٤١/٨ .

(٥٢) **البلاذري** ، أنساب ، ١٣٣/٥ ، **الطبري** ، تاريخ ، ٥٣٥/٦ . ابن عساكر ، ١٠/٧ . **ابن الاثير** ، الكامل ، ١٤٧/٤ ، **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ٢٤٠/٨ .

(٥٣) **ضياء الدين الريس** ، عبد الملك بن مروان وزارة الثقافة ، مصر ١٩٦٢ ، ص٤٨ .

(٥٤) **البلاذري** ، انساب ، ١٢٨/٥ .

(٥٥) **الطبري** ، تاريخ ، ٥٣٥/٦ ، **ابن الاثير** ، الكامل ، ٢٤٧/٤ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ٥٣٥/٦ .

(٥٧) **البلاذري** ، انساب ، ١٤٤/٥ .

(٥٨) **البلاذري** ، انساب ، ١٣٣/٥ ، **ابن الاثير**، الكامل ، ٢٤٧/٤ . **الطبري** ، ٥٢٣/٦ .

(٥٩) **البلاذري** ، أنساب ، ١٢٨/٥ .

(٦٠) **البلاذري** ، انساب ، ١٢٨/٥ . **العقد الفريد** ، ٢٩٤/٤ . **ابن قتيبة** ، الامامة والسياسة ، ١٦/٢ .

(٦١) ماسخوه ، صافحوه .

(٦٢) **الطبري** ، تاريخ ، ٥٣٧/٦ . **ابن الاثير** ، الكامل ، ١٤٨/٤ .

(٦٣) **البلاذري** ، انساب ، ١٣٨/٥ .

(٦٤) **ابن خياط** ، تاريخ ، ص ٢٥٨ . **البلاذري**، انساب ، ١٤٤/٥ .

(٦٥) **المسعودي** ، مروج الذهب ، ٩٥/٣ .

(٦٦) المصدر نفسه ، ٩٥/٣ (فان تكن لنا على ما كان ايام معاوية ويزيد نصرناك).

(٦٧) **الطبري** ، تاريخ ، ٥٤٤/٥ (اشترط أن تنزل البلقاء ومن كان في الشام من كنده، وان يجعلها لهم ، فأعطاه ذلك).

(٦٨) **الطبري** ، ٥٤٤/٥ .

(٦٩) **الاصفهاني** ، الاغاني ، ٢٤١/١٧ . **الطبري**، تاريخ ، ٥٤١/٥ .

(٧٠) **شحاده الناطور** ، عبد الله بن الزبير والانتفاضة الثورية في عهد بني أمية ص١٢١ وما بعدها .

(٧١) البلاذري ، انساب ، ٢٢٧/٥ . **ابن عساكر** ١٠/٧ . الطبري ، ٥٣٥/٦ .

(٧٢) المسعودي ، مروج ، ٩٥/٣ . **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ٢٤٠/٨ . **البلاذري** ، نساب ، ١٣٣/٥ .

(٧٣) **الطبري** ، تاريخ ، ٥٢٠/٥ — ٥٢٥ .

(٧٤) **نبيه العاقل** ، تاريخ الخلافة الاموية ، ص ١٢٨ .

(٧٥) **الطبري** : تاريخ ، ٥٢٣/٥ — ٥٢٤ .

(٧٦) **احسان النص** ، العصبية القبلية، ص٢٥٥ وما بعدها .

(٧٧) **ابن عساكر** ، ١١/٧ . ابن خياط، ٢٣٦/١ .

(٧٨) **البلاذري** ، انساب ، ١٣٦/٥ . **ابن الاثير**، الكامل ، ١٤٩/٦ . **الكندي** ، ولاة مصر ، ص ٦٥ .

(٧٩) **ابن الاثير** ، الكامل ، ١٥٠/٦ .

(٨٠) **اليعقوبي** ، تاريخ ، ص ٢٥٦ . **المسعودي**، مروج الذهب ، ٨٧/٣ . **ابن الاثير** ،الكامل، ١٤٩/٦ .

(٨١) **السيد عبد العزيز سالم** ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٧٧ .

(٨٢) **الكندي** ، ولاة مصر ، ص ٦٦.

(٨٣) المصدر نفسه ، ص ٦٧. وانظر ، سيدة الكاشف ، مصر في عصر الولاة ، ص ، ٨٠.

(٨٤) **المسعودي** ، مروج الذهب ، ٨٦/٣ .

(٨٥) **البلاذري** ، انساب ، ١٥٠/٥ ، **اليعقوبي**، تاريخ ، ٢٥٧/٣ . **ابن قتيبة** ، الامامة والسياسة ، ١٧/٢ .

(٨٦) **الطبري** ، تاريخ ، ٥٤٠/٦ .

(٨٧) **المسعودي** ، مروج الذهب ، ٩٨/٣ . **ابن قتيبة** ، الامامة والسياسة ، ١٧٧/٢. **ابو الفداء** ، المختصر ، ١٩٤/١ .

(٨٨) **الطبري** ، تاريخ ، ٦١١/٥ .

(٨٩) **ابن سعد** ، الطبقات ، ٤٣/٥ . **ابن خياط**، ص ٣٢٩ . **البلاذري** ، انساب ، ١٥٨/٥ . **اليعقوبي** ، تاريخ ، ٢٥٧/٢ . **الطبري** ، تاريخ ، ٦١١/٦ . **ابن الاثير** ، الكامل ، ١٩٠/٤ . **ابن كثير** ، البداية والنهاية ، ٢٦٢/٨ .

* * *

عبد الله بن إباض ونشاة المذهب الاباضي

د. محمد حسن النابودة
ج . الامارات العربية المتحدة

يعد عصر عبيد الله بن زياد من اكثر الفترات التاريخية عرضة للنقد والهجوم في التاريخ الاسلامي . فالدور الذي قام به هذا الامير في خدمة الخليفة يزيد بن معاوية كان له أثره الكبير على الاسلام والمسلمين من الناحية السياسية والدينية ، وفي عهده نمت جذور الثورة الهاشمية بعد مقتل الحسين بن علي ، وتأسس المذهب الشيعي . فبعد حادثة كربلاء برزت الحركة الشيعية حاملة دماء آل البيت واتخذت شكل عقيدة استولت على النفوس ، اكتمل على اثرها بناء المذهب الشيعي . وهو الامر ذاته الذي حدث مع المذهب الاباضي (مذهب القعدة) الذي أسسه أبو بلال مرداس بن أدية ، الذي لم يكن اوفر حظا من الحسين بن علي ولقي حتفه في معركة لم تكن أقل فاجعة من كربلاء . فاذا كان الحسين قد سعى بنفسه الى القدر المكتوب له في كربلاء ، فان أبا بلال حاول الافلات من قدره لكنه لم يفلح ، وقتل غدرا على أرجح الروايات . وسيرته ليست غامضة كسيرة ابن إباض ، فقد اتفقت المصادر الاسلامية الاولى في شخصه وتاريخ ظهوره . أما ابن إباض ، الذي نسب اليه أقدم المذاهب الاسلامية ، فلا نعرف عنه الا القليل . ذكر اسمه في حادثة حصار مكة أيام يزيد بن معاوية ، وورد في حادثة افتراق الخوارج بالبصرة بعد وفاة يزيد . واذا كان بعض المؤرخين القدامى قد اختلفوا حوله فان المحدثين حذو حذوهم لندرة المعلومات من ناحية ، وغموض ما يتوافر منها من ناحية أخرى . أما المصادر الاباضية فهي الاخرى لم تأت بجديد في هذا الموضوع ، وتضاربت رواياتها بشأن الدور السياسي والديني الذي قام به ابن اباض .

في هذا البحث نحاول القاء الضوء على نشأة هذا المذهب في موطنه الاول البصرة، وما اذا كان ابن اباض مؤسسه الحقيقي ، بتفنيد الروايات التاريخية التي عرضت للخوارج القعدة في البصرة والعراق بعامة . وان كان هذا العرض لا يفي بالغرض المنشود لاقتضابه .

* * *

تنسب المصادر الاسلامية كثيرا من الخوارج الاوائل وقادتهم الى قبيلة تميم وبخاصة الى فرعها بني صريم سكان صحراء الدهناء بنجد(١) . ومن هؤلاء أبو بلال

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، اذار ــ حزيران ١٩٩٣ .

مرداس بن أدية وعبد الله بن اباض . وابرز ما يلفت النظر هو اسم عبد الله . فهناك اربعة من مؤسسي الفرق الاسلامية الاولى بهذا الاسم هم عبد الله بن اباض وتنسب اليه الاباضية ، وعبد الله بن سبأ وتنسب اليه السبئية ، وعبد الله بن صفار وتنسب اليه الصفرية ، وعبد الله بن وهب الراسبي قائد الخوارج في معركة النهروان ، وجميعهم مثار جدل وشك . فسبأ وراسب واباض وصفار ليست الا القابا أطلقت على فرق كانت مناوئة للحكم الاموي آنذاك . فما حقيقتها ..؟ ومن هم أصحابها الاصليون .. وما علاقتهم بهذه الفرق .. وهل صحيح انهم عبادلة ..؟

وللاجابة عن تلك الاسئلة نحن في حاجة الى دراسة أشمل واكثر تفصيلا تبتعد بنا عن مجال بحثنا .

اما عبد الله بن اباض فانه ينسب الى بني صريم بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة من تميم(٢) . فنسبه مقطوع كما يلاحظ . واباض ليس اسم والده ويقال بانه اسم لقرية باليمامة حدثت فيها احدى معارك الردة بين خالد بن الوليد ومسيلمة الكذاب (٣) . هذا بالاضافة الى أن عشيرته التي نشأ وترعرع فيها ليس لها ذكر في المصادر الاسلامية . فمن هو اذا ابن اباض ..؟ وهل كان معروفا بهذا الاسم آنذاك .. وما علاقته بالمذهب الاباضي .. وما صلته بالخوارج القعدة ..؟

ووفقا لما أورته المصادر فان عبد الله بن اباض لم يأت بعمل بارز ولم يشارك في احداث شهيرة بشكل واضح . وكل ما نعرفه عنه ينحصر ، تقريبا ، في روايتين اثنتين، كما سبق واشرنا ، وهما لا يعطيان صورة واضحة لشخصيته أو لنشاطه السياسي والعقائدي . وقبل مناقشة ذلك ، نعرض لما جاء عن عبد الله بن اباض في المصادر الاسلامية :

اولا ـ المصادر غير الاباضية :

البلاذري : « قال ابو عبيدة معمر بن المثنى : كان في سجن عبيد الله بن زياد نافع بن الازرق الحنفي ونجدة بن عامر الحنفي وعبد الله بن اباض وعبيد بن هلال العنزي ... وكانوا غضبوا للبيت فقاتلوا مع ابن الزبير ، وهم لا يرون نصره ولكنهم احتسبوا في جهاد أهل الشام ثم انهم قدموا البصرة فالتقطهم ابن زياد وحبسهم ، فيقال إنه كان في سجنه من الخوارج مائة وأربعون »(٤) .

البغدادي : « .. اجمعت الاباضية على القول بامامة عبد الله بن إباض، وافترقت فيما بينها فرقاً أربع ، وهي : الحفصية ، قالوا حفص بن ابي المقدام .. الحارثية ،

اتباع حارث بن مزيدالاباضي ،.. اليزيدية ، ومنهم غلاة ،.. واصحاب طاعة لا يراد الله بها ...»(٥) .

الملطي : « والفرقة الخامسة من الخوارج : هم الاباضية أصحاب إباض بن عمرو، خرجوا من سواد الكوفة ، فقتلوا الناس وسبوا الذرية ، وقتلوا الاطفال ، وكفروا الامة ، وافسدوا العباد والبلاد ، فمنهم بقايا بسواد الكوفة »(٦) .

الشهرستاني : « الاباضية : أصحاب عبد الله بن إباض ، الذي خرج أيام مروان ابن محمد ، توجه اليه عبد الله بن محمد بن عطية ، فقاتله بتبالة . وقيل ان عبد الله ابن يحيى الاباضي كان رفيقاله في جميع أحواله وأقواله .. وهم ثلاث فرق :الحفصية: أصحاب حفص بن أبي المقدام . والحارثية : أصحاب الحارث الاباضي ، واليزيدية أصحاب يزيد بن أنيسة »(٧) .

الرازي : « والفرقة التاسعة عشرة من الخوارج : الاباضية ، اتباع عبد الله بن إباض ، ظهر في زمن مروان بن محمد آخر ملوك بني امية »(٨) .

ابن حجر :« عبد الله بن إباض التميمي الاباضي ، راس الاباضية من الخوارج وهم فرقة كبيرة . وكان هو فيما قيل رجع عن بدعته ، فتبرأ أصحابه منه واستمرت نسبتهم اليه »(٩) .

الحميري : «ومن الخوارج الاباضية : إمامهم عبد الله بن إباض التميمي من مقاعس تيم الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . قال ابو القاسم البلخي : حكى أصحابنا ان عبد الله بن إباض لم يمت حتى ترك قوله أجمع ورجع الى الاعتزال والقول بالحق . قال :والذي يدل على ذلك ، أن أصحابه لا يعظمون أمره .. ومن الاباضية ، الحفصية : إمامهم حفص بن ابي المقدام ... ومنهم اليزيدية : إمامهم يزيد بن ابي أنيسة ..»(١٠) .

المبرد : « الاباضية وهم أصحاب عبد الله بن اباض ... وقوله أقرب الاقاويل الى السنة من أقاويل الضلال »(١١) .

ابن حزم : « واقرب فرق الخوارج الى أهل السنة أصحاب عبد الله بن يزيد الاباضي الفزاري الكوفي »(١٢) .

«والى قول الثعالبة رجع عبد الله بن اباض فبرىء منه اصحابه فهم لا يعرفونه اليوم، ولقد سألنا من هو مقدمهم في علمهم ومذهبهم عنهم فما عرفه أحد منهم »(١٣).

ابن قتيبة : « الاباضية من الخوارج ، ينسبون الى عبد الله بن إباض وهو من بني مرة بن عبيد من بني تميم رهط الاحنف بن قيس »(١٤) .

ثانيا ـ المصادر الاباضية :

بداية تجدر الاشارة الى أن معظم المصادر الاباضية متأخرة ، وخاصة التاريخية منها . اضافة الى أن مؤلفيها اعتمدوا كثيرا على الطبري وابن الاثير والبلاذري والمسعودي وابن كثير في كتابتهم لتاريخ صدر الاسلام والقرن الاول الهجري. وبالنسبة لابن اباض فهذه المصادر لم تأت بجديد ، بل ان مؤلفيها لا ينكرون أن معرفتهم بابن إباض لا تتعدى المعلومات التي ورد ذكرها في المصادر غير الاباضية .

ومن اقدم المصادر الاباضية سيرة ابي الحسن علي بن محمد البسيوي أو البسياني ، من أعيان القرن الخامس الهجري ، اذ لم يشر في سيرته هذه لاي دور بارز قام به ابن إباض . فهو يورد بعض أحداث صدر الاسلام ، ثم يتكلم عن أوائل المحكمة، ويشير الى الدور الهام لابي بلال مرداس بن أدية التميمي في محاربة الجبابرة الامويين وخروجه عليهم ، وينتقل بعد ذلك الى قيام الإمامة الاولى في عمان (١٥) .

ومن سيرة أبي المؤثر (الصلت بن خميس الخروصي وهو من فقهاء عمان عاش في القرن الثالث الهجري) نورد هذه المقتطفات : « فكانت سيرة المسلمين بعد أهل النهروان واحدة وكلمتهم جامعة ، غير أنهم كانوا مقهورين في دار تقية بين ظهراني الجبابرة ، الا من وجد منهم روح الجهاد فنهض اليه حتى يستشهد رحمهم الله (وهنا اشارة واضحة الى الخوارج القعدة في العراق كما سنرى فيما بعد) فخرج أهل النخيلة ، ثم قريب والزحاف ، ثم المرداس ، وغيرهم من الخوارج المسلمين على العدل (ولفظ الخوارج هنا نادرا ما يرد ذكره في المصادر الاباضية) ، حتى خرج نافع بن الازرق عدو الله فدعا الى دعوة لم يقل بها أحد قبله ، ثم انه خالف سيرة المسلمين ، فانتحل الهجرة واضاف الشرك الى أهل القبلة ، واستحل السبي والغنيمة ، فبرىء منه المسلمون . وقام نجدة بن عامر ، وعبد الله بن صفار ، فدعوا الى مثل ما دعا اليه نافع ، غير انهما خالفاه في امور اخرى .. فخالفهم عبد الله بن اباض امام المسلمين رحمه الله هو والمسلمون وبرءوا منهم ودعوا الى دعوة المسلمين .. »(١٦) .

« والخوارج مختلفون ، منهم المسلمون يسمون الاباضية لمكان امام المسلمين عبد الله بن اباض .. »(١٧) .

« .. ثم خوارج المسلمين من بعدهم (بعد أهل النهروان وغيرهم ممن خرج على علي بن ابي طالب) ثم قريب والزحاف ومن قاتل معهما زياد بن ابي سفيان بالكوفة

حتى استشهدوا رحمهم الله ، وعروة بن حدير رحمه الله الذي قتله عبيد الله بن زياد زياد واشياع يزيد بن معاوية بعد أن دعوهم الى دين الله حتى استشهدوا رحمهم الله. ثم إمام المسلمين عبد الله بن اباض وسائر ائمة المسلمين جابر بن زيد وصحار ابن عبد . . »(١٨) .

وينقل لنا المؤرخ العماني المعاصر سالم بن حمد الحارثي عن أحمد بن عبد الله الرقيشي ، وهو ممن عاشوا في القرن العاشر الهجري قوله : « الاباضيون منسوبون الى امامهم في الدين عبد الله بن اباض بن تيم اللات بن ثعلبة التميمي من بني مرة بن عبيد رهط الاحنف بن قيس، وهو الذي فارق جميع الفرق الضالة عن الحق وهم المعتزلة والقدرية والصفانية (الصفرية) والجهمية والخوارج والروافض والشيع. وهو أول من بين مذاهبهم ونقض فساد اعتقاداتهم ، بالحجج القاهرات والايات المحكمات النيرات ، والروايات النيرات الشاهرات .نشأ في زمان معاوية بن أبي سفيان وعاش الى زمان عبد الملك بن مروان ، وكتب اليه بالسيرة المشهورة والنصائح المعروفة المذكورة . . »(١٩) .

ويضيف الرقيشي كذلك « فقد بلغنا أن أبا بلال مرداس وغيره من أئمة المسلمين، لم يكونوا يخرجون الا بأمر امامهم في دينهم جابر بن زيد العماني رحمه الله ومشورته، ويحبون ستره عن الحرب ، لئلا تموت دعوتهم ، ويكون ردءا لهم »(٢٠) .

ويذكر احمد بن سعيد الشماخي (القرن التاسع الهجري) : « أن ابن اباض يصدر في كل افعاله واقواله عن جابر بن زيد »(٢١) .

وينقل عنه سالم بن حمود ما يلي :« وأما تسمية مذهبنا بالاباضية ، فلكون عبد الله بن إباض رضي الله عنه كان المجاهد علنا ، المناضل علنا ، في سبيل تحقيق الحقائق ، وتصحيح قضايا العقول فيما أحدثته المقالات والبدع من الزور والافتراء في شريعة ربنا . وكان شديدا في الله تعالى ، وله مناظرات مع أهل التنطس أو النطس والتفلسف ، كان الحجة الدامغة التي يخنس امامها كل ثرثار ، وله كلام مع عبد الملك بن مروان يهضم نفس كل جائر جبار ، فغلب على المسلمين أصحابه ، الذين يقولون بقوله . وتسمى المذهب باسمه على هذا المعنى ، وانما كان الامام القائد ، والوسيلة الراشد ، أس المذهب وحاميه ، مرجع الفضل في تدوينه وتشييد مبانيه، انما كان جابر بن زيد رضي الله عنه »(٢٢) .

بينما يقول أحمد بن سعيد الدرجيني (توفي حوالي ٦٧٠ هـ) : « إذ عرف عبد الله بن اباض بانه إمام أهل الطريق ، وجامع الكلمة لما وقع التفريق ، فهو العمدة في

الاعتقادات ، والمبين لطرق الاستدلالات والاعتمادات ، والمؤسس للابنية وهي مستندات الاسلاف . . . وكان راس القعد ورئيس من في البصرة وغيرها من الامصار، والمتقدم في حلبة الفضل بين أولئك الاخيار ، قعد عن اللحاق فاشتراه من غير انكار . . قلى ما اعتقده ابن الازرق في المحمدية ، وعدل عن طريق النجدية وسلك محجة العدل، وكان قدوة لاهل الفضل ، فاليه النسبة اليوم من العقائد ، معدولا عن اسم الوليد الى الوالد ، طلبا لتخفيف ، واختصاص الاشهر ، وذلك في اللغة معروف لا ينكر . . ولابن اباض فضائل مشهورة في الآفاق ، وآثار حميدة مخلدة في بطون الاوراق . . »(٢٣) .

وينقل لنا سالم بن حمد الحارثي عن البرادي (القرن الثامن الهجري) : « أن المسلمين بعد قتل أبي بلال ، اجتمعوا بجامع البصرة وعزموا على الخروج وفيهم عبد الله بن إباض ونافع بن الازرق ووجوه المسلمين ، فلما جن الليه سمع عبد الله دوي القراء ورنين المؤذنين ، وحنين المسبحين ، فقال لاصحابه أعن هؤلاء أخرج معهم ،فرجع وكتم أمره واختفى » . إلا أن الحارثي يرد على ذلك بالقول : « لم أقف على شيء من أمر عبد الله بن إباض » (٢٤) .

وقد ذكر ابن اباض في معظم المصادر الاباضية الاخرى على أنه أحد أئمة المذهب الاباضي (مذهب أهل الاستقامة) . فهو يأتي بالتدرج الطبقي بعد عبد الله بن وهب الراسبي صاحب النهروان . يقول صاحب **كتاب الاهتداء** (وهو من أعيان القرن السادس الهجري) بأن دين الاستقامة هو « دين محمد (ص) ودين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ودين عمار بن ياسر ، وعبد الله بن وهب الشاري إمام أهل النهروان ، ودين عبد الله بن اباض إمام المسلمين ، ودين عبد الله ابن يحيى الامام طالب الحق ، ودين وائل بن أيوب . . فهؤلاء أئمتنا وأولياؤنا في الدين وعلماؤنا في ديننا . . »(٢٥) .

ولا يورد ذكرا لآراء عبد الله بن إباض السياسية والدينية في المصادر الاباضية عامة ، فهي كما هو ملاحظ لم تأت بجديد في هذا الموضوع ولم تكشف اللثام عن سيرة ابن اباض الغامضة . والاضافة الوحيدة التي أتت بها بعض هذه المصادر والتي لم نجدها في المصادر غير الاباضية ، هي الرسالة التي نسبت الى ابن إباض وقيل بأنه أرسلها الى عبد الملك بن مروان .

أما المراجع الاباضية الحديثة فعلى الرغم من توسعها في كتابة التاريخ الاباضي والعماني ، عجزت عن اعطاء صورة واضحة لابن إباض وتاريخه ، إضافة الى كونها متأخرة ولا يمكن الاحتجاج بها وبآراء مؤلفيها ، من علماء ومشايخ الإباضية(٢٦) .

ويجمع الاباضيون المتقدمون منهم والمتأخرون على أن عبد الله بن إباض من تلاميذ جابر بن زيد العماني وأحد المتكلمين باسمه ، فهو الذي جهر بالدعوة وناظر الامويين واتباعهم ، ورد على آرائهم بالحجج الدامغة ، فلمع اسمه وانتشر خبره وعرفت دعوته ، ولهذا نسب الامويون او المخالفون لدعوته المذهب اليه . ويلخص لنا يحيى محمد دبوز أحد علماء الاباضية المعاصرين ذلك بقوله: « إن الإباضية قد نشأوا بمبايعتهم لعبد الله بن وهب الراسبي ليقضوا على الملكية ويحافظوا على الجمهورية ، وباستقلالهم عن الملوك ومبايعتهم للأمة ، ومعارضتهم للملكية ودعوتهم الى الجمهورية ، والتزام سيرة أبي بكر وعمر في العدل والديمقراطية والمساواة ، والتمسك بالدين في كل الامور . وكانت هذه النشأة في سنة سبع وثلاثين من الهجرة بعد خلع الحكمين للامام علي في رمضان من تلك السنة . وإمامهم في الدين هو جابر ابن زيد ، وقد نسبهم الامويون الى عبد الله بن إباض . وكان عبد الله بن إباض من علمائهم ، ومن فصحائهم وشجعانهم ومن المناظرين للخوارج ، يرد عليهم مقالاتهم ، ومن المناظرين لعبد الملك بن مروان ومن الدعاة الى الجمهورية ، وكان متحمسا مناضلا بالحجة والبرهان ، في النوادي والمجامع ، وكان يجتمع الإباضية في داره ، ويسير بهم الى المجامع والنوادي لمناظرة الخوارج ، والملكيين ، فظهرت شخصيته بهذا فنسب الجمهوريون إليه . أما إمام الإباضية فهو جابر بن زيد .. فأبى الأمويون أن ينسبوا إليه الجمهوريين وهو إمامهم في الدين ورئيسهم حتى لا يجذبوا إليه الأنظار ، ولا يبدون في هالة جابر المشرقة فتميل اليه النفوس ، فنسبوهم الى عبد الله بن إباض وهو أقل منزلة من جابر بن زيد في العلم وان كان لا يقل عنه في التقوى والورع والصلاح .. »(٢٧)

فما مدى صحة هذا الكلام ؟

نحن في واقع الأمر أمام شخصية معظم ما قيل عنها لا يستند على حجج وبراهين قوية ؛ فمن هو عبد الله بن إباض ..؟ وما هي علاقته بنشأة المذهب الاباضي ... ولماذا نسب إليه المذهب ..؟

نحصر معلوماتنا المتناثرة والمقتضبة عن ابن اباض في ثلاث نقاط :

- ذكر في حصار مكة أيام يزيد بن معاوية مع من ذكر من قادة الخوارج .
- وذكر بانه اختلف مع نافع بن الازرق وعبد الله بن صفار في البصرة .
- وذكرت المصادر الاباضية بانه أرسل رسالة الى عبد الملك بن مروان .

وعلى الجملة فان عبد الله بن اباض ، كما هو ملاحظ ، الحلقة المفقودة التي تقع بين ابي بلال مرداس بن ادية المؤسس الفعلي للخوارج القعدة ، كما سنرى ، وجابر بن

زيد المؤسس الحقيقي للمذهب الاباضي كما تدعي المصادر الاباضية . فبين هذين الشخصين هنا شخص ثالث قام بدور هام إبان انقسام الخوارج في البصرة حتى مجيء الحجاج بن يوسف الى العراق . فهل كان هذا الشخص هو عبد الله بن اباض ، هذا ما سوف نناقشه في الصفحات القادمة .

مما لا شك فيه أن كل حركة دينية او سياسية تمر بمراحل مختلفة ومتباينة في العمر ونشاطها يقترن بالظروف التي تكتنفها . ولا بد أن تكون هناك بذور أولى غرست في أرض خصبة . فالزمان والمكان هما العاملان اللذان يحددان نجاح الحركة أو فشلها. والمرحلة الاولى وهي مرحلة النشوء والتكوين غالبا ما تكون ذات طابع سري ، وتعرف بمرحلة الكتمان . وهذه المرحلة لا تجد لها مكانا في التاريخ ، وذلك للسرية المطبقة التي تحيط بها ، فاذا مات أهلها اندثرت معظم أخبارها .والدعوة الاباضية نشأت في أصعب الظروف التي يمكن ان تواجهها اية دعوة في التاريخ الاسلامي . ففي مرحلة الكتمان واجهت عبيد الله بن زياد أكثر ولاة بني أمية بطشا بالمناوئين للحكم الاموي، وفي مرحلة الجهر واجهت الحجاج بن يوسف الثقفي أقوى ولاة بني أمية وأكثرهم صرامة وشدة. ويعود بقاء هذه الدعوة على قيد الحياة إزاء تلك الظروف القاسية بالدرجة الاولى ، الى صلابة قادتها وقوة ايمانهم بالدعوة ، كذلك كان لموت يزيد بن معاوية المفاجيء دور ليس بالقليل في استمرارية الدعوة برغم ما أصاب مؤسسيها من قتل وتشريد . ففي الفترة ما بين موت يزيد واستقرار الامر للحجاج في العراق وجدت الدعوة الاباضية متنفسا لها استطاعت من خلاله اعادة تنظيم نفسها وتضميد جراحها. فكيف حدث ذلك؟

ان أولئك النفر السبعة او التسعة الذين نجوا من معركة النهروان شكلوا مع الذين لم يشاركوا في المعركة من الخوارج النواة التي انبثقت منها الحركة الخارجية بعد مقتل علي بن أبي طالب . هذه الحركة التي عانت منها الدولة الاموية من زمن معاوية ابن أبي سفيان مؤسسها ، الى زمن مروان بن محمد آخر خلفائها ، ومرت بمراحل وأطوار مختلفة ، كما شهدت انقساما قويا فيما بين أتباعها . ومما يؤسف له أن معلوماتنا عن الحركة الخارجية بين النهروان ومقتل علي بن أبي طالب تعوزها الدقة والوضوح . فالحركة اخذت منحى آخر بعد هزيمة النهروان ، ولم تعد تجاهر بآرائها وأفكارها مثلما كان الحال قبلها ، وغلب عليها طابع الانشقاق على الجماعة ، وفرضت عليها العزلة . وإزاء هذه الظروف تطلب الامر أن يكون العمل سريا ، بانشاء خلايا في جميع أرجاء الدولة الاسلامية . واعادة تنظيم الحركة وبث روح الثورة والحماسة في نفوس أفرادها الذين انهارت معنوياتهم بعد النهروان . ولن يتحقق ذلك الا بالخلاص من القيادات الموجودة على الساحة التي يلتف حولها معظم المسلمين ، كعقبة كأداء أمام الفكر الثوري الخارجي ، فلا بد إذاً من التخلص منها اذا أرادت الثورة أن تنجح في

كسب راي الجماهير المنقسمة على نفسها . وهكذا حيكت خيوط مؤامرة كبرى ذهب ضحيتها علي بن أبي طالب ، وكان الخاسر الاكبر نتيجة لذلك ليس شيعة علي فحسب بل الخوارج أنفسهم ، واصبح معاوية بن أبي سفيان الرابح الاكبر . ولم يكن ذلك في حسبانه . وكذلك نجم عن هذه المؤامرة سقوط دولة وقيام أخرى وانشقاق امة بلغ ذروته في كربلاء . ولا يزال قائما الى يومنا .

ومن المعروف أن الاباضيين مشارقة ومغاربة ينظرون الى عبد الله بن وهب الراسبي وعبد الرحمن بن ملجم على أنهم من كبار أتباعهم ، وأنهم استشهدوا في سبيل الحق وفعلوا ما فعلوا من أجل نصرة الاسلام والحفاظ على الدين ، الامر الذي يجعلنا نقول ان جذور المذهب الاباضي تمتد الى حروراء،وان مولده كان ثوريا صريحا.ونتيجة للهزيمة الثقيلة التي مني بها الخوارج عامة في النهروان تغير الوضع كليا ، ولم يعد طابع الصراحة يغلب على خوارج ما بعد النهروان . وهنا حدثت الفرقة بين فريق مؤيد للخروج والثورة بزعامة المتحمسين من الشباب والاعراب ، وفريق آخر مؤيد للقعود والتقية بزعامة ابو بلال مرداس بن ادية الذي كان يحظى باحترام الفريقين . والواقع ان السياسة التي اتبعها ولاة معاوية في العراق مع هؤلاء الخوارج كان لها تأثير واضح على نشاط كلا الفريقين .

واذا تركنا الخط الثوري جانبا لانه أشبع بحثا ودراسة ، فاننا نرى فيه الخط الواضح في تاريخ هذه الحركة ، واذا نظرنا الى الفريق الاخر الذي آثر القعود على الخروج وجدنا ان المؤسس الفعلي لهذه الفرقة هو ابو بلال مرداس بن أدية . فبعد النهروان وما حل فيها بالخوارج ، وبعد مقتل علي بن ابي طالب واستقرار الامر لمعاوية بن أبي سفيان ، اعتزل أبو بلال مع فئة من أنصاره العمل الثوري وآثروا القعود على الخروج،وساعدهم في ذلك سياسة اللين والمسالمة التي اتبعها المغيرة بن شعبة مع المناوئين للحكم الاموي ، ورد على معارضي هذه السياسة بالقول : « .. لا أحب أن ابتدىء أهل هذا المصر بقتل خيارهم ، وسفك دمائهم ، فيسعدوا بذلك وأشقى ، ويعز في الدنيا معاوية ، ويذل يوم القيامة المغيرة ؛ ولكني قابل من محسنهم ، وعاف عن مسيئهم ، وحامد حليمهم ، وواعظ سفيههم ، حتى يفرق بيني وبينهم الموت ، وسيذكرونني لو قد جربوا العمال بعدي »(٢٨) وقال لشخص أمن أحد الخوارج من الذين خرجوا على المغيرة : « ... والله لوددت أنك أتيتني بهم كلهم فامنتهم . . »(٢٩).

واود أن أشير هنا الى أن مذهب العقدة من الخوارج ظهر أول الامر في الكوفة . فحتى عهد المغيرة بن شعبة ظلت الكوفة المصدر الرئيسي الذي يزود الحركة الخارجية بما تحتاجه من طاقة بشرية ، أما البصرة فقد كان أهلها ذوي ميول عثمانية آنذاك ،

ومن الطبيعي الا تجد الحركة الخارجية أرضا خصبة لافكارها في هذه المرحلة المتقدمة من خلافة معاوية بن ابي سفيان الذي رفع شعار الثأر من قتلة عثمان . لكن الوضع تغير فيما بعد ، فقد هاجر الى البصرة أعداد كبيرة من القبائل العربية وخاصة أزد عمان . وهذه الاخيرة انضم كثير من أفرادها الى الخوارج القعدة .

ولم يكن جميع الخوارج أو غالبيتهم يوافقون ابا بلال على هذه السياسة ، فهذا معاذ بن جوين بن حصين يحث القاعدين من الخوارج على الخروج ومجالدة الكفار في أبياته التالية :

الا أيها الشارون قد حان لامرئٍ   شَرَى نفسه لله أن يترحَّلا

اقمتم بدار الخاطئين جهالةً   وكلُّ امرئٍ منكم يُصادُ ليُقتَلا(٣٠)

وها هو حيان بن ظبيان أحد الناجين من معركة النهروان يدعو خوارج الكوفة الى القتال ، والثأر للذين قتلوا من اتباعهم ، وأنهم لا عذر لهم في القعود بعدما ولي الأمر معاوية بن أبي سفيان « .. فانه لا عذر لنا في القعود ، وولاتنا ظلمة ، وسنة الهدى متروكة . . . »(٣١) .

أما أبو بلال فقد اتخذ موقفا صريحا وواضحا ، تجاه أولئك الذين خرجوا ارتجالا من الخوارج ، ورموا بأنفسهم الى التهلكة وغرروا بالاخرين وتسببوا في قتلهم ، فها هو يقول عن أحد قادة الخوارج ــ ممن خرجوا على زياد بن أبي سفيان ــ واسمه قريب الايادي : قريب لا قربه الله ، وايم الله لان أقع من السماء أحب إلي من أن أصنع ما أصنع »(٣٢) .

لكن هذه السياسة التي انتهجها أبو بلال لا تعني أنه سكت على الظلم ، وتجاهل ما يدور حوله . فبعد انتقاله الى البصرة ــ هذا الانتقال الذي لا نعرف سببه وربما كان لدواع أمنية أو تكتيكية أو لوجود أنصار هناك ــ لم يسكت على تهديد زياد وتوعده ، ورد عليه : « انبأ الله بغير ماقلت ، قال الله عز وجل : (وابراهيم الذي وفى ❋ ألا تزر وازرة وزر أخرى ❋ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فأوعدنا الله خيرا مما واعدت يا زياد ، فقال زياد : إنا لا نجد الى ما تريد انت وأصحابك سبيلا حتى نخوض اليها في الدماء »(٣٣) .

ينتمي ابو بلال الى قبيلة تميم ، شهد صفين مع علي بن أبي طالب ، وكان ممن خرجوا عليه بعد التحكيم وانضم الى عبد الله بن وهب الراسبي . وكان أحد الناجين من معركة النهروان(٣٤) . ويبدو أنه لقي بعض الدعم المعنوي من قبيلته تميم ، اقوى

واكبر القبائل العربية التي استوطنت العراق في تلك الفترة . وربما كان الاحنف بن قيس شيخ بني تميم وأحد أنصار علي بن ابي طالب متعاطفا معه ، الامر الذي جعل أبا بلال يحس بالاطمئنان أكثر من غيره من الخوارج إبان حكم معاوية بن أبي سفيان . وهذا قد يفسر لنا سبب ثناء المصادر الاباضية على الاحنف بن قيس التميمي .

هكـذا توفر لأبي بلال المنـاخ الملائم في البصرة لنشـر آرائه وأفكاره الدينيـة والسياسية ، خاصة أيام زياد بن أبي سفيان . فهـذا الاخير لم يشأ توسيع دائـرة الصراع مع الخوارج ، ولم يصطدم مع الخوارج القعدة ولم يزج بهـم في السجون ، ولهذا السبب لا نسمع أية أخبار عن أبي بلال واتباعه بقية حياة زياد بن أبي سفيان ، (ت ٥٤ هـ) .

وبسبب ورعه وتقواه وشدة تدينه استطاع أبو بلال أن يجمع حوله كثيرا مـن الاتباع والمريدين تولوا مهمة نشر مذهبه فيما بعد . ومن هؤلاء الاتباع ربما كان عبد الله ابن اباض والذي قدر له أن يتولى زمام المهمة بعده . وقد علا شأنه كقائـد للخوارج القعدة في البصرة بعد وفاة يزيد بن معاوية . ولكننا نفتقد الصورة التي كانت عليهـا العلاقة بين أبي بلال وابن اباض ، اذا سلمنا بالقول انه أحد أتباعه . اذ لا يوجـد بين أيدينا نص واضح يشير الى مثل هذه العلاقة وتبقى المسألة محل نقاش وجدل ، برغم وجود أدلة هي مثار شك وريبة عند كثير من المؤرخين المعاصرين .

ظل أبو بلال طوال عهد معاوية بن أبي سفيان يعمل في الخفاء خوفا من اثـارة الامويين ، خاصة بعد تولي عبيد الله بن زياد امارة العراق الذي عرف بشدته وقسوته تجاه المعارضين . كما كان لسياسة معاوية بن أبي سفيان التي غلب عليها طابع الحلم والتروي دور في عدم استفزاز الخوارج القعدة وعلى رأسـهم أبو بلال . الا ان هذه السياسة ما لبثت أن تغيرت عندما اعتلى يزيد بن معاوية عرش الخلافة في دمشق، وكان على نقيض أبيه ، متسرعا في اتخاذ القرار ووضع السيف محل الكلمة ، والغضب محل الحلم ، فلا عجب أن نرى كبرى المآسي تحدث في عهده، نقصد حادثة كربلاءووقعة الحرة ورمي الكعبة بالمنجنيق. ففي بداية عهده حل بالخوارج القعدة ما حل بشيعة آل البيت . فتوج هي كربلاء الخوارج القعدة ، والتي قتل فيها أبو بلال أحد كبار المحكمة الاوائل . واذا كان شيعة آل البيت أوفر حظا من الخوارج ، وشاركهم حزنهم على آل البيت جميع المسلمين ودونت أحداث كربلاء بشيء من التفصيل والوضـوح ، فان الخوارج بكافة تنظيماتهم بقوا في نظر المجتمع الاسـلامي فرقاً مارقة ولم يجدوا مـن يتعاطف معهم برغم اعتدال القعدة منهم، وما حل بهم من ظلم وتعسف على يد عبيد الله

ابن زياد المسؤول الاول عن حادثتي كربلاء وتوج . فتبخرت كثير من أخبار الخوارج القعدة ولم تجد لها مكانا في كتب التاريخ الاسلامي .

شهد عهد عبيد الله بن زياد احداثا جساما تسببت في انقسام المسلمين الى فرق تناوىء بعضها بعضا ، وتزيد من حدة الاختلاف والانشقاق . فاذا نظرنا الى سياسته تجاه الخوارج باتجاهيهم ــ ولن نتطرق لسياسته مع شيعة آل البيت ــ لوجدنا انهـا بلغت من الشدة والقسوة درجة أرغمت القاعدين منهم على الخروج ، وما تمخض عنه من نشأة المذهب الاباضي فيما بعد . فقد نقلت لنا الروايات بأنه كان اذا ظفـر بامرأة خارجية قتلها ثم عراها وصلبها . فكانت النساء الخارجيات اذا دعين للخروج قلن : «لولا التعرية لسارعنا»(٢٥) . وهذا عروة بن أدية أخو أبي بلال ، عندما ظفر به ابـن زياد أمر بقطع يديه ورجليه ثم قتله(٢٦) . وهذه السياسة كان لها رد فعل قوي لدى الخوارج ، وكانت السبب المباشر لظهور التطرف الديني عندهم الذي بلغ أشده عنـد الازارقة . لقد انحرفت الحركة الخارجية عن مسار المحكمة الاولى أيام عبيد الله بـن زياد بسبب سياسته الشديدة حتى ضد المعتدلين منهم . ويظهـر هذا واضحا فيكلام صخر بن عروة :« اني كرهت قتال علي بن أبي طالب لسابقته وقرابته ، فأما الان فلا يسعني الا الخروج»(٢٧) . ولقد كان لمقتل أبي بلال الاثر البالغ في نفوس جميع الخوارج آنذاك ، وتسبب في انقسامهم قعـدة يعملون سرا وينسب اليهـم عبيد الله بن اباض وآخرون حملوا السيف وظهر منهم المتطرفون والغلاة ، وبلغ هذا الخلاف ذروته بعد موت يزيد بن معاوية .

وتختلف الروايات في سبب ثورة ابي بلال مرداس بن أدية على عبيد الله بن زياد. ولا شك انه لم يحتمل نقمة ابن زياد وغلوه في قتـل الخوارج ، أو الشراة . حدثت الثورة في بداية عهد يزيد بن معاوية سـنة ٦١ هـ . وفي معركة غـير متكافئة التقـى الفريقان في توج وأبيد الجيش الخارجي وقتل أبو بلال ورفاقه غدرا كما تؤكد معظـم الروايات(٣٨) ، وبعدها أخذ ابن زياد في تتبع الخوارج وملاحقتهم واستئصال شأفتهم، فقتلهم على الشبه والظنة(٣٩) .

هكذا ارتبطت ثورة ابي بلال بسياسة القمع التي انتهجها ابن زياد ضد الخوارج. فقبيل وفاة معاوية بن ابي سفيان شد عبيد الله بن زياد على الخوارج ولم يفرق بين المعتدلين منهم والذين حملوا السيف ، وزج بالعشرات منهم في السجون ، ومـن بين هؤلاء ابو بلال . وتختلف الروايات في السنة التي قتل فيها عروة بن ادية فيما اذا كانت سنة ٥٨ هـ أو بعد مقتل أبي بلال(٤٠) . ونحن في الواقع لا نستطيع ترجيح رواية على أخرى بسبب الغموض الذي اكتنف حادثة قتله . فهو ممن نجوا من النهروان ، وممن

تحدوا زياد بن أبيه ومن بعده عبيد الله . ويبدو انه لم ينضم الى الثائرين من الخوارج وكان على علاقة قوية بأخيه أبي بلال يعمــل تحت امرته . ونحن اذ نشــير الى عروة ومقتله ، فان ذلك له صلة بثورة ابي بلال وبما حل بالخوارج القعدة . فبعد أن خرج أبو بلال من سجنه ـ أما لشهادة السجان عند ابن زياد لورعه وتقواه ، في رواية ، أو هروبه من السجن في رواية أخرى (٤١) ـأدرك ان عبيد الله لن يتركهوحاله،اضافة الى ما شاهده من قتل وتمثيل وصلب للخوارج ، الامر الذي جعله يغير مسلكه في القعود ويؤثر الخروج ؛ خاصة وأن أخاه عروة وهو السند القوي الذي يعتمد عليه في نشــر المذهب مطارد من قبل ابن زياد ومحكوم عليه بالقتل فيما لو أخذنا بالرواية الثانية . وهذه الظروف الصعبة اجبرته على الخروج هــو واتباعه . لكنه كان يعلـم ان نسبة نجاحه ضئيلة ، وبالتالي فانه لم يشأ أن يقضي على الدعوة ؛ مما يقودنا الى الاحتمال القائل بانه ترك له اتباعا يعملون في الخفاء بالبصرة ربما كان ابن اباض واحدا منهم ، أو خليفته في البصرة . ويتضح لنــا ذلك في قوله : « أريد أن أهرب بديني وأديــان اصحابي من أحكام هؤلاء الجورة .... واني لا اجرد سيفا ولا اخيف أحدا ولا أقاتل الا من قاتلني ... » وفي قوله : « ... انا لم نخرج لنفسد في الارض ولا لنروع أحدا ولكن هربا من الظلم ، ولسنا نقاتل الا من يقاتلنا ولا نأخذ من الفيء الا اعطياتنا »(٤٢).

الا أن ذلك لم يثن عبيد الله عنعزمه علىاستئصال شأفة جميع الخوارجوارسال الجيوش تترى خلفهم . ولقد تمكن اتباع أبو بلال رغم قلة عددهم وعدتهم من إلحاق هزيمة نكراء بالجيش الاموي بآسك صارت مضربا للمثل عنــد الشعراء(٤٣) . ولكــن الجيش الثاني الذي أرسله عبيد الله تمكن من قتل أبي بلال واتباعه غدرا كما ســبق وذكرنا(٤٤) ، وكان قائده عباد بن أخضر (علقمة) المازني الذي اغتيل على يد أحد اتباع أبي بلال فيما بعد بالبصرة(٤٥) ، الامر الذي يؤكد لنا أن كثيرا من اتباعه بقوا في البصرة بهدف مواصلة المهمة ، ولعل غالبية الذين بقوا ولم يخرجوا معه لم يكن عبيد الله بــن زياد على دراية بهم .

وعلى الجملة يمكن القول هنا أن عهد عبيد الله بن زياد قد شهد تطورا سياسيا ودينيا كبيرا على المستويين الشيعي والخارجي .« فبعد كربلاء برزت الحركة الشيعية كما لم تكن من قبل ، فقد أدى امتزاجها بدماء آل البيت الى تحويلها الى عقيدة متغلغلة في النفوس ، فانتقلت من طور النظر الى طور العمل ، لا سيما بعد انتشار التشيع بين الفرس أصهار الحسين »(٤٦) . وبدا هذا التطور والانتقال واضحا في حركتي التوابين والمختار بن أبي عبيد الثقفي إبان الحرب الاهلية الثانية .

اما فيما يخص بعض الخوارج ، فلقد كان لمعركة توج التي قتل فيهــا أبو بلال آثار سياسية ودينية هامة . فقد تغلغل مذهب أبي بلال ودعوته في نفوس المخلصين

ممن بقي من أتباعه ، ولم يزدهم مقتله الا تمسكا بهذا المذهب وتشبثابمبادئه وآرائه المعتدلة ، والتضحية في سبيل هذه الدعوة . ويبدو ذلك واضحا من الاشعار التي نظموها وخلدوا ذكر اسمه فيها . وقد كان لهذا الشعر تأثير قوي في نفوس من تبقى من الخوارج القعدة ، والصدى الذي تردد في جميع أرجاء الدولة الاسلامية واستقر في بعض أقاليمها لينبت ويثمر وتكبر ثماره .

ولحسن حظ الخوارج القعدة ــ ومعهم الشيعة كذلك ــ أن توفي يزيد بن معاوية قبل أن تضعف عزيمتهم وتنطفىء نار حركتهم وحسرتهم ، فجاءت الظروف لتهيىء للفريقين وغيرهم من المناوئين للحكم الاموي المناخ الملائم للعمل وتوسيع دائرة نشاطهم .

فبعد مقتل ابي بلال واخيه عروة حدث فراغ سياسي وديني انتهى بانقسام الخوارج وافتراقهم الى الابد . والفترة الممتدة بين مقتل أبي بلال ووفاة يزيد ، تعد فترة انتقال بالنسبة للحركة الخارجية . فحتى قبيل ثورته ظلت الحركة الخارجية متماسكة الاهداف ، ثوابتها واحدة أهمها التخلص من الحكم الاموي . وكان لأبي بلال دور كبير في هذا التماسك. وبعد وفاته دب خلاف شديد بين أتباعه ومؤيديه في القعود بقيادة عبد الله بن اباض، وبين المناصرين للخط الثوري المسلح بقيادة نافع بن الازرق. واقدم ما وصلنا في هذا الشأن ، هو ما ذكره ابن جرير الطبري عن هشام بن محمد الكلبي ولوط بن يحيى : « تفرق القوم (الخوارج) ، فأقبل نافع بن الازرق الحنظلي، وعبد الله بن صفار السعدي من بني صريم بن مقاعس ، وعبد الله بن اباض من بني صريم ، وحنظلة بن بهيس ، وبنو الماحوز : عبد الله ، وعبيد الله ، والزبير ، من بني سليط بن يربوع ، حتى أتوا البصرة ، وانطلق أبو طالوت من بني زمَّان بن مالك بن صعب من بكر بن وائل ، وعبد الله بن ثور (أبو فديك) من بني قيس بن ثعلبة ،وعطية ابن الاسود اليشكري الى اليمامة ، فوثبوا باليمامة مع أبي طالوت ، ثم أجمعوا بعد ذلك على نجدة ابن عامر الحنفي ، فأما البصريون منهم ، فانهم قدموا البصرة وهم مجمعون على رأي أبي بلال . فانتدب لها نافع بن الازرق ، فعقد على ثلثمائة رجل ، فخرج ، وذلك عند وثوب الناس بعبيد الله بن زياد ، وكسر الخوارج أبواب السجون وخروجهم منها ، واشتغل الناس بقتال الازد وربيعة وبني تميم وقيس في دم مسعود ابن عمرو ، فاغتنمت الخوارج اشتغال الناس بعضهم ببعض ، فتهيئوا واجتمعوا ،فلما خرج نافع بن الازرق تبعوه ، واصطلح أهل البصرة ... ، فتجرد الناس للخوارج ، فأتبعوهم وأخافوهم حتى خرج من بقي منهم بالبصرة ، فلحق بابن الازرق ، الا قليل منهم ممن لم يكن أراد الخروج يومه ذلك،منهم عبد الله بن صفار، وعبد الله بن اباض، ورجال معهما على رايهما . ونظر نافع ورأى ان ولاية من تخلف عنه لا تنبغي ، وأن من تخلف عنه لا نجاة له .. فكتب لهما كتابا فرد عليه ابن اباض : قد كذب فيما يقول ،

ان القوم كفار بالنعم والاحكام ، وهم براء من الشرك ، ولا تحل لنا الا دماؤهم ، وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام ، فقال ابن صفار: بريء الله منك، فقد قصرت، وبريء الله من ابن الازرق فقد غلا ، وقال الاخر : فبريء الله منك ومنه . وتفرق القوم واشتدت شوكة ابن الازرق ، وكثرت جموعه ... »(٤٧) .

هكذا تفرق الخوارج بعد موت يزيد بن معاوية ، واختلفوا في الاراء والتوجهات السياسية والدينية . فخرجت مجموعة منهم عن الخط أو النهج الذي انتهجه المحكمة الاوائل ، وأثرَ فيهم الجو السياسي السائد انذاك . ولا نعرف عن تفاصيل ذلك الاختلاف الا القليل . فقد تلاشت الروايات الاكثر تفصيلا والحقيقة الموثوق بها في خضم الاحداث الجسام التي شهدتها الامة الاسلامية في تلك المرحلة الحرجة من عمرها . فأحداث الخوارج إبان انقسامهم ، وتفرقهم ، في الفترة ما بين أواخر عصر معاوية بن أبي سفيان وبداية حكم عبد الملك بن مروان ، لم تكن الا شرارة لا يكاد نورها يرى ، أمام نار الحرب الاهلية ، التي اشتعلت ألسنتها في مشارق الدولة الاسلامية ومغاربها . فأصبحت بذلك أخبار الخوارج ، على هامش أحداث الشام ومعركة مرج راهط ، وثورة المختار في العراق ، وإمارة ابن الزبير في الحجاز وثورة ابن خازم في فارس وخراسان ، وحكم مصعب بن الزبير في البصرة ، هذا بالاضافة الى استفحال العصبية القبلية في كل هذه المناطق ، وما ترتب عليها من صراعات وحروب انتشر لهيبها بين القبائل العربية .

واذا رجعنا الى ما ذكره الطبري نجد نقصا كبيرا في المعلومات ، ومن المحتمل أن تكون هذه الرواية ليست الا نتفاً من روايات عدة اختلفت حوادثها وحقائقها التاريخية.

ان قضية اشتراك جميع الخوارج في الدفاع عن مكة مع ابن الزبير والمحاربة تحت امرته من الصعب التسليم بها . نحن نعرف أن الخوارج كانوا من الشدة والتعصب لدرجة أنهم يرفضون أي شخص لا يتفق معهم حول قضية عثمان وعلي . فكيف اذن يوافقون على امرة شخص هواه مع عثمان ، كان صاحب الراية ضد علي في معركة الجمل . وهو ، فوق كل هذا ، ابن الزبير بن العوام الذي يتبرأ منه الخوارج ، مما لا يتفق ومنطق الاحداث . اضافة الى أنه من الصعب تصور خروج خوارج البصرة منها وتوجههم الى ابن الزبير ، زمن عبيد الله بن زياد ، الذي عرف بشدته وقسوته تجاههم .

وبناء على ذلك ، نرى أن الذي حدث هو وقوف بعض الخوارج مع ابن الزبير ، ممن فروا من بطش والي العراق . وبعد فك الحصار تركوه وتوجهوا الى مواطنهم في اليمامة والبحرين لأن أسماءهم تؤكد نسبتهم الى هذه المناطق ، مثل: ابو فديك ونجدة

ابن عامر الحنفي . ومما يدعم هذا الراي ما ذكره المبرد في احدى رواياته عن افتراق الخوارج حين قال : « . . . فكان أول أمرهم الذي نستاقه ، أن جماعة من الخوارج منهم نجدة بن عامر الحنفي ، عزموا على أن يقصدوا مكة لما توجه مسلم بن عقبة يريد المدينة لوقعة الحرّة فقالوا : هذا ينصرف عن المدينة الى مكة ويجب علينا ان نمنع حرم الله منه ، ونمتحن ابن الزبير فان كان على رأينا بايعناه ، فمضوا لذلك »(٤٨).

اما البصرة فكانت آنذاك في قبضة ابن زياد ، وفي عهده لم يستطع أي من الفرق المناوئة للحكم الاموي تحريك ساكن ، الا بعد وفاة يزيد بن معاوية ، حين انقلبت الاوضاع وكشف الخوارج عن امرهم واخرجوا اخوانهم من السجن ، وبرز قائدهم ابن الازرق (٤٩) .

من هذا المنطلق نرى ان رواية هشام بن محمد ولوط بن يحيى ، كانت في الاصل لاكثر من خبر ، وان الاحداث الاخرى والاكثر أهمية غطت على أخبار الخوارج مما جعل الرواة لا يعطونها الاولوية في تجميعهم ونقلهم لتاريخ صدر الاسلام والقرن الاول الهجري . ومما زاد الامر غموضا أن معظم روايات تلك الفترة تم جمعها فيما بين سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية ، وما ترتب على ذلك الجمع والتدوين فيما بعد من تأثير سياسي وعقدي واجتماعي لم يكن في أي حال من الاحوال يخدم مصالح الخوارج . فليس عجبا أيضا ، ان يعجز الاباضية عن تغطية تلك الفترة من تاريخ الخوارج لانهم لم ينجوا من السلطة العباسية عندما قامت الامامة في عمان ، الامر الذي جعل كتابهم المتأخرين يعتمدون على المصادر غير الاباضية لكتابة تاريخ صدر الاسلام . وهكذا نجد انفسنا عاجزين عن تتبع بقية أخبار عبد الله بن اباض وكأنه اختفى من مسرح الاحداث واعتزل الامر كله . ومثلما هو واضح ، نجد أن أخبار ابن اباض وأخبار ابن صفار تنقطع عند هذه الرواية ، وكأنهما لم يقوما بدور بارز لكي يحفظه الرواة ويسجله التاريخ .

من خلال العرض السابق ، نكون قد وقفنا على بعض أجزاء تلك الحلقة المفقودة في نشأة المذهب الاباضي . فلو افترضنا أن هذه الحلقة أربعة أجزاء ، فقد وقفنا على ثلاثة منها ، وهي :

- الاحنف بن قيس وعلاقته بأبي بلال وعبد الله بن اباض ، والثلاثة من تميم .
- الحرب الاهلية في البصرة (٦٤ ـ ٦٥هـ) ، وموقف أهلها من الازارقة ، وموقف عبد الله بن اباض من ذلك .
- تعظيم اهل عمان لأبي بلال أيام عبد الملك بن مروان .

اما الاحنف بن قيس فلا نعرف عن علاقته بالخوارج القعدة شيئا ، الا أن ثناء المصادر الاباضية عليه يدعو الى الاعتقاد بأنه وفر نوعا ما من الحمايةلأبي بلال ، وجعله يعيش في منازل تميم . وليس مستبعدا أيضا أن يكون الاحنف وقبيلته تميم وراء انتقال أبي بلال من الكوفة الى البصرة . وخلال الفترة التي قضاها ابو بلال في منازل بني تميم بالبصرة التقى بعبد الله بن اباض الذي لا يستبعد ان يكون من أتباع الاحنف بن قيس ، فالاثنان ينتسبان الى بني مقاعس بن عمرو من بني سعد بن زيد مناة . ومعظم بطون بني سعد التي هاجرت الى العراق في صدر الاسلام استوطنت البصرة . وفي البصرة برزت قيادات تميمية لم تكن في كثير من الاحيان بجانبالامويين. كما ان قبيلة تميم بعامة وفرعها سعد بن زيد مناة بخاصة كانا الممول الرئيسيللحركة الخارجية في عهدها الاول .

ان توفر مثل هذه الظروف ، ساعد ابا بلال في نشر آرائه وافكاره بين أفراد قبيلته . وليس غريبا أن يكون عبد الله بن اباض من هذه القبيلة ، وأن يكون خليفة أبي بلال في البصرة ، وليس أيضا بمستبعد ان الاحنف بن قيس قد وفر بعض الحماية لابن اباض مثلما فعل لابي بلال قبل خروجه ، مع كل التدابير اللازمة في الحيطة والحذر . هكذا قدر للحركة الاستمرار في قبيلة تميم بعد وفاة يزيد بن معاوية .

والجزء الثاني من هذه الحلقة ، ما حدث في البصرة بعد هروب عبيد الله بن زياد منها ، قال ابو عبيدة : ... وكانت جماعة الازد آخر من نزل البصرة ، ... ، واقامت جماعة الازد لم يتحولوا ، ثم لحقوا بالبصرة بعد ذلك في آخر خلافة معاوية ، وأول خلافة يزيد بن معاوية ، فلما قدموا قالت بنو تميم للاحنف : بادر الى هؤلاء قبل ان تسبقنا اليهم ربيعة .... »(٥٠).

وقد ذكر عوانة بن الحكم نقلا عن هشام بن محمد انه قال : « ... وكانت خوارج قد خرجوا ، فنزلوا بنهر الاساورة حين خرج عبيد الله بن زياد الى الشام ، فزعم ناس أن الاحنف بعث اليهم أن هذا الرجل الذي قد دخل القصر (ويقصد به مسعود ابن عمرو الازدي) لنا ولكم عدو ، فما يمنعكم من أن تبدؤا به ، فجاءت عصابة منهم حتى دخلوا المسجد ... » وفي حديث طويل ذكر أن أحد هؤلاء الخوارج الذين دخلوا المسجد ومسعود يخطب رماه بسهم أصاب قلبه فمات(٥١) .

وقال هشام بن محمد نقلا عن لوط بن يحيى :« ... فانتدب لها نافع بن الازرق، فاعتقد على ثلاثمائة رجل ، فخرج ، وذلك عند وثوب الناس بعبيد الله بن زياد وكسر الخوارج أبواب السجون وخروجهم منها ، واشتغل الناس بقتال الازد وربيعة وبني

تميم وقيس في دم مسعود بن عمرو ، فاغتنمت الخوارج اشتغال الناس بعضهم ببعض فتهيئوا واجتمعوا . فلما خرج نافع بن الازرق تبعوه ، واصطلح أهل البصرة على عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب يصلي بهم . وخرج ابن زياد الى الشام . واصطلحت الازد وبنو تميم . فتجرد الناس للخوارج ، فاتبعوهم واخافوهم حتى خرج من بقي منهم بالبصرة فلحق بابن الازرق، الا قليلا منهم ممن لم يكن اراد الخروج يومه ذلك ، منهم عبد الله بن صفار ، وعبد الله بن اباض ، ورجال منهما على رأيهما »(٥٢) .

فهناك علاقة لا نعرف عنها شيئا ، ربطت الاحنف بن قيس زعيم تميم ببعض الخوارج ـ ربما القعدة ـ وهيأت المناخ المناسب للفكر الخارجي القاعد ـ وكانت زعامته حتى ذلك الوقت في بني تميم ـ كي يتغلغل في قلوب ازد عمان الذين وصلوا الى البصرة في أواخر عهد معاوية وبداية عهد يزيد . فعبد الله بن اباض هذا ليس الا أحد أتباع أبي بلال التميمي، وربما من المقربين للاحنف بن قيس ، وجد ضالته في المهاجرين الجدد من ازد عمان . وقد كان عدد لا بأس به منهم مهيأ للدخول في مذهب ابن اباض او بمعنى أصح أبي بلال . فالظروف السياسية التي سادت البصرة والعراق آنذاك كانت تنذر بنشوب حرب أهلية طاحنة تنعدم فيها الرؤية السليمة ، فليست هناك مصالح لأزد عمان عند جميع الاطراف المتنازعة على الساحة العراقية ، وكل يدعي انه صاحب الحق الشرعي . كما أن هذه الحروب كانت في كثير من الاحيان تحركها عواطف وثارات تعود في جذورها الى ما قبل الاسلام ، وازد عمان الذين هاجروا للبصرة كانوا بطبيعتهم مسالمين ، لم يعرفوا مثل هذه الحروب الاهلية كما رأوها في البصرة . هذه العوامل عجلت بفريق منهم للانضمام الى القعدة من الخوارج ، الذين اتصفوا بصفات هي في الواقع قريبة لصفات الصحابة والمسلمين الاوائل ، سواء كان ذلك في عباداتهم او حياتهم اليومية . لكن ما علاقة الاحنف بن قيس بكل ذلك .. ؟ هذه العلاقة تبدو اكثر وضوحا في الدور الذي قام به من أجل اخماد نار الفتنة ، والتقرب من الازد ، عن طريق الموافقة على شروطهم في شأن قضية مسعود بن عمرو . وليس ثمة شك بأن بعض المفاوضات قد جرت بين الطرفين ، وأن الاحنف كان قد ارسل رسلا من اجل التفاوض ، ربما كان احدهم عبد الله بن اباض الذي كان يتمتع بصفات المتكلم الجيد، فلقد كان صاحب حجة وبيان ؛ ولكونه المتكلم باسم القعدة من الخوارج . من هنا بدأ الاتصال الاول بأزد عمان ، ليتولوا هم فيما بعد مهمة هذه الدعوة ، وكان للظروف التي ذكرناها دور كبير في ذلك .

وهذا يقودنا الى الجزء الثالث من الحلقة المفقودة ، وهي المنحى الذي اتخذته دعوة أبي بلال بعد هذا الاتصال . فقد هيأت الظروف السائدة في العالم الاسلامي

آنذاك المناخ الملائم لنقل الدعوة من مقرها الرئيسي في البصرة الى عمان ، حيث كثف دعاة الحركة من نشاطهم مستغلين ظروف الحرب الاهلية التي كانت تمر بها الدولة الاسلامية في تلك الفترة ، وجمعوا اكبر قدر ممكن من الانصار والاتباع . وكان من الطبيعي أن يكون معظم هؤلاء من أزد عمان بعد ما تولى مجموعة من هذه القبيلة أمر هذه الدعوة .

والحقيقة اننا لا نعرف الكثير عن دعاة أزد عمان الاوائل الذين تولوا مسؤولية الدفاع عن دعوة أبي بلال ونشرها في الامصار الاسلامية . فهناك اشارة ذكرها المبرد ، مفادها أن عمران بن حطان ــ وهو من بني شيبان من بكر بن وائل ــ وقد كان رأس القعد من الصفرية عندما ارتحل الى عمان أيام عبد الملك بن مروان ، وجد أهلها يعظمون أمر أبي بلال ، ويظهرونه(٥٢) .

وهذا يؤكد حقيقة واحدة وهي ان مذهب أبي بلال وصل الى عمان عن طريق اولئك النفر الذين هم في الاصل من أزد عمان، نقلوا المذهب الى موطنهم الاصلي عمان، إما كدعاة ، أو كتجار . ومما يؤسف له في هذا المجال أن كتب التاريخ سكتت سكوتا تاما عن أمر هؤلاء الذين نقلوا المذهب من البصرة الى عمان قبيل تولي الحجاج بن يوسف السلطة في العراق .

ويبقى الجزء الرابع ــ ربما أهم الاجزاء ــ مفقودا ؛ وهو حقيقة العلاقة بين عبد الله بن اباض وجابر بن زيد ، ومتى وأين وكيف تم الاتصال ؟

أما لماذا نسب المذهب الى عبد الله بن اباض ، فربما حدث ذلك أيام الحجاج ابن يوسف الثقفي . فقد كان أهل البصرة يطلقون على الخوارج القعدة ــ الذين تبرأوا من نافع بن الازرق وأفعاله ولم يرضوا بلقب الخوارج لانهم لم يخرجوا على السلطان ــ أطلق عليهم أتباع عبد الله بن اباض ، لكون الاخير ما يزال الابرز والاكثر نشاطا ، وربما كان رئيس القعدة . هذا وقد عرف أزد عمان المذهب عن طريق عبد الله بن اباض وطريق اتباعه ، وبمرور الزمن أطلق على هذا المذهب المذهب الاباضي .

اما الرسالة التي تزعم المصادر الاباضية أن عبد الله بن اباض ارسلها لعبد الملك ابن مروان ، فهذه لا تدخل ضمن اطار هذا البحث ، اضافة الى أن مايكل كوك قد ناقشها باسهاب ، واستعرض جميع ما جاء فيها ، وما تحمله من آراء سياسية وفقهية ، كما ناقش اللغة التي كتبت بها هذه الرسالة(٥٤) .

الحواشـي :

(١) يقول ابن الكلبي : « ومـن بني صريم بـن مقاعس ، عبد الله بن اباض الخارجي ، وعبد الله بن صفار الخارجي ، الذي تنسب اليه الصفرية، والبرك بن عبد الله الخارجي الذي ضرب معاوية ... » .
هشام بن محمد السائب الكلبي (ت ٢٠٤)، جمهرة النسب، بيروت : عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية (١٩٨٦) ، ص٢٣٦ ، وانظر كذلك ، ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد ابن سـعيد ت ٤٥٦ هـ) ، **جمهرة انساب العرب** ، القاهرة : دار المعارف (١٩٧٧) ص ٢١٨ .

(٢) ليس من السهل على المرء ، أن يتعقب نسب شخص عاش قبل أربعة عشر قرنـا ، فكيف اذا كـان الغموض يكتنف سـيرته ونشأتـه ومماته . فليس عجبا أن نجد أكثر من اسم وأكثر من نسب لشخصية لم يعرف عنها الا القليل عند المؤرخين الاوائل ، وتنسب اليها احدى أقدم الفرق الاسلامية ، الا وهـي الاباضية . ان عبد الله بن اباض ، لم تتفق المصادر الاسلامية الاولى على اسمه أو نسبه، أو حتى على الفترة التي ظهر فيها . وهذه بعض الامثلة لهذا الاختلاف :
ابن قتيبة : «الاباضية من الخوارج، ينسبون الى عبد الله بن اباض ، وهو من بني مرة بن عبيد من تميم ... » . (أبو محمد عبد الله ابن مسـلم ، ت ٢٧٦ هـ) ، **المعارف** ، القاهرة : دار المعارف (١٩٨١) ، ص٦٢٢.
السمعاني : « الاباضي هـذه النسبة الـى جماعة من الخوارج ، يقال لهم الاباضية ، وهم من أصحاب الحارث الاباضي ... » .
(أبو سعد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي السمعاني ،ت ٥٦٢ هـ)، **الانساب**، بيروت : دار الجنان (١٩٨٨) ، ج١ ص٧٠.

(٣) اباض : اسم قرية بالعرض، عرض اليمامة. وعندها كانت وقعه خالـد بن الوليد مـع مسيلمة الكذاب . ياقوت (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ، ت ٦٢٦هـ) ، **معجم البلدان** ، بيروت : دار صادر (١٩٧٧) ، ج١ ص ٦٠؛ البكري (ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الاندلسـي ، ت٤٨٧هـ) ، **معجم ما استعجم مـن اسماء البلاد والمواضـع** ، بيروت : عالم الكتب (١٩٨٣) ، ج١ ص٩٤؛ البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ، ت٧٣٩ هـ) ، **مراصـد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع**، القاهرة: دار احياء الكتب العربية (١٩٥٤) ،ج١ ص ٨ ؛ ابن منظور (جمال الدين محمـد بن مكرم) ، **لسان العرب**. بيروت : دار صادر، اباض .

(٤) البلاذري (أحمـد بن يحيـى بن جابر) ، **انساب الاشراف** ، القدس : الجامعة العبرية (١٩٣٨) ، ج٤ ق٢ ص١٠١ ـ ١٠٢ .

(٥) البغدادي (عبد القاهر بن طاهر البغدادي، ت ٤٢٩ هـ) ، **الفرق بين الفرق** ، بيروت : دار الافاق الجديدة (١٩٧٨) ، ص٨٢-٨٤.

(٦) الملطي (أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي ، ت ٣٧٧ هـ) . **التنبيه والرد على أهـل الاهواء والبـدع** ، بيروت : مكتبـة المعارف (١٩٦٨) ، ص ص ٥٢ ، ١٧٨ .

(٧) الشهرسـتاني (ابن أبي الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم الشـافعي ، ت٥٤٨ هـ)، **الملل والنحـل** ، القاهرة : مكتبـة الانجلو (١٩٧٧) ص ص ١٣٧ ـ ١٤٠ .

(٨) الرازي (فخر الدين محمد بن عمر الخطيب ت ٦٠٦ هـ) ، **اعتقادات فـرق المسلمين والمشركين**، القاهرة : مكتبة الكليات الازهرية (١٩٧٨) ، ص ٦٤ .

(٩) ابن حجر (شهاب الدين أبي الفضل أحمد ابن علي بن حجر العسقلاني ، ت ٨٥٢هـ)،

لسان الميزان ، حيدر اباد : دائرة المعارف العثمانية (١٩٧١) ج٣ ص ٢٤٨ .

(١٠) الحميري (أبو سعيد نشوان الحميري ، ت ٥٧٣ هـ) ، **الحور العين** ، صنعاء : المكتبة اليمنية (١٩٨٥) ، ص ص٢٢٧-٢٢٩.

(١١) المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، (ت ٢٨٥ هـ) الكامل في اللغة والادب، بيروت مؤسسة المعارف (بدون تاريخ) ج٢، ص٤١.

(١٢) ابن حزم (علي بن احمد ت ٤٥٦هـ) **الفصل في الملل والاهواء والنحل** بيروت : دار المعرفة ١٩٨٦ ، ج٢ ، ص ١١٢ .

(١٣) المصدر السابق . ج٤ ص ١٩١ .

(١٤) ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم ، ت٢٧٦هـ) **المعارف** . القاهرة : دار المعارف ١٩٨١ ، ص ٦٢٢ .

(١٥) **السير والجوابات لعلماء وائمة عمان.** مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة ، ج٢ ص٨٤.

(١٦) **السير والجوابات لعلماء** ، ج٢ ص ٣٠٧ - ٣٠٨ و ٣١٤ .

(١٧) المصدر السابق . ج٢ ص٣١٠ .

(١٨) المصدر السابق . ج٢ ص ٣١٤ .

(١٩) سالم بن حمد بن سليمان الحارثي ، **العقود الفضية في أصول الاباضية** ، مسقط : وزارة التراث القومي والثقافة (١٩٨٣) ، ص١٢١.

(٢٠) عوض خليفات ، **نشأة الحركة الاباضية** ، عمّان : مطابع دار الشعب (١٩٨٢) ص ص ٧٩ - ٨١ .

(٢١) الشماخي (سعيد بن عبد الواحد ق٩ هـ)، **كتاب السير** .مسقط : وزارة التراث القومي والثقافة ١٩٨٧ ، ج١ ص ٧٢ - ٧٣ .

(٢٢) لم اقف على هذا النص في الكتاب الذي بين يدي ، وانما ورد ذكره عند سالم بن حمود ابن شامس السيابي في كتابه **ازالة الوعثاء عن اتباع ابي الشعثاء**، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة (١٩٧٩) ، ص٥٠ .

(٢٣) الدرجيني (أحمد بن سعيد ت ٦٧٠ هـ)، **طبقات المشايخ بالمغرب** . حققه وقام بطبعه ابراهيم طلاي ، ج٢ ص ٢١٤ .

(٢٤) الحارثي ، **العقود الفضية** ، ص ١٢٢.

(٢٥) النزوي (أحمد بن عبد الله بن موسى ، القرن السادس الهجري)، **كتاب الاهتداء.** مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة ١٩٨٥ ، ص ٢٣٧ .

(٢٦) ان علي يحيى معمر ، وهو من كبار كتاب الاباضية في العصر الحديث ، لم يترجم لعبد الله بن اباض في كتابه **الاباضية في موكب التاريخ** رغم أنه ترجم لبعض متأخري الاباضية الذين لا يبلغون درجة عبد الله بن اباض في الشهرة . وانظر كذلك كتابه **الاباضية دراسة مركزة في أصولهم التاريخية** . القاهرة : مكتبة وهبة ١٩٨٧ .
اعوشت (بكير بن سعيد) **دراسات اسلامية في الاصول الاباضية** . مسقط : المطابع العالمية (بدون تاريخ) ، ص ٢٠ و ٢٢ ؛ السيابي (سالم بن حمود) **طلقات المعهد الرياضي في حلقات المذهب الاباضي** . مسقط : وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٩٨٠ ، ص ٧٧ ؛ الباروني (سليمان) **مختصر تاريخ الاباضية** . مسقط : مكتبة الضامري (بدون تاريخ) ص ٢٢ .

(٢٧) دبوز (محمد علي) ، **تاريخ المغرب الكبير** . القاهرة : عيسى البابي الحلبي ١٩٦٣ ، ج٢ ص ٣٩٨ - ٣٩٩ .

(٢٨) الطبري (محمد بن جرير . ت ٣١ هـ) **تاريخ الطبري** . القاهرة : دار المعارف ١٩٧٩ ، ج٥ ص ١٨٩ و ص ٢٥٥ .

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٣٠) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

(٣٢) المصدر السابق، ص ٢٣٧ ؛ المبرد ، **الكامل**، ج٢ ص ١٨٠ .

(٣٣) ابن الاثير (ابو الحسن علي بن ابي الكرم)، **الكامل في التاريخ**. بيروت : دار صادر ١٩٧٩ ج٣ ص ٤٥٠ .

(٣٤) المصدر السابق ، ج٣ ص ٥١٨ ؛ المبرد ، **الكامل** ،ج٢ ص١٨٣ ؛ ابن قتيبة (ابو محمد

عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ) ، **المعارف** . القاهرة : دار المعارف ١٩٨١ ، ص ٤١٠ .

(٣٥) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ، ص ١٨٠ .

(٣٦) المصدر السابق ، ص ١٩١ .

(٣٧) المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٣٨) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص ١٨٧ ؛ ابن الاثير ، **الكامل** ، ج٤ ص ٩٤ .

(٣٩) الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داوود ت٢٨٢هـ) ، **الاخبار الطوال** . القاهرة : وزارة الثقافة ١٩٦٠ ، ص ٢٧٠ ؛ ابن الاثير، **الكامل** ، ج٢ ص ٤٥٠ .

(٤٠) الطبري ، **تاريخ** ، ج٥ ص ٣١٢ ؛ المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص ١٣٤ و ١٩٠ ؛ ابن الاثير ، **الكامل** ، ج٢ ص ٥١٧ و ج٤ ص ٩٥ .

(٤١) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص ١٨٣ – ١٨٤ ؛ الطبري ، **تاريخ** ، ج٥ ص ٣١٣ ؛ ابن الاثير، **الكامل** ، ص ٥١٩ .

(٤٢) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص ١٨٣ – ١٨٥ .

(٤٣) المبرد ، **الكامل** ج٢ ، ص ١٨٥ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ١٨٧ ؛ ابن الاثير ، **الكامل** ، ج٤ ص ٩٤ .

(٤٥) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص ١٨٨ – ١٨٩ .

(٤٦) مصطفى (نيفين عبد الخالق) ، **المعارضة في الفكر السياسي الاسلامي** . القاهرة : مكتبة الملك فيصل الاسلامية ١٩٨٥ ، ص ٢٨٠ .

(٤٧) الطبري ، **تاريخ** ، ج٥ ص‌ص ٥٦٦ – ٥٦٨ ؛ ابن الاثير ، **الكامل** ،ج٤ ص‌ص١٦٥ – ١٦٨.

(٤٨) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص٢٠٢ . والذي يدعم هذا الرأي ويقويه، هو ما رواه هشام الكلبي عن عوانة انه اثناء حصار مكة سنة ٦٤ هـ « قدم على ابن الزبير نجدة بن عامر الحنفي في اناس من الخوارج يمنعون البيت ...». الطبري ، **تاريخ الطبري** ، ج٥ ص ٤٩٧ .

(٤٩) الرواية الوحيدة التي وصلتنا في هذا الصدد هي ما ذكره المقدسي، حيث قال :« واجتمع اهل البصرة على عبيد الله بن زياد وكان واليها في أيام معاوية ويزيد ، ونصبوه أميرا، وسألوه أن يطلق عن الخوارج ، الذين في السجون ، فأطلقهم وفيهم نافع بن الازرق ، وعبيد الله بن الماحوز ، وقطري بن الفجاءة المازني ، فعاثوا في الارض وافسدوا ، وخافهم عبيد الله على نفسه ، فهرب الى الشام » . ورغم أننا لا نعرف المصدر الذي نقل منه المقدسي هذه الرواية ، الا ان ما ذكره يتفق ومجريات الاحداث . المقدسي (مطهر بن طاهر ، ت٥٠٧ هـ) ، **البدء والتاريخ** ، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية (د.ت.) م٢ ج٦ ص ١٨ .

(٥٠) الطبري ، **تاريخ** ، ج٥ ص ٥١٦ .

(٥١) المصدر السابق ، ص ٥٢٥ .

(٥٢) المصدر السابق ص ٥٦٧ .

(٥٣) المبرد ، **الكامل** ، ج٢ ص ١٢٨ .

(٥٤) ورد ذكر هذه الرسالة في أكثر من مصدر اباضي ، منها الحارثي ، **العقود الفضية** ، ص ١٢٣ – ١٢٨ ؛ الباروني ، **مختصر تاريخ الاباضية** ، ص‌ص ٢٣ – ٢٦ . ولعل أفضل ما كتب حول رسالة ابن اباض لعبد الملك ابن مروان ، وصحة نسبها ، وتاريخ كتابتها هو M. Cook في كتابه **E. M. Dogma** فقد استعرض جميع ما ورد في هذه الرسالة وناقش محتوياتها ، والاراء السياسية والفقهية التي ذكرت فيها ، وناقش كذلك اللغة التي كتبت بها . انظر مقالة :

« The Letters of Ibn Ibad to Abd Al-Malik, » pp. 51-67, in **Early Muslim Dogma,** Cambridge : University Press, 1981 .

سـورية وأصـل الزراعـة

د. سـلطان محيسـن
ج . دمشـق

مقدمة : عاش الانسان على امتداد القسم الاكبر من عصـور ما قبل التاريـخ (العصر الحجري القديم) متنقلا يجمع طعامه بالصيد والتقاط الثروات البرية التي اختلفت كما ونوعا تبعا للظروف . ومع بداية العصر الحجري الحديث ، النيوليت . حصل تحول جذري في اسلوب انتاج الغذاء لدى الانسان ، فلم يعد يعتمد اعتمـادا كاملا على الطبيعة وثرواتها المتقلبة وانما بدأ يتحكم بنفسه بانتاج قوته وضمان عيشه. وهكذا ترك حياة التنقل وأقام في قرى دائمة مارس فيها زراعـة الحبـوب وتدجين الحيوانات بشكل سد حاجة افراده المتزايدين باستمرار . لقد كان هذا التحـول الاقتصادي ، وما رافقه ونتج عنه من تحولات اجتماعية ، من الاهمية لدرجـة دفعت الباحثين لان يطلقوا عليه « الثورة الزراعيـة » أو « ثورة انسـان العصر الحجـري الحديث »(١) . ومنذ مطلع هذا القرن تحظى ظاهرة نشوء الزراعة باهتمام متصاعد وتتضافر الابحاث والعلوم والتقنيات الحديثة بهدف تحديد كيفية حدوث تلك الظاهرة ــ التي تعتبر بداية الحضارة الانسانية بمعناها الشامل والمعقد ــ وزمانها ومكانها . وقد تبين ان منطقة المشرق القديم كانت مهد هذا التحول لما تمتعت بـه من شروط بيئية ــ جغرافية وحضارية ــ تاريخية ، لم تتوافر لاية منطقة اخرى من العالم . وتبين أيضا أن دور بلاد الشام كان مركزيا . وعلى الرغم من أن بلاد المشرق العربي القديم كونت وحدة حضارية باكرة تبلورت في اطار طبيعي وجغرافي واحد ، ومن غير الممكن أن نفصل بين سورية وبين بقية بلدانه عند دراسة ظاهرة موغلة في القدم جرت أحداثها وتكاملت على مسرح هذا المشرق ، فاننا آثرنا الاقتصار على عرض المكتشفات السورية اختصارا للبحث ولان تلك المكتشفات على درجة من التكامل والدلالة والاهمية مما يجعل منها نموذجا مثاليا لفهم الزراعة نشوءا وتطورا .

---

* أعد هـذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ــ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ــ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ ــ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ــ حزيران ١٩٩٣ .

تاريخ البحث :

تعود الدراسات الجدية الاولى حول نشوء المستوطنات الزراعية الباكرة في سورية الى الثلاثينات من هذا القرن ، وكانت أولها التنقيبات والابحاث التي اجراها الامريكي روبرت بريدوود R. Braidwood في منطقة العمق شمال غرب سورية وبخاصة في موقع تل الجديدة والكشف فيه عن قرية زراعية تعود الى الالف السادس ق.م(٢) . وكذلك الكشف عن قرية زراعية أخرى من العصر نفسه في تل حماه من قبل بعثة دانماركية بادارة هارود انغولت H. Ingholt (٣) وقد مر زمن طويل اعتبرت فيه مناطق حماه والعمق ، من خلال ما ظهر من تتابع حضاري طويل ومستمر ، مفاتيح التحولات الزراعية لمجتمعات العصر الحجري الحديث . بعد الحرب العالمية الثانية حصل تحول هام في الابحاث والمكتشفات فتطورت المناهج والاساليب واصبح البحث عن البقايا النباتية والحيوانية القديمة من أهم اهداف المنقبين والعاملين ، كما تحسنت طرق التأريخ المطلق وبخاصة طريقة الفحم المشع ١٤ (C14) واصبحت المكتشفات الاثرية تخضع لتحاليل مخبرية تحدد التحولات الحاصلة في شكل النباتات والحيوانات المدجنة وحجمها لتمييزها عن الانواع البرية فكانت تنقيبات رأس الشمرة التي بينت أن السوية الخامسة من هذا التل ، التي ترقد تحت انقاض مملكة أوغاريت الشهيرة ، تعود الى مجتمع زراعي قام هناك منذ نهاية الالف السابع ق.م(٤) . كما تبين أن مستوطنة زراعية معاصرة قد نشأت على الساحل السوري أيضا في تل سوكاس الى الجنوب من جبلة(٥) . وفي الستينات تتابعت وتكاثرت الاعمال وتزايدت أهمية المكتشفات ، وبدأت تنقيبات هنري دوكنتنسون H. de Contenson في حوضة دمشق في مواقع تل أسود وتل الخزامي وتل الغريفة وتل الرماد ، التي كشف فيها عن مستوطنات زراعية تعود الى الالف الثامن حتى الخامس ق.م(٦) . وتوبعت تلك الاعمال على امتداد السبعينات ... بينما كانت تجرى في الوقت نفسه تنقيبات في حوض الفرات قبل انشاء السد وتشكل بحيرة الاسد ، بحملة جاءت باكتشافات فاقت كل التوقعات ، من مواقع تل المريبط وتل الشيخ حسن وتل أبو هريرة التي أكدت انتقالا محليا وتدريجيا من مجتمعات الصيد والالتقاط الى مجتمعات الزراعة والتدجين ، تم في حوض الفرات الاوسط منذ مطلع الالف الثامن ق.م(٧) .

ومنذ الثمانينات حصلت تطورات جديدة وبدأت تنقيبات في مواقع الكوم والغدير في البادية السورية أكدت وجود مجتمعات زراعية مستقرة الى جانب مجتمعات رعوية متنقلة في البادية منذ الالف السابع ق.م(٨) ، كما تجرى حاليا تنقيبات عديدة في مناطق الغمر بفعل السدود التي هي قيد الانشاء في أحواض الخابور والبليخ والفرات الاعلى حيث ظهرت عشرات المواقع العائدة الى العصر الحجري الحديث مثل

تل الدامشلية وتل الصبي الابيض في البليخ، وتل الفيضة وتل حنكة وتل كشكشوك في الخابور ، وتل حالولة وتل جعدة المغارة في الفرات ، وكلها مواقع تعطي الجديد في كل يوم مما يبرهن على أن ارض سورية كان لها دور اساسي في نشوء المجتمعات الزراعية الاولى وتطورها (٩) .

المجتمعات الزراعية الاولى :

لم تكن الزراعة اكتشافا فوريا مفاجئا، وانما اتت نتيجة عملية تحول طويلة وبطيئة تعود جذورها الى آلاف السنين . واذا كانت الزراعة قد مورست منذ النصف الاول للألف الثامن ق.م . فان الشروط المناخية والحضارية التي مهدت لها سبقتها ببضعة آلاف من السنين على الاقل . فمنذ العصر الحجري الوسيط ، الميزوليت ، انتشرت على مناطق واسعة من سورية والمشرق ، جماعات بشرية متطورة العدة والعدد ، تخصصت في صيد حيوانات محددة والتقاط نباتات معينة دون غيرها . وهذه الحيوانات والنباتات هي التي تم تدجينها فيما بعد . وأفضل ممثل لهذه المرحلة الممهدة هي المجتمعات الكبارية وبعدها المجتمعات النطوفية التي حققت تحولا اقتصاديا واجتماعيا جعل ممارسة الزراعة أمرا ممكنا بل وربما حتميا . ان القرى الزراعية التي تعنينا في هذا البحث عاشت على امتداد نحو أربعة آلاف عام أي منذ مطلع الالف الثامن ق.م وحتى نهاية الالف الخامس ق.م . ولكن ابتكارات تلك القرى لم تكن واحدة ولا متزامنة وانما تنوعت في الزمان والمكان . وتسهيلا لاستيعاب التحولات الاقتصادية والحضارية على امتداد الزمن المدروس رأينا من المفيد أن نقسم هذه المرحلة الى قسمين رئيسين : الاول يتناول المجتمعات الزراعية الباكرة على امتداد الالفين الثامن والسابع ق.م والقسم الثاني يتناول المجتمعات الزراعية المتطورة في الالفين السادس والخامس ق.م .

المستوطنات الزراعية الباكرة :

ان مرحلة الالفين الثامن والسابع ق.م هي عصر نشوء وتشكل القرى المستقرة التي زرعت الحبوب ودجنت الحيوانات ووفرت بذلك القسم الاكبر من غذائها دون أن تتخلى بعد تماما عن الصيد والالتقاط البريين . ان الاثار الاولى والاقدم لزراعة الحبوب اتت من بضعة مواقع سورية، أهمها تل أسود (السوية آ) في حوضة دمشق حيث عثر على بقايا مباشرة لحبوب متفحمة من القمح والشعير والحمص والعدس تعود الى نحو ٧٨٠٠ سنة ق.م. وهي بذلك أقدم دليل مؤكد معروف حتى الان عن الزراعة في العالم كله(١٠) . وفي الوقت نفسه تقريبا أظهرت التحاليل المخبرية تزايدا واضحا

في كمية غبار طلع حبوب القمح والشعير في موقع المريبط (السوية الثالثة) مما يدل على أن السكان قد نقلوا تلك الحبوب الى جوار قريتهم وزرعوها مدركين ماذا يفعلون(١١) . وقد امتدت القرى الزراعية في هذا العصر على مساحات واسعة ، وصلت حتى ٣٠,٠٠٠ م٢ في المريبط مثلا ، أقام سكانها في بيوت كبيرة دائرية الشكل وبيضوية ، من اللبن والحجر والخشب ، قسمت من الداخل الى أقسام مختلفة المساحات : للطبخ ، والتخزين ، والنوم ، كما في البيت ٤٧ في المريبط . ثم ما لبثت تلك البيوت أن أصبحت مستطيلة الشكل متلاصقة بشكل يمكن من زيادة عدد غرفها كلما دعت الضرورة . كما تطورت أدوات تلك الجماعات وتقنياتها فظهرت بخاصة الادوات الزراعية كالاجران والرحى والمدقات والمناجل ....

ورافق هذا التطور الاقتصادي تحول اجتماعي هام فظهرت معتقدات جديدة دلت عليها تماثيل الالهة الام الاولى وقرون الثور المغروسة في جدران البيوت والقبور المزودة بالاضاحي في المريبط وظهرت لاول مرة تقريبا أحجار غريبة « الاوبسيديان » الذي استورد من مناطق الاناضول البعيدة مما يشير الى علاقات تجارية للمزارعين الاوائل تخطت مناطقهم بكثير . اضافة الى المريبط والشيخ حسن وتل أسود ، وجدت دلائل المجتمعات الزراعية الباكرة في مواقع تل قرامل في منطقة حلب وتل جرف الاحمر في حوض الفرات الاعلى وغيرها . ولكن الموقعين الاخيرين لم ينقبا بعد (١١ آ) . ومهما يكن فان النصف الاول للالف الثامن ق.م هو عصر بواكير الزراعة ودلائلها الاولى . اما في النصف الثاني منه فقد تابعت المجتمعات الزراعية الباكرة تطورها فاتسعت قراها وامتدت على هكتارات عدة (١٢ هـ . أبو هريرة) وتطورت المنازل وأصبحت ذات اشكال مستطيلة مبنية من اللبن والحجر لها مخططات محددة مزودة بالمواقد والتنانير ودكات النوم ، والمخازن ، تفصل بينها شوارع وباحات ، أرضها وجدرانها مطلية بالملاط الابيض وقد حملت بعض جدرانها رسوما هندسية أو أشكالا لطيور ، كما في تل بقرص حيث نفذت على جدران احد البيوت لوحة جميلة تمثل طيور النعام باللون الاحمر على خلفية بيضاء، اضافة الى تماثيل ووجوه بشرية من الطين نزلت عيونها بحجر الاوبسيديان ، وأوان وأدوات زينة غنية ومتنوعة ، كالخرز والخواتم والاساور والاختام . ومن جهة ثانية تطورت المعتقدات والشعائر فظهرت الى جانب معتقدات « الالهة الام » و « الثور المقدس » عقيدة « تقديس الاموات » التي دلت عليها الجماجم المحنطة الموضوعة على قواعد وتماثيل طينية في بيوت السكن ، كما في المريبط وتل الرماد . لقد دفن سكان القرى الزراعية الباكرة موتاهم داخل بيوتهم بعد أن فصلوا في حالات كثيرة الجماجم عن الاجساد(١٢) ، كما طور سكان هذه القرى أدواتهم وأجهزتهم باستمرار كرؤوس النبال والمناجل والبلطات وأدوات الجرش والدق والطحن ، وتابعوا تحسين قدراتهم في مجال زراعة الحبوب والبقول ، وتدجين

الحيوانات وانتشرت قراهم في كل المناطق الجغرافية السورية ، في الفرات والبادية حتى السواحل ، بعد أن تزايدت اعدادهم وتمتنت اواصر بنيتهم الاجتماعية . كما تابعوا علاقاتهم التجارية البعيدة المدى مستوردين الاوبسيديان والاحجار النادرة الاخرى من الاناضول ومناطق زاغروس وغيرها .

المستوطنات الزراعية المتطورة :

بعد مرور نحو الفي عام على ممارسة الزراعة اكتملت انجازات المجتمعات الزراعية بابتكار الاواني الفخارية التي باتت الحاجة لها ضرورية أكثر من اي وقت مضى ، من أجل تخزين الطعام والشراب في القرى الزراعية المتزايدة الانتاج وبعد أن نضجت القدرات التقنية اللازمة لتصنيع الفخار . ومع الفخار أصبحت هذه المادة الاثرية الهامة معيارا اساسيا في التمييز بين الشعوب والحضارات في الزمان والمكان. ان الاواني الفخارية الاولى التي تعود الى منتصف الالف السابع ق.م ظهرت في موقع تل أسود في الجزيرة السورية العليا وهي من الفخار البسيط المصنوع باليد والمصقول او المزخرف بالحز أو الطبع . ونعتقد أنه من هذه المنطقة بالذات انطلقت صناعة الفخار الى بقية المناطق في الاناضول والرافدين وسواحل المتوسط ومهما يكن الامر فقد انتشر مع مطلع الالف السادس ق.م استخدام الاواني الفخارية بشكل شامل ، وتنوعت في الشكل والتقنية والزخارف ، وغطى السواحل السورية فخار قاتم اللون مصقول ولامع (فخار العمق آوب) في حين ساد في الفرات والجزيرة فخار فاتح اللون مصقول أحيانا . مع مناطق تواجدت فيها أنواع مختلفة من هذه الاواني كالبادية السورية .

في هذا العصر اتقنت فنون الزراعة والتدجين وأصبح المردود الزراعي مصدر العيش الوحيد تقريبا ، بعد أن تراجع الاعتماد على الصيد والالتقاط الى درجةكبيرة. وهكذا زرع القمح والشعير والعدس والحمص والفول ونباتات اخرى لم يبق لها أثر واضح في الواقع ، ودُجن الغنم والماعز والبقر على نطاق شامل في كل المستوطنات التي تزايدت مع تزايد السكان . ان مستوطنات هذا العصر هي في الواقع استمرار طبيعي لمستوطنات العصر السابق ، لكنها عموما أكبر ، ومواد بنائها من اللبن والحجر والخشب ، المعدة سلفا لاغراض البناء ، أفضل تجهيزا . وكانت أرضيات البيوت وجدرانها تطلى بالملاط . ولكننا لم نعثر على ما يدل على أن سكانها زخرفوا جدرانها مثلما فعل أسلافهم في العصر السابق . كما وحصل تحول هام في مجال دفن الموتى فلم يعد هؤلاء يدفنون داخل بيوت السكن وانما في مناطق محددة خارج المستوطنات المعمرة . ويمكن القول انه في هذا العصر ظهرت المقابر بمعناها المتعارف عليه .وفي مجال

الشعائر والمعتقدات لا نظن ان هناك تبدلا ملحوظا ، فقد استمرت معتقدات العصر السابق وان كنا نجد فقرا واضحا في الدمى والتماثيل والفنون دون أن نستطيع تفسير ذلك الان .

وبشكل عام بقيت الادوات والاسلحة الحجرية تستخدم علىنطاق واسع كرؤوس النبال التي يلاحظ أن تواجدها تباين من موقع لآخر مما يدل على تباين دور الصيد من مستوطنة لاخرى . وتزايدت الادوات الزراعية من المناجل والبلطات وادوات تحضير الحبوب وقطع الاشجار بعد أن وصلت المستوطنات الى الغابات والمناطق الجبلية التي كانت مغلقة سابقا . في منتصف الالف السادس ق.م حصل تبدل في وتائر تطور المجتمعات الزراعية السورية فدخلت المناطق الشمالية من سورية ـ مناطق الجزيرة والفرات وما هو الى الشمال من حمص تقريبا ـ في عصر جديد هو العصر الحجري النحاسي ، وحصل بذلك تكامل حضاري مع بلاد الرافدين حيث سادت الحضارة الحلفية على كل هذه المناطق بتجانس . وهذا دليل وحدة حضارية هي الاكثر تعبيرا حتى الان ، واما المناطق الجنوبية من سورية بما فيها فلسطين فقد تابعت تطورها السابق ولم تدخل في العصر الحجري النحاسي الا في مطلع الالف الرابع ق.م وبذلك انتهت مرحلة طويلة من ابتكار وتأسيس وارساء دعائم أبدية لمجتمعات الزراعة والتدجين في المشرق العربي القديم .

خاتمة :

يمكن أن نوجز القول بأن نشوء الزراعة قد مرّ بمرحلتين رئيستين ، الاولى زرعت فيها انواع معينة من الحبوب ودجنت حيوانات محددة ولكن بقي الصيد والالتقاط من مصادر الغذاء الهامة . وفي المرحلة الثانية اختفى الصيد والالتقاط وأصبحت الزراعة والتدجين مصدر النشاط الاقتصادي ـ الغذائي الوحيد .

لقد تكاملت هذه العملية على أرض سورية وعلى امتداد العصر الحجري الحديث ولكن مسرح الاحداث الاكبر غطى منطقة المشرق العربي القديم بما فيها الاناضول ومناطق زاغروس حيث حصلت تحولات زراعية هامة على طول وعرض هذه المنطقة ، وما مواقع أريحا في فلسطين والبيضا في الاردن وجارمو في العراق وجبيل في لبنان الا النصف الاخر للمواقع السورية التي أتينا على ذكرها .

واذا كنا قد استطعنا أن نعرض متى واين وكيف نشأت الزراعة فانه يجدر أن نشير الى مشكلة تحظى باهتمام متصاعد من الباحثين ، وهي لماذا اكتشفت الزراعة ؟

وهو سؤال من الصعب أن يحظى باجابة قاطعة . لذلك نرى المواقف تتباين بل وتتناقض احيانا في السبب الذي دفع مجتمعات العصر الحجري القديم الى تبديل نمط حياتهما الاقتصادي متجهة نحو زرع الحبوب وتدجين الحيوانات وبعض الباحثين يعطي الاهمية للبيئة وتحولاتها التي جعلت الزراعة امرا ممكنا ، في حين يرجح البعض دور القدرات التقنية ، وآخرون يعطون العامل الاجتماعي الدور الاهم بينما يقول غيرهم بأن تزايد السكان دفع الى الزراعة من اجل اطعام الناس المتكاثرين ، كما أن هنالك من يقول بأن الفكر الانساني هو الذي أبدع هذه العملية الاقتصادية المنظمة لأسباب نفسية ـ حضارية دون أن تكون الحاجة الاقتصادية هي السبب . كل ذلك مع فرضيات اخرى لا نستطيع الخوض فيها الان(١٢) . ومهما يكن فاننا نعتقد بأن عملية الزراعة فعل مركب ساهمت في حصوله عوامل عديدة : بيئية وجغرافية واجتماعية وتقنية وفكرية وسكانية وغيرها ، دون أن نستطيع الان تقرير ارجحية مطلقة لعامل واحد أو تحديد الدور الحقيقي لكل من هذه العوامل .

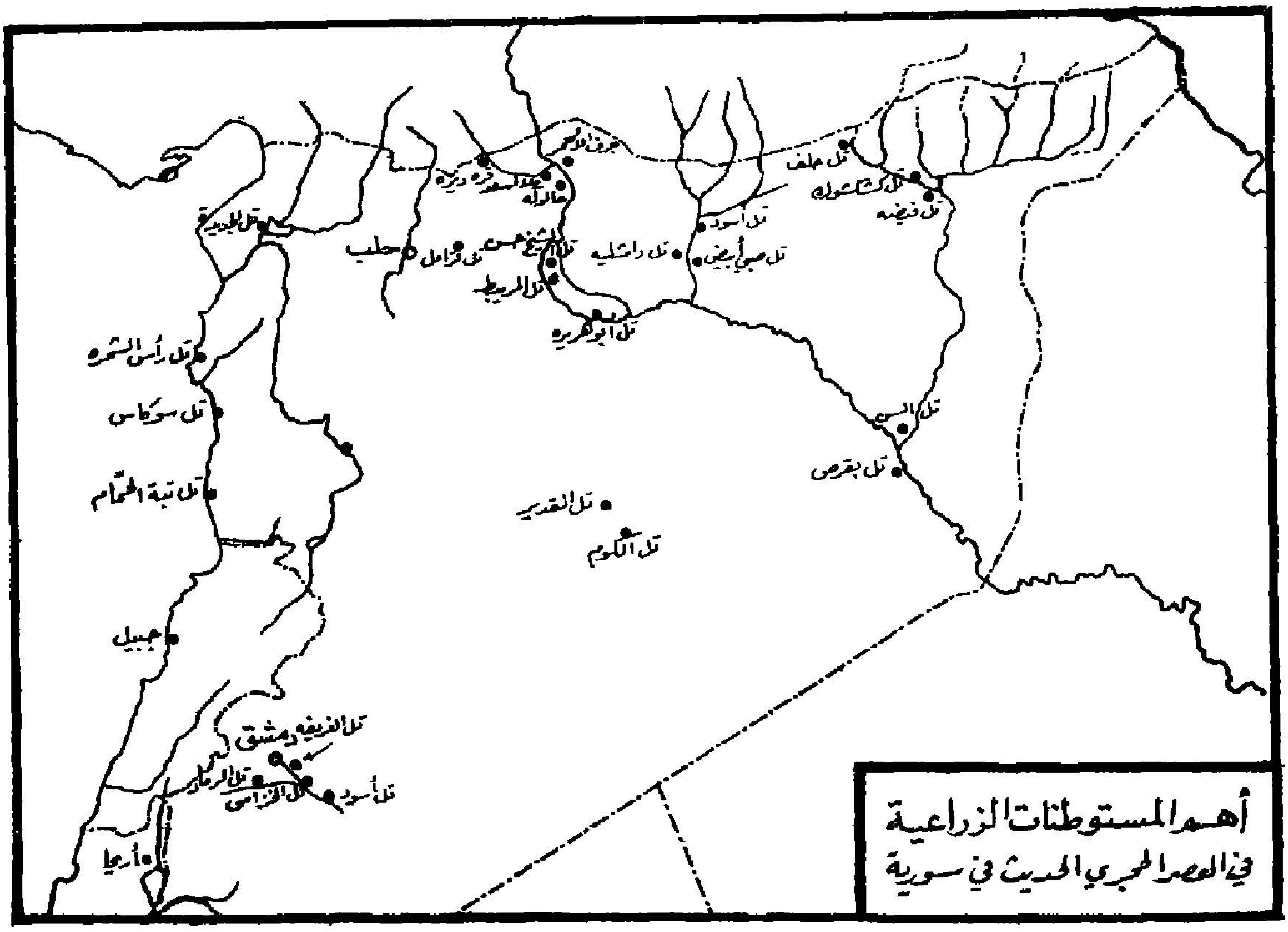

أهم المستوطنات الزراعية في العصر الحجري الحديث في سورية

الحواشــــي :

(١) Childe, V. G., 1951, **Social evolution**, London .

(٢) Braiwood, R.L.and Braidwood, L. S., 1960, **Excavation in ihe Plajns of Antioch I**, Oriental Institut Publicatin n. 61,Chicago

(٣) Ingholt, H; 1940, **Rapport Préliminaire sur sept campagnes de fouilles à Hama en Syrie (1932 — 1937).**

(٤) Schaeffer C.F.A. 1962 . « Les fondements préhistoriques d' Ugarit,» in **Uqritica** IV (15) 151 - 240 ; Archaeologisk - Kumsthistoriske meddelment II

(٥) Riis, P.Y. et Thrane, H, 1974, **Sukas III:** The Neolitic periods publication of carlsberg Expedition to Phoenicia, 3, Copenhagen, Munksgand.

(٦) Contenson, H. 1978, « Recherches sur le néolithique de Syrie (1967 - 1976) » C. R.A.L. 820-825

(٧) Cauvin, J. 1978, **Les premiers Villages de Syrie - Palestine du IXeme au VIIeme millénaire avant J.C.**, publication M.O.,n.4

(٨) Cauvin, J. 1982, « L'Oasis d' el Kowm au néolithique, Bilan d'aprés trois campagnes; métodes , problémes et résultats, **Cahiers de l'Euphrate 3,**

(٩) هذه التقنيات مستمرة ، نشر عنها مقالات وتقارير في مجلات عالمية متنوعة ، أهمهـــا مجلة Paléorient التي يصدرها مركز الابحاث القومي الفرنسي،وفي مجلات هولندية وامريكية ومعظم هذه المواضيع قيد النشر.

(١٠) Moor, A. 1985, « Neolitic Societies in the Near Eest, » in **Advances in Archaeology**, vol . 4, p. 1-69 .

(١١) Leroi - Gourhan , Arl 1974 , « Etudes palinologiques des derniers 11000 ans en Syrie Semi - désertique », **paléorient** 2/443 - 451 .

(١١) آ انظر المسح الهام الذي أجراه جون ماترز في منطقة نهر قويق :

Matthers, « The River Qoueiq, Nothern Syria and its catchement» , **BAR.** I.S., 98, 1981 .

(١٢) Contenson, H. 1971 , « Tell Ramad,a village of Syria of the 7 th and 8 th millenia B. C » . **Archeology** 24, 278 - 283 .

(١٣) Henry, D; 1989, **Form Foraging** the agriculture, the Leveant at the and of the ice age , philadilphia, U.S.A.

Redman, C.C., 1978,**The rise of civilisation** , San Francisco

Mellaart, J.1975, **The neolitic of the Near East**, London .

التجـارة في إبـلا

د. عيد مرعي
جامعة دمشق

تظهر نصوص الارشيف الملكي في ابلا ان التجـارة كانت ركنا هاما مـن أركان الاقتصاد ، ساعد على ازدهارها زراعة متطورة واستغلال جيد للارض ، وصناعـة متقدمة فاق انتاجها حاجات السوق المحلية . اهم مـن ذلك موقع ممتاز على تقاطع طرق التجارة الدولية بين بلاد الرافدين والبحر المتوسط ، وهضبة الاناضول ووادي النيل في الجنوب ، قريب من غابات الجبال الساحلية وجبال لبنان الشرقية والغربية والامانوس وطوروس ، الغنية باشجار الصنوبر والسرو والارز والبقس والسنديان . المرغوبة جدا في مصر وبلاد الرافدين ، وبخاصة لبناء القصور والمعابد بسبب مقاومتها وطولها ، مما مكن ابلا من جني أرباح كبيرة من وراء ذلك.

وكانت ابلا تتحكم بطريق تجارة المعادن الثمينة ، وبخاصة الفضة ، من الاناضول الى بلاد الرافدين عبر شمال سورية(١) .

كان الاتجاه الجغرافي لتجارة ابلا ، حسب النصوص المكتشفة ، نحـو الشرق والشمال الشرقي بشكل رئيس، حيث وصلت الى‌أبعد بكثير منها في الغرب والجنوب. وكان أهم طريق تجاري لها ذلك الذاهب الى الفرات ، وبخاصة الى ماري ومن ثم الى كيش وسط بلاد الرافدين ، او الى منطقة الخابور وأعالي بلاد الرافدين ومنطقـة شرق دجلة . كذلك كانت هناك طرق اخرى تذهب الى ايمار ، الميناء الهام على الفرات والى كركميش وغيرها .

ويبدو أن أهم شريك تجاري لابلا كان ماري التي لم تكن في وقت من الاوقات تحت سيادتها ، اذا اتبعنا الفهم الجديد لرسالة اتّا داجان(٢) . ويمكن تمييز نوعـين من المنتجات في نصوص ابلا :

---

* اعد هـذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ـ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ـ ٢٢ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ ـ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

منتجات محلية، ومنتجات مستوردة، اما لاستخدامها محليا أو بغرض التجارة، سجلت في سجلاتها ، وتشمل هذه المجموعة خاصة المواد الاولية الاتية من الخارج ، واحيانا من مناطق بعيدة جدا .

اما المنتجات المحلية فتشمل المنتجات الزراعية والمنسوجات والملابس والمفروشات الخشبية ، وبعض الصناعات اليدوية التي صنعت في ابلا من المعادن والاحجار الكريمة وشبه الكريمة المستوردة . وتعد المنسوجات والملابس أكثر المواد ذكرا في نصوص ابلا الاقتصادية ومنها أنواع عديدة كتانية أو صوفية وغيرها(٣) . وكانت هذه الانسجة والملابس تعطى أحيانا الى بعض الموظفين ورجالات القصر ، أو ترسل الى حكام المدن والبلدان الاخرى كهدايا ، أو تحملها القوافل الى المدن الاخرى لتسويقها هناك . ويذكر النص (TM. 75. G. 1741) بعض الانسجة التي أعطيت الى احد التجار الذي ذهب الى كيش ، والى أشخاص ربما كانوا يعيشون في كيش(٤). وهناك نص آخر (TM. 75. G. 2316) يذكر توريد ستمائة لباس نسائي من قبل شخصين(٥) .. وهذه الكمية قد تكون ضريبة دفعها للقصر الشخصان اللذان صنعا هذه الالبسة(٦) .

اما بالنسبة للمنتجات الزراعية فهي الزيت والعنب والحبوب بانواعها . وكان جزء من هذه المنتجات يستخدم لسد حاجات القصر الملكي ، اما الجزء الاخر يمكن ان يكون قد صدر الى الخارج .

وتذكر النصوص « زيت نوع أول » كان يرسل مع اعداد من الانسجة الى البلدان الاخرى كهدية الى الملوك الاخرين وعائلاتهم .

من بين الاشياء التي صنعت من معادن وأحجار كريمة واستخدمت جزئيا للتجارة يمكن أن نذكر الخناجر الامورية (GIR. MARTU) التي كانت تصنع من الذهب والفضة ، والتي يتكرر ذكرها مع الالبسة (تعبير أموري ، يعني أنها صنعت حسب النموذج الاموري) وهناك ايضا مجوهرات وأوانٍ من الاحجار الكريمة والمعادن ، يبدو أنها كانت تصنع للتوزيع الخارجي (٧) .

الواردات :

ويأتي على رأسها المعادن وبخاصة الثمينة منها كالفضة (KU. BAR 6) والذهب (KU. GI) والنحاس والقصدير ، التي تذكر في النصوص بكميات كبيرة . فالنصان (TM. 76. G. 2072+2073) يذكران ١٩٨٤ مينه من الفضة . والنص (TM. 76. G. 973) يذكر ٤٤٤ مينة من الذهب عيار ١/٢(٨) . واذا علمنا ان المينة

السورية تساوي نحو (٤٧٠) غراما(٩) ، فالكمية الاولى تبلغ نحو ١٩٧٣ كغ من الفضة والثانية نحو ٢٠٨٫٦٨ كغ ذهبا . والنص (TM. 76. G. 118) يذكر وجود الف مينة ذهب اضافة الى ١٣٢ مينة وزعت(١٠) والنص (TM. 75. G. 1953) يذكر ما مجموعه ٢١٨٨ مينة فضة و ١٢٤٫٢٦ مينة ذهب مرسلة من ملك ماري ابلول إل ، ومن شيوخها وكبار موظفيها (منها ١١٠٠ مينة فضة و ٩٣ مينة ذهب من الملك وحده) . ويرى البعض أن هذه الكمية هي الجزية المفروضة على ماري بعد ان فتحها أنا داجان(١١) . ويعدها البعض الاخر هدية من ملك ماري الى ابلا(١٢) .

وهناك نصوص أخرى عديدة تسجل كميات كبيرة من الفضة والذهب نذكر منها على سبيل المثال :

ARET VII 2 (3)	ويسجل مجموعا عاما قدره ١٤٩٤ مينة و ٦ شيقيل فضة و٩٧ مينة ذهب .
ARET VII 4 (17)	ويسجل ٢٠٧٫٤٨ مينة فضة و١٣ مينة ذهب ، ارسلت الى ماري .
ARET VII 8	ويسجل ٥٣٫٤٥ مينة فضة و ٢٫٢١ مينة ذهب مرسلة الى ماري مع أشخاص يتكرر ذكر بعضهم في مواضع اخرى . وربما كانوا تجارا زودوا بهذه الكميات للحصول على مواد مختلفة .
ARET VII 69 I 1-3 » » II 1-3	ويسجل ١٢٩ مينة و ٤٥ شيقيل ذهب عيار ٤، : و ١١٦٧٫٥ مينة ذهب .
TM. 75. G. 1841 :	يسجل خروج كميات كبيرة من الذهب والفضة في عدة سنوات مجموعها ٨٣٨٩ مينة من الفضة و ٤٠٥ مينة و ٤٧ شيقيل ذهب عيار ٢½(١٣) . وذكر عيار الذهب في هذين النصين وفي نصوص اخرى يدل على وجود معايير دقيقة لهذا المعدن الثمين .
ARET VIII 528 (1)	يسجل مجموعا قدره ٦١٩ مينة و ٤٠ شيقيل ذهب .
MEE 2 n°. 1 : r.I. 1	يسجل ٧٠٠ مينة فضة .
» » » I	يسجل ١٫٧٨٠ مينة فضة .
» » » 23	يسجل خروج كمية كبيرة من الذهب على دفعات مجموعها ٨٣٨ مينة و ٢٠ شيقيل . وهناك حالة تذكر مبادلة فضة مع عقيق ولازورد .

MEE 2 49 r III 8-IV 2 : ٦ شيقيل دلوني فضة مبادلة مع ٣ شيقيل دلوني عقيق ولازورد .

ويذكر نص اكتشف عام ١٩٨٢ فيما يذكر : ١٥٠٠ مينة ذهب (نحو ٧٠٠ كغ) قيمة حبوب ، و ١٧٠٠ مينة فضة (نحو ٨٠٠كغ) قيمة خشب بقس واخشاب عطرية، وينتهي بالملاحظة « تعود الى إبني زكير »(١٤) .

ويبدو ان هذه العملية كانت صفقة تجارية لصالح الملك إبني زكير . والسؤال هنا : من اين كانت ابلا تحصل على كل هذه الكميات الضخمة من الذهب والفضة .؟.

في الواقع لا توجد اجابة اكيدة على ذلك ، ولكن يعتقد ان جبال طوروس وهضبة الاناضول كان فيها مناجم للفضة بدليل تسمية شاروكين الاكادي لجبال طوروس بجبال الفضة . واذا علمنا ان الفضة تدعى باللغة الاكادية « كسبوم » (الواو علامة الرفع والميم كالتنوين في العربية) يمكننا اعتبار اسم « كسب » الذي يطلق على احدى القرى في شمالي سورية دليلا اخر على غنى هذه المنطقة بالفضة . أما الذهب فكان يصل ابلا من مصر عن طريق أوجاريت ، أو غيرها من المدن الساحلية . فمصر كانت غنية بذلك المعدن واكتشفت مناجم عديدة له في الصحراء الشرقية وفي النوبة والسودان(١٥) .

الاكتشاف الهام الذي حدث في ابلا هو العثور على اكثر من ٢٢ كغ من اللازورد الخام في احدى قاعات القسم الاداري من القصر الملكي . وتعد هذه الكمية أكبر كمية تكتشف حتى الان في موقع أثري (عدا مقبرة أور الملكية). وعثر كذلك على كميات من السبج (الاوبسيديان) والبلور الصخري . من المعروف أن منطقة بدخشان في افغانستان كانت مصدر اللازورد القادم الى بلاد الرافدين وسورية عبر بعض المراكز في جنوب وشرق ايران مثل تبة يحيى Tepe yahya وشهري سوختا Shahri-i Sokhta التي كانت متخصصة في التصنيع الاولي للاحجار شبه الكريمة كالعقيق واللازورد .

كان اللازورد يرسل من هذه المراكز ، مقابل الحصول على منتجات زراعية ، باتجاه جنوب غرب الى شاطىء الخليج العربي ومن ثم الى سومر ، أو ترسل باتجاه الشمال الى تبه هيسار Tepe Hissar ثم الى الغرب باتجاه جبال زاغروس ثم الى وديان ديالي والفرات الاوسط . وكان هذا الطريق أكثر خطورة بسبب صعوبة عبور الجبال وعدم الاستقرار السياسي للقبائل المحلية . وكانت ماري قبل اكتشاف ابلا المحطة الاخيرة على هذا الطريق . اما الان فيمكن تتبع هذا الطريق حتى ابلا ، حيث

كان جزء من اللازورد المستورد يستخدم في الورشات الملكية لصنع العقود والحلي وغيرها ، ويرسل الجزء الاخر باتجاه سواحل المتوسط الشرقية ليحصل عليه التجار المصريون مقابل مصنوعاتهم اليدوية الثمينة ، أو كميات من الذهب . فمصر كانت تتطلع دائما للحصول على اللازورد وغيره من الاحجار الكريمة من سورية (١٦) .

وتزودنا نصوص ابلا بالعديد من الاشارات الى اللازورد : فهناك نص يذكر ١٠ مينة و ٢٠ شيقيل لازورد (gin : Za) من (Iti) تاجر (ras : ga) ماري(١٧) . وهناك نص آخر يذكر ٢ مينة لازورد جلبها شخص الى شخص اخر مع أشياء اخرى(١٨) . ويذكر أيضا ٥ مينة و ٤٠ شيقيل لازورد جاءت من ماري (أو الى ماري)(١٩) ، وثوبان و ١٠ مينة لازورد أرسلها ملك ابلا الى ملك ماري(٢٠) .

ويذكر النص نفسه أيضا الف مينة من حجر شبه كريم غير معروف حتى الان (A-GU 6) (٢١) . ويوجد نص ثالث (TM.75. G. 1599)يذكر مينة واحدة و ١٠ شيقيل لازورد استلمهم Adalum الحداد ، و ١٣ر٥ شيقيل لازورد استلمهم أبو ملك (Abu-Malik) (٢٢) . ويذكر نص رابع أنسجة وخنجر أموري ذهب وخمسة مينة لازورد هدية حاكم (en)مدينة (tugurasu (ki)) (٢٣) .

أما المعادن الاخرى التي تذكرها النصوص بكميات كبيرة فهي النحاس والقصدير ويستخدمان بعد خلطهما بنسب معينة للحصول على البرونز لصناعة الادوات المختلفة.

وثمة تسميتان للنحاس تظهران في نصوص ابلا ، الاولى URUDU وترد قليلا، والثانية a-gar 5 التي ترد غالبا a - gar 5 - gar5 (نوع من الجمع)(٢٤) ونورد فيما يلي بعض النصوص التي تذكر النحاس والقصدير :

(1) ARET II 11 : ٥٩ر٥ مينة نحاس و ٧ر٥ مينة قصدير (AN - NA) جعلها أحد الاداريين تستخدم لصنع مئة خوذة ؟ .

(2) « « « : ٣٥ شيقيل دلوني نحاس و ٤ر٥ شيقيل دلوني قصدير جعلها الاداري تستخدم لصنع (؟) خوذة .

يتضح من هذين المثالين أن نسبة النحاس الى القصدير هي نحو ٨ الى ١ .

(1) ARET II 48 : ٩٥ر٥ مينة نحاس استلمها شخص يدعى EN. TI

(2) « « « : ٧٢ر٤٠ مينة نحاس أضيفت ، كذلك ٧ مينة نحاس بعهدة EN.TI لصنع ١ لاخا (مكيال للسعة) .

ويبدو ان المذكور في المثالين السابقين اعلاه كان مسؤولا عن احدى الورشات الملكية المكلفة بتصنيع الادوات المعدنية .

ARET III 185 I 3	:	يذكر أربعمائة مينة نحاس (نحو ١٨٨ كغ) .
» III 56 1 (II)	:	يذكر ٢١ مينة نحاس .
» VII 24 (1)r. I 4	:	يذكر ٦٠ مينة نحاس .
» VII 136 : I-II	:	٣ مينة و ٤٠ شيقيل نحاس الى ib - dur-I-sar ناظر الحدادين .
» VII 137	:	٦ مينة و ٣٠ شيقيل نحاس الى (Isilum)
» VII 138 I	:	٢ مينة و ٥٠ شيقيل نحاس .
» VII 139 I 3-5	:	١.٥ شيقيل نحاس لصنع حربة للملك
» VII 140 I 1-3	:	٩ مينة و ٢٠ شيقيل نحاس لصنع ادوات مختلفة .
» VII 141 (1)	:	٢٦ مينة و ٤٠ (شيقيل) نحاس، و ٤٠(شيقيل) قصدير دلوني كبير نشرت ، ١٠ مينة نحاس ، MAS . MAS (شيء مصنوع) و ٢٠ شيقيل قصدير دلوني صغير، ٢١ مينة و ٤٠ شيقيل برونز (Zabar) ، ٢٠ بلطة كبيرة استلمهم (Ikna - Damu) .
» VII 141 (4)	:	٦ مينة و ٤٠ شيقيل نحاس ثم ٦ مينة نحاس لصنع أدوات مختلفة .
» VII 142 I. II	:	١٠ مينة قصدير و ٥ مينة نحاس .
» VIII 528 (18)	:	يسجل ما مجموعه ٣٢٫٥ مينة نحاس .

وهناك نص يذكر ١٨٦٦ مينةو٤٠ (شيقيل) نحاس ، ١٣٣ مينة و ٣٠ (شيقيل) نحاس .. اعطيت من بيت الملك لانتاج ١١٢٠٠ ... من نحاس ، (وزن الواحد) ١٠ (شيقيل) (٢٥) .

ويوجد نص آخر يذكر ٤٢ شيقيل دلوني قصدير لسبكهم مع ٢٠ مينة و ٤٠ شيقيل دلوني نحاس لصنع ٢٠ قدوم صغير وزن الواحد ٢٠ شيقيل(٢٦) . ويذكر نص ثالث ٨٩٠ مينة نحاس (٢٧) .

والسؤال هنا من أين كانت تحصل ابلا على النحاس والقصدير ؟ . .

تظهر في قوائم ابلا المعجمية كلمة Ka-pa-lum التي يجب أن تربط مع الجذر kpr (قلب اللام راء) وبالتالي مع اسم قبرص (باللاتينية cuprum)(٢٨) التي كانت غنية جدا في العصور القديمة بالنحاس الذي يصدر منها الى بلاد الرافدين ووادي النيل . حتى أن اسم « قبرص » بالعربية يعني النحاس الجيد(٢٩) .

لذلك لا غرابة أن نجد ذكر تلك الكميات الكبيرة من النحاس في نصوص ابلا ، اذ يبدو انها اقامت علاقات قوية مع جزيرة قبرص . أما القصدير فالرأي السائد الان بين المختصين أنه كان يستخرج من شمال غرب ايران(٣٠) . وعثر في بعض غرف القسم الاداري من قصر ابلا الملكي ، على أصداف من أنواع مختلفة ، كانت الصغيرة تستخدم لصنع العقود ، والكبيرة كمصابيح . وتبين بعد دراستها أن قسما كبيرا منها أصله من الخليج العربي ، والمحيط الهندي ، وأقلها من البحر المتوسط .

بالتأكيد وصلت أصداف الخليج العربي والمحيط الهندي الى ابلا على طريق التجارة القادم من سومر بمحاذاة الفرات . أما أصداف البحر المتوسط فكانت سهلة المنال بسبب قرب ابلا من السواحل الشرقية(٣١) . ونعلم من نصوص ابلا ان ماري كانت ترسل اليها الصوف باستمرار ليتحول فيها الى أنسجة وملبوسات(٣٢) . ويبدو أنه على الرغم من غنى ابلا بالاغنام فان صناعتها النسيجية الواسعة كانت بحاجة الى كميات اضافية من الصوف تستورد من المدن الاخرى . وهناك نصان(٣٣) يذكران استيراد الصوف من مدينة تدعى نجر Nagar (٣٤) ويبدو أنه كانت على علاقات جيدة مع ابلا ، اذ يذكر نص آخر ارسال خمر وزيت من ابلا اليها(٣٥) . ويتحدث نص آخر (TM. 75. G. 2133) عن اعطاء كمية من الذهب من أجل رحلة تجارة لشخصين الى تلك المدينة (٣٦) .

يتضح من كل ما تقدم ان التجارة كانت مزدهرة في ابلا وتصل الى مناطق بعيدة. ولكن كيف كانت العمليات التجارية تتم ومن كان يقوم بها ؟ .

قسم بيتناتو في مقاله عن « تجارة ابلا الدولية » التجارالى مجموعتين :

١ ــ تجار يعملون في خدمة الدولة ولهم تسميات عديدة منها : لو كاس lu - kas (4) ومشكيم maskim .

٢ ــ تجار يعملون لحسابهم الخاص (احرار) ولهم تسميات عديدة منها : (دم ــ كر dam - gar ، وغا : راش ga : ras ، وماخو mahu ، ولو ــ كار lu - kar وبدالوم badalum)(٣٧) . ولكن الفصل صعب بين تجارة الدولة والتجارة الخاصة .

فنصوص رافدية حديثة تذكر أن التجار (الاحرار) مارسوا التجارة كثيرا بتكليف من الدولة(٣٨) . كما أن نصوص ابلا لا تعطي معلومات عن حقوق وواجبات التجار . وبما انهـا نصوص ملكية يظهر التاجر فيها يعمل في خدمـة الدولة(٣٩) . وبالتالي لا يمكن القول بشيء من التأكيد بوجود تجار أحرار في ابلا كانوا يمارسون التجارة لحسابهم الخاص .

كانت تسمية لو ــ كار هي التسمية الشائعة للتاجر في ابلا ، وتظهر في الكثير من النصوص مرتبطة بأسماء مدن وبلدان عديدة . وكان عددهم أحيانا كبيرا في المدينـة الواحدة . ففي النص ARET III 627 I 2 f يظهر ٢١ لو ــ كار مـن مدينة أبشـو Abshu (مدينة غير معروفة) . أما ماري فيظهر فيها أكثر من ثلاثين لو ــ كار(٤٠). وكان بعضهم يقيم في مدن أخرى ويمارس العمليات التجارية ،كما يتضح من النصوص التي تذكر تزويدهم بأعداد كبيرة من الانسجة والملبوسات(٤١) . كذلك يظهر لو ــ كار من مدن أخرى عديدة مثل ككميوم ومنوات Manuwat وغيرها(٤٢) .

كان اللوــكار يقومون عادة برحلات تجارية من مكان الى آخر ويعقدون الصفقات التجارية من بيع وشراء . وربما كانوا يعملون أحيانا كتجار كبار متخصصين ببيع مادة محددة،اذ يرد ذكر لوــكار الفخار منمدينة إبال : lu-kar bahar sa 11 eb-al (ki)

ويبدو أن هذه المدينة كانت تنتج الفخار بكثرة لذلك احتاجت الى تخصص احد التجار ببيع انتاجها(٤٣) . ويبدو أن اللوــكار كانـوا أحيانا من الموظفين الكبار ولهـم سمعتهم ومكانتهم العالية ، اذ يرد ذكرهم في أحد النصوص قبل ابناء ملوك المدن (٤٤) لا بد من الاشارة هنا أن كلمة لو ــ كار سومرية الاصل وتعني « رجل المركز التجاري» أو « رجل السوق » أو « رجل الميناء » .

من التسميات الاخرى للتاجر مشكيم وهي تسمية كانت تطلق علىوظيفة مراقب أو مشرف على مهنة كالعملفي التجارة ، وهي أدنى من اللوكار(٤٥). وهناك أيضا تسمية ماخـو mahu التي تشبه غا : راش ، وكانت تطلق على التاجر الذي يمارس تجـارة بعيدة . فالنصوص تذكر ماخو من نوزي(٤٦) ومن حران(٤٧) ومن توتول وغيرها ... وقد جلب الماخو انسجة ومواد معدنية وفضة واستلموا الفضة كهدايـا أو كراسمال لرحلاتهم(٤٨). ويبدو أنه كان يوجد أكثر من ماخـو واحد يعمل في المدينة الواحدة ، ويمكن أن يكون لديه مشكيم يعمل في خدمته(٤٩) . وبما انه لا يوجد اشتقاق سومري لكلمة ماخو لذلك يمكن أن تكون ابلوية(٥٠) .

اما تسمية دم ـ كر السومرية فهي قليلة الاستعمال وتوجد أيضا تسمية لو ـ كاس التي تعني حرفيا « ساع » . ولكن يبدو أنها كانت تستخدم احيانا للاشارة الى نوع من التجارة(٥١) .

بالاضافة الى التسميات السابقة هناك تسمية معروفة من نصوص ابلا هي بدالوم badalum التي ترجمت من قبل البعض الى « تاجر » بالمقارنة مع كلمة بيدالوم bidalum الاوجاريتية . التي ترجمت « تاجرا » أيضا(٥٢) . ولكن النصوص لا تذكر شيئا عن نشاط البدالوم . ويبدو أن مركزه كان عاليا اذ يذكر الى جانب حكام المدن ويتلقى هدايا مثلهم . وفي الكلمة ثلاثة آراء :

١ ـ بدالوم في حران كانت تسمية للحاكم في حران ، ٢ ـ أنها تعني التاجر . ٣ ـ تقرأ ba-da-gum وتعني القاضي(٥٣) . وكل هذه التفسيرات غير مقنعة . ويمكن القول بشكل عام أنه كان يوجد في كل مدينة بدالوم واحد يحتل مركزا عاليا فيها بعد الحاكم مباشرة ، وربما عمل كمستشار أو « وزير كبير » للحاكم(٥٤) . ويبدو أن بدالوم حران كانت له أهميته الخاصة اذ يذكر مرارا عديدة في نصوص ابلا وترسل له أنسجة وهدايا أخرى ، بينما لا يظهر حاكمها الا نادرا(٥٥) . تجدر الاشارة هنا أن حران كانت في عصر محفوظات ابلا مدينة مستقلة تحكمها سلالة محلية ، الا أنها كانت تميل الى ابلا . وتذكر النصوص ارساليات عديدة من الانسجة والذهب والفضة الى حاكم حران والشيوخ ، واحيانا الى بعض الموظفين ، بالاضافة الى البدالوم . كذلك كانت ملكة حران تتلقى هدايا ثمينة من ابلا وبخاصة في زياراتها لهذه المدينة(٥٦) . ومن المدن الاخرى التي وجد فيها بدالوم مدينة تدعى Sanapzugum (٥٧) وكانت ترسل اليه والى شيوخها أنسجة من ابلا(٥٨) . وكذلك يظهر بدالوم من اريتوم(٥٩) ومن أورسئوم(٦٠) وترسل لهما أنسجة ابلوية .

يتضح مما تقدم أن الابلويين ، على الرغم من أنهم عرفوا التسمية السومرية الشائعة للتاجر (دم ـ جر) ، استخدموا تسميتهم الخاصة بهم وهي لو ـ كار التي كانت تشير غالبا الى التجارة القريبة نسبيا . أما غا ـ راش وماخو فهما تسميتان للتجارة البعيدة تصديرا واستيرادا(٦١) . ويبدو أن عدد التجار الابلويين كان قليلا اذ لا يظهرون الا نادرا في النصوص(٦٢) .

وكدليل على أهمية التجارة عقدت ابلا معاهدة أساسها الرغبة في اقامة حركة منظمة لا يعكرها شيء للتجارة والسعاة مع مدينة أثارت قراءة اسمها جدلا كبيرا بين المختصين . فقال بيتناتو أول من ترجمها انها معاهدة بين ملك ابلا وملك آشور A-sur لتنظيم العلاقات بينهما وبخاصة التجارية(٦٣) ولكن سولبرجر Sollberger قام بنشر

النص (TM. 75. G. 2420) والتعليق عليه ولم يقبل بهذه القراءة (آشور)(٦٤) وقرأ الاسم مؤقتاً كما يلي a-bar-sal (ki) ، قائلاً أن آشور كتبت بالاشارات (as-LAL - RIN) في القائمة الجغرافية المكتشفة في أبو صلابيخ (OIP 99, P. 71 ff) وهي الاشارات المستخدمة عادة لكتابة آشور . وللبرهنة على رأيه قال ان إتّاداجان في رسالته الى ملك ابلا يذكر إبلول إل كملك لماري وأبارسال . وقد ترك إبلول إل هذا كتابات . فاذا كان فعلا ملك آشور أفلم يكن من الطبيعي أن يذكر ذلك . ورأى أن أبارسال كانت مدينة تقع بالقرب من ابلا(٦٥) . كذلك عدّ سولبرجر الكلمة التي رأى فيها بيتناتو اسما لاحد ملوك آشور (Tudia) صيغة فعلية سومرية(٦٦) .

كتب النص على لوح ذي أبعاد كبيرة نسبيا (٣٠ر٢٣ × ٢١ سم) في ٦٢٣ سطرا موزعة على ٣١ عمودا ، ويمكن تقسيمه الى ثلاثة أقسام رئيسة هي : المقدمة وبنود المعاهدة والخاتمة .

تعدد المقدمة (الاسطر ١ ـ ١١١) المدن والبلدان التابعة لملك ابلا ، ومن بينها كركميش (المدن الاخرى غير معروفة حتى الان) ، وتذكر أن رجال هذه المدن والبلدان تابعين لملك ابلا . أما البلدان التابعة لملك أبارسال (أو آشور) فتذكر أسباب غير معروفة ، بعبارة عامة دون ايراد أية تفاصيل . ويمكن ان نستنتج من ذلك أن تلك المملكة كانت صغيرة والبلدان التابعة لها قليلة . ويبدو أن الغرض من ذكر المدن والبلدان هو اثبات الحق القانوني على الاشخاص سواء كانوا ابلويين أو آشوريين في هذه المدن بحيث يكون كل واحد منهم مسؤول عن أعماله في بلده الاصلي(٦٧) . بعد هذه المقدمة تأتي بنود المعاهدة في ١٨ بندا (الاسطر ١١٢ـ٦٠٧) تبدأ أحيانا بعبارة سوما su - ma أو سوما لو su - ma lù (اذا انسان ، رجل) . وهي عبارة مألوفة في القوانين السومرية والاكادية ، وتعالج في معظمها قضايا تجارية تتعلق بانتقال التجار والسعاة ، والواجبات المفروضة عليهم تجاه ملك ابلا وملك أبارسال (أو آشور) . ونظرا لصعوبة النص واختلاف وجهات نظر المفسرين لا يمكن اعطاء صورة واضحة عن محتوى البنود المختلفة .

يرى بيتناتو أن المعاهدة تتحدث عن ايجاد مركز تجاري فيه مصلحة لكل من ملكي ابلا وآشور ، وعن المكوس المفروضة على استخدام هذا المركز وكيفية التعامل مع السعاة ، ومشكلة العبيد والاجراءات القضائية عند الطرفين ، وحتى مع حالات العنف التي قد تحدث في مثل هذا المركز . فمثلا « يدفع الرجل الاشوري مكسا الى ابلا ، ويدفع الرجل الاشوري مكسا الى آشور . ويدفع الرجل الابلوي مكسا الى آشور . ويدفع الرجل الابلوي مكسا الى ابلا » . يتضح من ذلك أن التجار الذين يريدون استخدام المركز التجاري الجديد كانوا ملزمين بدفع ضرائب مزدوجة ، الى

مدينتهم الام والمدينة الثانية . ويتبين من ذلك أن المدينتين كانتا على مستوى واحد من المعاملة . وتذكر المعاهدة (حسب بيتناتو) أن ملك ابلا طلب من ملك آشور أخذ بعض الواجبات الهامة على عاتقه ، مثل ضمان وتسهيل التجارة الابلوية في المناطق البعيدة عن الوطن الام . من هنا ادخال فقرات يتعهد فيها ملك آشور باجازة اقامة التجار الابلويين في آشور وضمان الطعام والمأوى لهم ، والا يحتجزهم أكثر من الوقت المحدد ، والا يستخدمهم لخدمة أغراضه الخاصة . وان نشوء اضطرابات سوف يؤدي الى الغاء المعاهدة وبالتالي الغاء التجارة الاشورية في كل المناطق التابعة لابلا . بالمقابل تتعهد ابلا بتحرير عبيد آشور الذين يشتريهم تجار ابلويون ، وتضمن لملك آشور ممارسة القضاء على رعاياه(٦٨) .

ويرى سولبرجر أن بعض البنود تتحدث عن تجارة مائية بين ابلا وأبارسال . وعن وجود موانيء نهرية وسفن كبيرة ، وعن جزية سنوية رمزية (ثوروكيش) تدفعها ابارسال الى ابلا ، بحيث يبدو الامر وكأنه احتكار للتجارة المائية وتثبيت حقوق قطعية على تلك التجارة مع أبارسال(٦٩) .

أما الخاتمة (الاسطر ٦٠٨ ــ ٦٢٣) فهي عبارة عن لعنات على من يخرق المعاهدة ، وذكر لاسماء الالهة أدد وأوتو والالهة الاخرى كلها كشهود . ولا تذكر المعاهدة أسماء ملوك المدينتين المعنيتين . وهذا يدعو الى القول انها لم تكن بين ملكين بل بين مملكتين(٧٠) . وقد أيد البعض بيتينانو في رأيه بأن المدينة هي آشور واستشهد بأمثلة عن معاهدات بين ملوك ممالك الشرق الادنى القديم(٧١) . ووقف البعض الاخر على الحياد (٧٢) .

أما فون زودن Von Soden عالم الاكاديات المعروف فيرى أنه على الرغم من ان الكتابة لا تسمح بقراءة صحيحة للاسم توجد بعض الملاحظات ، منها ان الاسماء المذكورة من هذه المدينة ليست آشورية ، وان الاشارة الثانية من اسم المدينة تقرأ sal (4) ، وبالتالي يقرأ الاسم A-sal (4) . بذلك تصبح لدينا قراءة جديدة للاسم (A-sa-al/lu) . وهي مدينة تقع شمال منطقة الخابور ، ويذكر إبلولإل في رسالة اناداجان ملكا لها بالاضافة الى ماري . وقد استقلت فيما بعد عن ماري وتوسعت نحو الغرب حتى جاء ملك ابلا وقيدها بالمعاهدة المذكورة. وبعد نحو ستمائة عام من ذلك التاريخ تظهر Asal بشكل متفرق في رسائل من ماري ومن كرانا(٧٣) . على أي حال تبقى المعاهدة شاهدا بارزا على قوة تجارة ابلا وامتدادها نحو الشرق . ويرد في المعاهدة ذكر للتجارة المائية (الاسطر ٣٧٨-٤١٧) ويترجمها سولبرجو كما يلي:

« ابلا سوف تمارس تجارة مائية مع ابارسال ، ابارسال يجب الا تمارس تجارة مائية مع ابلا . ابارسال ، ميناء نهري وسفن كبيرة ... (ابارسال) استلمت ...

لماذا يعود ناظر ميناء (لو ــ كار) ابلا الى أبارسال ؟ لماذا يعود ناظر ميناء أبارسال الى ابلا(٧٤) ؟ » .

نلاحظ أن كلمة لو ــ كار ترجمت هنا harbour-master وترجمها سولبرجر في ARET VIII P. 62 ناظر ميناء أو مراقب harbour-master or market-supervisor سوق . الا أن ترجمتها « تاجر » هي الاصح على ما يبدو . على أية حال تدل الفقرات السابقة من المعاهدة على وجود تجارة مائية مشتركة بين ابلا وأبارسال (أو آشور) . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا مرة أخرى : أين كانت تقع أبارسال ؟ هل كانت تقع على الفرات (أو بجانبه) بالقرب من ماري ، أو على أحد روافده ، وذلك بسبب ذكرها في رسالة اناداجان(٧٥) ؟ أو أن هناك ميناء مشتركا تستخدمه المملكتان لاغراضها التجارية ؟ ونحن نعرف من الالف الثاني قبل الميلاد أن ايمار كانت ميناء مملكة يمحاض على الفرات . لذلك لا نستبعد وجود مثل هذا الميناء من الالف الثالث ، خاصة ولدينا شواهد أخرى من ابلا عن السفن والتجارة. فالنص ARET II 29 يتحدث عن صفقات مختلفة يشترك فيه اناس عدة وتذكر فيه مدن بعضها معروف مثل حران وتوتول وماري ، وترد فيه الفقرة التالية :

١ مينة فضة ، سعر شراء سفينة واحدة VIII 11-12 .

٤ شيقيل دلموني فضة ، صارى ، رجل في .....، سفينة نوع أول ،.... ماري IX 1-6 .

وتدل عملية الشراء هذه على اهتمام ابلا بالتجارة والمواصلات المائية التي يبدو انها تتم عن طريق ماري او أي ميناء آخر باتجاه جنوب بلاد الرافدين(٧٦). خاصة اذا علمنا أن ابلا كانت ترتبط بعلاقات قوية مع بعض المدن هناك مثل كيش .

كذلك يدل ذكر الشيقيل الدلموني كثيرا في نصوص ابلا على قيام علاقات قوية بين ابلا ودلمون(٧٧) . وبالطبع كانت تلك العلاقات تتم بواسطة الطرق المائية .

هناك نص يذكر اعطاء ثوبين الى ملاح (ma-lah) من مدينة تدعى نيرار ni-ra-ar (ki)(٧٨) . يبدو ان هذه المدينة كانت تقع بالقرب من سواحل البحر المتوسط وكانت لها علاقات مع ابلا . فالنص ARET VIII 533 (18) يذكر أنسجة الى ملك نيرار . ويذكر نصان آخران انسجة الى مغني نيرار(٧٩) .

ويوجد نص آخر (ARET V 6) يعد أطول نص أدبي بلغة سامية من الالف الثالث قبل الميلاد ، هو ترنيمة مخصصة لاله الشمس،ويذكر فيها انليل وانكي وسين، ويبدو أن موضوعها كان التجارة والتجارة المائية بشكل خاص . فهي تتكلم عن تجار

(راش : غا RAS : GA) وسفن الحمولة (ما . غور MA. GUR (8)) والذهب والفضة والنحاس واللازورد والاخشاب والانسجة والعطور والخمور ، وترد فيها تسميات جغرافية مثل : بلاد ، جبال ، ما وراء البحر وشاطىء البحر وغابة الارز . وقد تبين ان هناك نسخة من هذهالترنيمة بين نصوص ابو صلابيخ (OIP 99, 91, 326) قال عنها بيغز Biggs انها ربما لم تكتب في أبو صلابيخ ، بل أتت من مكان آخر ، قد يكون كيش أو ابلا(٨٠) . يتضح مما تقدم اهتمام ابلا بالتجارة المائية .

العلاقات التجارية : آ ـ مع مصر : عثر المنقبون عام ١٩٧٧ تحت أرضية القاعة الداخلية من القسم الاداري في القصر الملكي G في ابلا على ثلاث لقى ذات أهمية غير عادية ، هي قطعتان من الديوريت وغطاء مدور من الالباستر ، تحمل أسماء حاكمين مصريين من المملكة القديمة . وتحمل القطعتان كتابة منقوشة «للالقاب الكبيرة» لخفرع أحد فراعنة الاسرة الرابعة وباني الهرم الثاني (نحو ٢٥١٠ ـ ٢٤٨٥ ق.م) .

أما القطعة الثالثة فنقشت عليها أسماء بيبي الاول (نحو ٢٢٦٨ـ٢٢٢٨ق.م) الفرعون الثالث من الاسرة السادسة . وقد وجدت مع هذه اللقى كسرات اخرى من الديوريت والالباستر تعود بالتأكيد الى أواني مصرية المنشأ . ويبدو أن هذه الاواني كانت لها أشكال مختلفة واستخدمت كمصابيح للاضاءة أو لحفظ الزيوت العطرية . وهناك مشابهات كثيرة لهذه الاواني من القبور الملكية المصرية(٨١) . ووجود مثل هذه الاواني التي تعود الى عهدي الاسرة الرابعة (نحو ٢٥٧٠ ـ ٢٤٥٠ ق.م) والسادسة (نحو ٢٢٩٠ ـ ٢١٣٥ ق.م) برهان أكيد على العلاقات بين ابلا والبلاط المصري .

وعثر أيضا في موسمي ٧٨ ـ ١٩٧٩ في قبور تحت القصر الملكي Q الذي يعود الى العصر البرونزي المتوسط ٢ (١٨٠٠ ـ ١٦٥٠ ق.م) على أواني ومصنوعات يدوية مصرية ، بعضها من الالباستر ، بينها مقبض عصا من العظم والمعادن الثمينة يحمل اسم الفرعون Hotepibra من السلالة الثالثة عشرة(٨٢) . وهذا يدل على استمرار العلاقات بين ابلا ومصر بعد أن فقدت ابلا قوتها السياسية وتحولت الى مدينة تابعة لقوة جديدة في المنطقة .

والسؤال هنا : كيف كانت تصل هذه الاواني الى ابلا ؟

بالنسبة للعصر البرونزي الوسيط يمكن القول ، بناء على وجود ادوات مصرية من هذه الفترة في أماكن عديدة من سورية ، أن هذه الادوات كانت هدايا الفرعون المصري الى حكام تلك المناطق ، أو ربما كانت هناك تجارة مباشرة بين مصر والمدن التي وجدت فيها تلك الادوات(٨٣) . أما بالنسبة لعصر المحفوظات الملكية فيرى كلينغل أنه يمكن القول بشيء من التأكيد ان تجارة مصر مع سورية كانت تتم عن طريق البحر ،

وبشكل اساسي عن طريق جبيل ، علما بأنه يرى أن ذكر جبيل في نصوص ابلا لايزال موضع شك(٨٤) . ويعتقد دياكونوف أن ابلا تاجرت مع مصر بشكل غير مباشر ، وربما عن طريق احدى مدن سورية الداخلية مثل تونيب أو قطنة أو حماة التي كانت تراقب المرور الى فينيقية عبر جبال لبنان(٨٥) .

ولكن بما أن أوجاريت ذكرت مرارا في نصوص ابلا فيمكن القول ان الاتصالات بين ابلا ووادي النيل كانت تتم عن طريقها ، فيأتيها التجار المصريون حاملي بضائعهم المختلفة ويعودون ومعهم اللازورد والعقيق والاخشاب وغير ذلك مما تحتاجه بلادهم من الموجود في ابلا .

ب ـ مع ماري : يوجد الكثير من النصوص الابلوية تذكر اعطاء انسجة الى العديد من تجار ماري والى أشخاص آخرين من تلك المدينة نوردها فيما يلي:

(66)	1	I	ARET	: انسجة الى تجار kas(4) kas (4) Ilú-kas ذهبوا الى ماري :
(23)	2	«	«	: ٣٠ شيقيل فضة هدية Ennanil (من) ماري .
(79)	5	«	«	: العديد من الانسجة الى مغنين صغار من ماري.
(85)	5	«	«	: أنسجة الى لوكار ماري .
(89)	5	«	«	: انسجة الى Andu لوكار ماري.
(90)	5	«	«	: انسجة الى ku-ku لوكار ماري .
(31)	7	«	«	: انسجة الى مغنين من ماري في ابلا .
(46)	7	«	«	: انسجة الى A-zi لوكار ماري .
(52)	7	«	«	: انسجة الى A-mu-du لوكار ماري .
(57)	7	«	«	: انسجة الى A-mu-du لوكار ماري .
(64)	7	«	«	: انسجة الى اولاد خيدار Hi-da-ar ماري وشيوخها(٨٦) .
(95)	8	«	«	: انسجة الى A-nam لوكار ماري .
(17)	11	«	«	: انسجة الى (ملك) ماري .
VI	137	III	«	: انسجة الى ماري .

لوكار ماري I-ku-ni .	ARET	III	236	V.V
ثلاث انسجة الى حداد ماري (simug Ma-ri (ki)).	»	III	329	III
اداني A-da-ni لوكار ماري.	»	III	940	III
يذكر أنواعا مختلفة من الانسجة بأعداد كبيرة : ٦٠ ، ٨٠ ، ٢٠٧ ، ١٠٠ ، ٢٤٧ ، الى لوكار ماري المقيم في دونيتوم .	»	IV	1	(30)
انسجة الى A-ba 4 -KUR. (kI) لوكار ماري .	ARET	IV	1	(43)
انسجة الى أشخاص من ماري في مدينة A-ru 12-ga-du(ki).	»	»	»	(60.63)
انسجة الى شخص من ماري في مدينة DU-U9 (ki) .	»	»	»	(61)
١٧ ثوبا نسائيا الى لوكار ماري بيد شخص (من أوفي) sa-za(ki) . علما أن تعبير su-ra المذكور في هذا النص يشير الى عملية تجارية .	»	»	2	(12)
لوكار ماري ù-da-ah .	ARET	IV	2	(14)
انسجة الى اخارشي A-ha-ar-sé لوكار ماري .	»	»	»	(22)
انسجة الى أمودو A-mu-du لوكار ماري .	»	»	»	(26)
انسجة الى أمار Amar لوكار ماري.	»	»	»	(27)
انسجة الى I-ga-la-um لوكار ماري .	»	»	»	(35)
انسجة الى زوزوم zu-zu-um لوكار ماري .	»	»	»	(40)
انسجة الى أمودو A-mu-du لوكار ماري .	»	»	»	(41)
انسجة الى إنّاني Enn-NI لوكار ماري .	»	»	»	(44)
انسجة الى سامو Sámu لوكار ماري .	»	»	»	(47)
انسجة الى بوشو Bùsu لوكار ماري .	»	»	»	(49)
انسجة الى Ilum-NI-zi-lu لوكار ماري .	»	»	»	(54)
انسجة الى Iku ilum لوكار ماري .	»	»	17	(51)

(9) 21 » » : مائة نسيج الى خيدار ماري .

(15) 9 VII » : ١٧ مينة فضة مرسلة مع شخصين في رحلة من ماري .

(25) 9 » » : ١٠ مينة فضة مرسلة من ماري مع شخصين لثماني رحلات .

(26) 9 VII » : ١٨ مينة فضة مرسلة من ماري مع ثلاثة أشخاص لتسع رحلات .

(32) 9 » » : يسجل مجموع ٣٠٤ر٥ مينة فضة و ١٩ مينة ذهبا من لوغال ماري .

(1) 13 » » : ١٧ر٥ مينة فضة سعر سبعة أثواب و ١٦ر٥مينة لازورد و ٥٤ شيقل دلوني عقيق و ١٠ شيقيل دلوني احجار من Iti من ماري.

(5) 13 » » : ١٦ر٥ مينة فضة سعر انسجة و ٣ مينة و ٨ شيقيل دلوني لازورد من Iti من ماري .

راينا سابقا أن إتي هذا يظهر في أحد النصوص (الهامش ١٧) كتاجر من ماري. ويبدو انه كان يشتري أنسجة من ابلا ويزودها باللازورد والاحجار الكريمة الاخرى.

ARET VII 14. r.I 1-3 : تلقى لوكار ماري ثمانمائة جوبار شعير .

» » 15 (1) r.I 4-6 : Arrusum لوكار ماري

» » » (2) r.III 1-2 : لوكار ماري

» » » (3) III 7-9 : Dubuhu-Malik لوكار ماري

» » » (4) IV 9-10 : لوكار ماري

» » 77 (12) : مينة واحدة وعشرون شيقيل دلوني فضة سعر شراء ٤٠٠ مينة nig-nE (مادة) من ماري.

» » 77 (16) : ٢٠ شيقيل دلوني فضة سعر شراء ٩ انسجة مارية (أو من ماري) .

» VIII 521 (13) : انسجة الى عدة اشخاص بينهم لوكار ماري:

» » 522 (19) : ثلاثة انسجة مختلفة الى Pudagan لوكار ماري.

» » 522 (21) : ٤٧٠ لباس صوفي لاربعمائة وسبعين شخصا (na-se (11) (مقيمين مع) لوكار ماري المقيم في دونيتوم .

(26)	523	»	»	: أنسجة الى مدينة Ununi (ki) أودعت بيد إشماني Is-ma-ni لوكار ماري .
(31)	»	»	»	: أنسجة الى لوغال ماري.
(35)	»	»	»	: ٤٦ ثوبا الى اثنين من المغنين الكبار nar-mah من ماري .
(37)	»	»	»	: ٤٢ ثوبا الى ٢١ مغنيا من ماري .
(14)	524	»	»	: ثلاثة أنواع من الانسجة من كل نوع ثلاثون الى لوكار ماري المقيم في دو نيتوم .
(21)	524	»	»	: أنسجة الى ثلاثة أشخاص من ماري.
(16)	525	VIII	ARET	: ثلاثة ألبسة مختلفة الى شار Sara لوكار ماري
(41)	525	»	»	: أنسجة الى Ursag لوكار ماري .
(35)	527	»	»	: أنسجة الى اشبو espu لوكار ماري .
(34)	529	»	»	: أنسجة الى عدة اشخاص بينهم لوكار ماري.
(36)	531	»	»	: أنسجة الى اشخاص بينهم لوكار ماري.
(49)	»	»	»	: أنسجة الى مغنٍ كبير والى مغنٍ صغير من ماري.
(10)	532	»	»	: أنسجة الى Gullisum لوكار ماري .
(20)	»	»	»	: أنسجة الى اشخاص بينهم داشي Dase لوكار ماري .
(34)	»	»	»	: أنسجة الى اشخاص بينهم Ile لوكار ماري.
(16)	542	»	»	: أنسجة الى عدة اشخاص بينهم لوكار ماري.
(19)	»	»	»	: أنسجة الى لوكار ماري .

يتضح مما تقدم وجود علاقات تجارية قوية بين ابلا وماري . ويمكن الاستنتاج من خلال ذكر عدد كبير من تجار ماري في نصوص ابلا ان تجار ماري كان لهم دورهم البارز في تجارة ابلا .

جـ ـ مع ايمار : تتخذ العلاقات مع ايمار طابعا رسميا فمعظم الارساليات من الانسجة مخصصة لملك ايمار وشيوخها . فيما يلي نورد النصوص التي تتحدث عن ذلك :

(4)	1	I	ARET	: انسجة الى ملك (en) ايمار وشيوخها .
(57)	»	»	»	: ثوب واحد وفضة وقلادتان الى تيشاليم Tisalim ملكة ايمار .
(64)	»	»	»	: انسجة الى ايمار والى تيشاليم الملكة .
(76)	»	»	»	: انسجة الى شخص من ايمار .
(4)	2	»	»	: انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .
(4)	3	»	»	: انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .
(3)	4	»	»	: انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .
(5)	5	»	»	: انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .
(4)	6	»	»	: انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .
(5)	7	»	»	: انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .
(19)	8	»	»	: انسجة الى ملك ايمار وشيوخها ومغنيها .
(42)	8	»	»	: انسجة الى ملك ايمار
(4)	9	I	ARET	: انسجة الى ملك ايمار وشيوخها .
(6)	10	»	»	: انسجة الى ملك ايمار .
(12)	»	»	»	: انسجة الى ايمار .
(26)	»	»	»	: انسجة الى ايمار .
(59)	»	»	»	: انسجة الى ايمار .
(20)	15	»	»	: انسجة الى تيشاليم ملكة ايمار .
I 3	63	III	»	: انسجة الى ملك ايمار .
II	326	»	»	: ٢٠ شيقيل دلوني ذهب وقلادتان هدية الى Tibur - Lim ملكة ايمار .
(33)	6	IV	ARET	: انسجة الى ملك ايمار .
(10) (15)	9	»	»	: انسجة الى ايمار .
(91)	18	»	»	: انسجة الى شخص من ايمار .
(22)	19	»	»	: انسجة الى ملك ايمار .

(12)	20	»	»	: أنسجة الى ايمار .
(11)	23	»	»	: أنسجة الى شخص من ايمار .
(44)	»	»	»	: أنسجة الى شخص من ايمار .
(1)	24	»	»	: أنسجة الى ملك ايمار .
(4)	521	VIII	ARET	: انسجة الى شخص من ايمار .
(11)	522	»	»	: أنسجة الى شخص من ايمار .
(14)	524	»	»	: أنسجة الى شخص من ايمار .
(41)	»	»	»	: أنسجة الى ملكايماروملك مدينة Ibutum (ki) .
(39)	529	»	»	: أنسجة الى ثلاثة ملوك مدن بينهم ملك ايمار .
(47)	»	»	»	: أنسجة الى ملك ايمار .
(42)	533	»	»	: أنسجة الى أشخاص من عدة مدن بينهم شخصان من ايمار لكل منهما ثلاثة انسجة مختلفة .
(32)	540	»	»	: أنسجة الى ملك ايمار وابنه .
(33)	»	»	»	: انسجة الى شيوخ أيمار وملكة ايمار وابنتيها .
(48)	»	»	»	: أنسجة الى ابن ملك ايمار .
(78)	541	»	»	: أنسجة الى ملك ايمار وشيوخها .

جـ ـ مع اورسئوم Ursaum : يعتقد أن اورسئوم هي نفسها أورشوم التي يرد ذكرها في نصوص ماري وفي النصوص الاكادية . ولكن موقعها غير معروف حتى الان، والعلاقات بينها وبين ابلا كعلاقات هذه مع ايمار ، فمعظم الانسجة المرسلة الى هناك مخصصةللملك والشيوخ وفي حالات قليلة لبعض الاشخاص كما يتضح من نصوص كثيرة(٨٧) .

د ـ مع حرّان : وهي لا تختلف عن علاقات ابلا السابقة الا بفارق بسيط هو ان الانسجة المرسلة موجهة الى بدالوم حران وشيوخها وليس الى ملكها الا في حالات قليلة جدا (٨٨) . وهذا يدل على المكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها هذا الموظفالكبير.

هـ ـ مع كيش : على الرغم من البعد الكبير الذي يفصل بين ابلا وكيش كانت العلاقات بينهما قوية في عدة مجالات وبخاصة في المجال التجاري . فالعديد من

وثائق ابلا يرد فيها ذكر كيش او ذكر بضائع مرسلة اليها أو اشخاص منها أو مسافرين اليها أو تجار . ويتبين من تلك الوثائق أن المنسوجات هي التي كانت ترسل غالبا الى كيش سواء الى الملك وعائلته كهدايا أو الى اشخاص اخرين .

وكانت الادارة الابلوية تزود رسلها الى كيش بالفضة بكميات مختلفة لاغراض محددة . فهناك نص يذكر ٨ مينة (نحو ٣٫٧٦كغ) أعطيت الى قافلة ذهبت الى كيش. ويذكر نص ثان اعطاء خمسة شيقيل فضة الى شخص يدعى Ennai كمخصصات للسفر(٨٩) . ويتحدث نص ثالث عن تاجر ذهب الى كيش في مهمة لشراء ثياب ، ولكنها لم تذكر كمية الفضة التي كانت بحوزته. وكذلك كان الذهب يرسل على شكل سبائك الى شخصيات هامة في كيش . فأحد النصوص يذكر ارسال سبيكة واحدة وزنها ٤٠ شيقيل (٣١٣غ) الى ملك كيش ، وست سبائك وزن كل واحدة ١٦ شيقيل (نحو ٧٢٥غ) الى الشيوخ، وست سبائك وزن الواحدة ٦٠شيقيل (نحو٤٧٠غ) الى المغنين . وتذكر في نص ثان كميات اخرى ارسلت الى الملك والشيوخ والمغنين(٩٠). ويتحدث نص ثالث عن ارسال أنسجة وسبيكة وزنها ٤٧ شيقيل ذهب الى ملك كيش(٩١) . ونقرأ في نص رابع ما يلي:

٩ انسجة (ثلاثة من كل نوع) ومينة واحدة ذهب و٢ شيقيل وسبيكة و ٥٠ (شيقيل) ذهب وسبيكة و ٤٥ شيقيل ذهب وسبيكة هدية الى ملك كيش وابنه بعهده inamalik رجل إبريوم (٩٢) .

ويرد في نص خامس ذكر لتاجر من كيش (٩٣) . كما توجد نصوص اخرى تتحدث عن ارسال انسجة الى كيش(٩٤) ، أو عن تخصيص فضة لرحلات الى كيش(٩٥) .

و ـ مع دلون : يذكر الشيقيل الدلموني بكثرة في نصوص ابلا ، مما يدل على استخدامها الاوزان الدلمونية . ولما كانت دلون ترتبط بعلاقات تجارية قوية مع ممالك جنوب بلاد الرافدين في عصر السلالات الباكرة وبخاصة في تجارة المعادن، فيمكن القول أن علاقات دلون التجارية امتدت لتصل ابلا في النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد . وكانت الاتصالات تتم بشكل غير مباشر عن طريق مدن بلاد الرافدين وبخاصة تلك الواقعة على نهر الفرات(٩٦) .

ز ـ العلاقات مع المدن والمناطق الاخرى : تذكر نصوص ابلا اسماء العديد من المدن والمناطق التي كانت ترتبط مع ابلا بعلاقات تجارية وغيرها مثل اريتوم Iritum وحماه وامورو وكركميش وموراز وجاسور وككميوم Kakmium ومنوات Manuwat وادابيغ Adahig وارمي وغيرها .

لكن طبيعة المعلومات المتوافرة لا تسمح باعطاء صورة اضحة عن تلك العلاقات ، كما ان مواقع العديد من المدن المذكورة غير معروف حتى الان .

1.Pinnock,F.,"About the trade of early syrian Ebla", in:M.A.R.I. 4(1985)p.90ff;Klengel,H.,"Ebla im Fernhandel des 3.Jahrtausends ",in:WGE, p.246.

2.Klengel,H.,Ebla im Fernhandel, p.247 ff.

3.Pinnock,F.,"Trade at Ebla",in:Bulletin:The society for Mesopotamian Studies 7(1984) p.22.

4.Ibid,p.23.

5.Biga,M.G.,"Tre testi amministrativi da Ebla",in: SEb IV(1981) p.30 ff.

6.pinnock,Trade at Ebla,p.23.

7.Ibid,p.24.

8.Archi,A.,"The Archives of Ebla",in:Veenhof(ed.), Cuneiform Archives and Libraries 1986,p.75.

9.Archi,A.,"Reflections on the system of Weights from Ebla",in:Eblaitica I(1987) p.47ff

10.Archi,A.,The Archives of Ebla,p.76.

11.Pettinato,G.,"Les Relations entre les royaumes d'Ebla et de Mari au troisième millénaire d'aprés les Archives royales de Tell Mardikh-Ebla" in: Akkadica 2(1977) p.27;The Archives of Ebla,an empire inscribed in clay,Garden City-New York, 1981,p.102,166.

12.Archi,A.,in:SEb IV,p.132-134.

13. Archi,A.,"Wovon lebte man in Ebla",in:AFO,Beiheft 19(1982),p.179-181;Pettinato,G.,Ebla Nuovi orizzonti della storia,Milano 1986,p.406ff.
14. Archi,A.,"Prices,workers-wages and maintenance at Ebla",in:AOF,15(1988),p.24.
15. Lexicon der Ägyptologie II,p.725ff
16. Pinnock,Trade at Ebla,p.25;"Einige Erwägungen zum Handel von Ebla",in:Altertum 31(1985),p.135; "Observations on the trade of lapislazuli in the IIIrd Millennium B.C",in:WGE,p.107ff.
17. ARET III 635 v.I:šu-ba-ak 1 ma-na 20 gín:za aš-ti raš:ga Mari(ki) 10 gín D.bar 6:ku nig-ba Ur-na Mari(ki).

مبادلة مينة واحدة و ٢٠ (شيقيل) لازورد من إتي تاجر ماري

(مقابل) ١٠ شيقيل دلموني فضة هدية أونا (من) ماري.

18. ARET VIII 528(3).
19. ARET VIII 528(15).
20. ARET VIII 528(19).
21. ARET VIII 528(2).
22. Pettinato,G.,The Archives of Ebla,p.168ff.
23. MEE 2,17,r.VIII 1-6.

24. Waetzoldt,H., Zur Terminologie der Metalle in den Texten aus Ebla ,in:Cagni(ed.),La Lingua di Ebla, p.364.

25. Ibid,p.365.

26. Ibid.

27. MEE 2, no.1: r.I,3,5.

28. Waetzoldt, H., Zur Terminologie ,p.366;MEE 4:78: r.III 6-7: urudu kà-pá-lum نحاس قبرص

29. لسان العرب ، م٦ ،ص١٦٨ ، معجم البلدان ،م٤ ، ص ٣٠٥

30. يشير النص (١) AREP VII 141 الى " قصدير دلموني كبير " و "قصدير دلموني صغير" لكن دلمون (البحرين) لم يكن فيها مناجم للقصدير. والتفسير المعقول لذلك هو أن دلمون كان لها دور هام كمحطة تجارية ، تستورد الكثير من البضائع وتعيد تصديرها الى بلدان أخرى . وكانت علاقاتها مع ابلا قوية ،بدليل استخدام الشيقيل الدلموني في ابلا. ولكن من أين كانت دلمون تحصل على القصدير ..؟ ربما كان يصلها عن طريق البحر من أفغانستان أو غيرها ... قارن :
Stech,T.,Pigott,V."The metal trade in southwest Asia inthe third millennium B.C.",in:Iraq 48(1986), p.39ff.

31. Pinnock,Trade at Ebla,p.26;Einige Erwägungen,p.136.

32. Pinnock,Trade at Ebla,p.27.

والنص (44) ARET VIII 534 يذكر ٥ مينة و ٤٢ شيقيل فضة ثمن شراء ٥٠٠ وحدة وزن صوف من ماري

33. ARET VIII 533 (62):

na-gar(ki) صوف نجر (وحدة وزن) na (4) 28

na-gar(ki) صوف نجر (وحدة وزن) na (4) 235

ARET VIII 533 (65): صوف نجر na(4)102.

صوف نجر na(4) 40.

صوف نجر na(4) 60.

34. هناك مدينة تحمل الاسم نفسه تظهر في نصوص ماري، ربما كانت شمال سجاراتوم Sagarātum على الخابور . أنظر :

RGTCI (1977),p125; III(1980),p.175.

35. ARET,VIII 542(22).

36. Archi,Wovon lebte man in Ebla,p.186.

37. Pettinato,"Il commercio internazionale di EBLA: Economia statale e private",in:OLA 5(1979),p.171ff 184ff.

38. Waetzoldt,"Diplomaten,Boten,Kaufleute und Verwandtes in Ebla",in:Cagni(ed.),Il Biblinguismo a Ebla,p.410.

39. Pinnock,Trade at Ebla,p.29;Einige Erwägungen, p.139.

40. أنظر العلاقات مع مـاري

41. يذكر النص ARET IV 1(30) أنواعا مختلفة من الانسجة

وبأعداد : ٦٠، ٢٤٧، ١٠٠،٢٠٧،٨٠ الى لوكار ماري المقيم

في دونيتوم Du-ne-tum(ki)

١٧ ثوب نساشي الى لوكار ماري بيد ARET IV 2(12)

شخص من (أوفي) sa-za(ki) (مدينة غير معروفة)

لوكار ماري تلقى ٨٠٠ جوبار شعير: ARET VII 14 r.I 1-3

٤٧٠ لباس صوفي لـ ٤٧٠ شخصا ARET VIII 522(21):

(مقيمين مع) لوكار ماري المقيم في دونيتوم.

أنسجة الى مدينة ARET VIII 523 (26):Ununi(ki)

أودعت بيد Iš-ma-ni لوكار ماري

ثلاثة أنواع من الانسجة من كل نوع ARET VIII 524(14):

ثلاثين الى لوكار ماري المقيم في دونيتوم

أنسجة (عدد مشوه) الى ARET VIII 532(48) xix 1-5:

٣٨٠ شخصا مع لوكار مارى المقيم في دونيتوم

42. أنظر العلاقات مع المدن والمناطق الاخرى

43. Waetzoldt,"Diplomaten,Boten,Kaufleute",p.417.

44. ARET III 467 IV 14ff.

45. Waetzoldt,"Diplomaten...",p.406,418.

46. maḫu Gasur(ki) ١ مينة فضة أعطيت الى ماخو جاسور

٢ مينة و ٤٠ شيقيل أعطيت الى ماخو جاسور (من أجل) ٦ رحلات.

Pettinato,G.,Gasur,p.299. (جاسوراسم نوزي القديم)

47. ARET III 193 v.7ff

48. Waetzoldt,"Diplomaten...",p.419.

49. Ibid,p.420.

50. Ibid,p.421.

51. Pettinato,The Archives of Ebla,p.114.

52. Waetzoldt,"Diplomaten...",p.422ff.

53. Ibid,p.423ff.

54. Ibid,424ff;Lipinski,E."šu-bala-aka and badalum, in:WGE,p.258ff;Archi,"Ḫarran in the IIIed MILlennium B.C",in:UF 20(1988),p.2.

55. أنظر العلاقات مع حران.

56. Archi,"Ḫarran",P.1ff.

57. ربما كانت تقع شرق غوزانا (رأس العين) التي تبعد نحو ٩٠ كم الى الشرق من حران.
Archi,"Harran",P.1.

58. ARET I 3(16);4(13);5(16);6(15);7(15);8(30).

59. ARET II 14(17);III(898) II;IV I(107);13(20); 16(16,17).

60. ARET I 8(7);10(40);III 247 II;IV 18(76).

61. Waetzoldt,"Diplomaten",p.425,437.

62. ARET III 467 IV:

خيموتوم Ḫimutum لو- كار ابلا وأبناء ملك خزووان Ḫazuwan(ki)

63. Pettinato, <u>The Archives of Ebla</u>, p.103ff; <u>Ebla Nuovi orizzonti della storia</u>, Milano 1986, p.389ff.

64. Sollberger, E., "The so-called treaty between Ebla and Ashur", in: <u>SEb</u> III(1980), p.129-155.

65. <u>Ibid</u>, p.130; Gelb, "Ebla and the kish civilisation", in: Cagni (ed.), <u>La Lingua di Ebla</u>, p.21, 70.

66. Sollberger, <u>Op.Cit.</u>, p.131.

قارن Gelb، المرجع السابق ص ١٢ ومايليها

67. Pettinato, <u>The Arfhives of Ebla</u>, p.104.

68. <u>Ibid</u>, انظر أيضا :

Lambert, W.G., "The Treaty of Ebla", in: Cagni(ed.), Ebla 1975-1985, p.355ff.

69. Sollberger, <u>Op.Cit</u>., p;142; Stieglitz, R., "Notes of riverine-maritime trade at Ebla", in: Raban, A.(ed.) Proceedings of the first international worshop on ancient mediterranean Harbours, Oxford, 1985, p.8.

70. Sollberger, Op.Cit., p.134.

71. Kienast, B., "Der Vertrag Ebla-Assur in rechthistorischer Sicht", in: <u>WGE</u>, p.231-243.

72. Lambert, Op.Cit., p.353-364.

73. Von Soden,W.,"Ebla,die früheste Schriftkultur Syriens,in:WGE,p.327.

74. Sollberger,Op.Cit.,p.142

75. Archi,"The Personal names in the individual cities",in:SLE ,p.232;Stieglitz,Op.Cit.,p.8.

76. Stieglitz,p.7.

77. أنظر العلاقات مع دلمون

78. ARET VIII 524(32) XV 23-25.

79. ARET VIII 529(4) Vii 9-11;532(22)

80. Biggs,R.D.,"Ebla and Abu Salabikh",in:Cagni(ed.) La Lingua di Ebla, p.127.

81. Mattiae,G.S.,"Vasi inscritti di chefren et Pepi I. nel plazzo reale G di Ebla",in:SEb I(1979),33ff; "Ebla und Aegypten im Alten und Mittleren Reich", in:Antike Welt 13(1982),p.15.

82. Matthiae,"Ebla und Aegypten...",p.16.

83. Ibid,p.17.

84. Klengel,H.,"Ebla im fernhandel des 3.Jahrtausends",in:WGE,p.246ff.

85. Diaknoff,I.M.,"The importance of Ebla for history and linguistics",in:Eblaitica 2(1990),p.12.

86. يرى آركي أن هيدار هو آخر ملوك ماري معروف من نصوص ابلا وكان معاصرا لابي زكير آخر ملوك ابلا أنظر :

Archi,"Les noms des personnes mariotes à Ebla (IIIe millenaire)"in:<u>M.A.R.I.</u> 4(1985),p.47ff.

ولكن ميشالوفسكي يشكك في امكانية كون بعض الحكام الذين رأى فيهم آركي ملوكا لماري في عصر آرشيف ابلا الملكي ومنهم هيدار ،ويرى أن بعض تلك الاسماء ليست أسماء أعلام . أنظر :

Michalowski,P.,"Third Millennium contacts:opser-vations on the relationships between Mari and Ebla" in:<u>JAOS</u> 105:2(1985),p.298ff.

87. <u>ARET</u> I 1(9);2(8);3(11);5(10);6(8);7(9);8(7);9(8); 10(40);III 247 II,395 II;IV 1(31);1(44),(45),(57); 6(41);7(22);8(6);16(20),(34),(36);<u>18</u>(75),(89),(90); 20(37);VIII 521(38);522(11);523(8);524(13),(19); 525(25);527(3);529(13)Xii 8-10,(37);532(38),(39); 541(9,10,31);<u>MEE</u> 2,v.III 3-7.

88. <u>ARET</u> I,1(13);3(15);4(12);5(15);6(14);7(14);8(15); III 63 III 3;367 II;868 I;IV 1(109,110);6(1,37);19(26) VIII 527(19,35);531(15);533(15).

Archi,"More on Ebla and Kiš",in:Eblaitica 1(1987);

90. Ibid,p.126.

91. Archi,"The personal names..",p.229.

92. ARET VIII 540(10).

93. ARET III 76 II-III:zi-mi- NI lukar Kiš(ki).

94. ARET III 107v.3;117 III;VIII 540(28).

95. ARET VII 9(6): ٦ مينة فضة من أجل ست رحلات الى كيش

96. Stieglitz,R.,"Ebla and Dilmun",in:Eblaitica 2 (1990),p.43ff.

مختصرات أسماء المراجع والمصادر

ARET = Archivi Reali di Ebla-Testi.

AoF = Altorientalische Forschungen.

M.A.R.I. = Mari Annales recherches interdiscilinaires, Paris.

MEE = Materiali epigrafici di Ebla.

OIP = The University of Chicago Orientale Institute Publication.

OLA = Orientalia Lovaniensia Analecta.

RGTC = Répertoire Géographique des Textes Cunéiformes.

SEb = Studi Eblaiti.

WGE = H. Waetzoldt und H.Hauptmann (edts.),Wirtschaft und Gesellschaft von Ebla,Heidelberg 1988.

تاريخ حلب في بداية الالف الثاني ق.م
من خـلال نصوص ماري

د. جان ماري دوران
جامعة السوربون ـ باريس

تسجل المصادر التاريخية الرافدية الاهميـة العالميـة لمدينـة حلب في الشرق الادنى ، منذ بداية الالف الثاني ق.م . الا أن معلوماتنا عن هذه المدينـة جاءت مـن مصادر غير مباشرة ، وليس من محفوظات محلية كالحواضر السورية الاخرى ، مثل كركميش او قطنة . هذا ، مع اختلاف آخر هو اننا ، في حالة حلب ، غير متأكدين من المكان الذي ترقد فيه المدينة القديمـة ، ولم تأت الحفائـر بمـا يدل عما اذا كانت المدينة قد وجدت قبل أن تشير النصوص الاولى اليها ، كما هي الحال العامة للمدن في الشرق الادنى .

ومما يدعو الى مزيد من الاسف ، الصمت التام في المصادر التي تعود الى الالف الثالث عن حلب . فلا سومر الباكرة ، ولا الامبراطورية الاكادية ، أو أور الثالثة ، تذكر حتى اسمها . وما يدهش أكثـر سكوت نصوص ابـلا في منتصف الالف الثالث عنها ، برغم القرب الجغرافي . وهذا ما يجعلنا أمام نظريتين : أولاهما ان المدينة لـم تكن قد وجدت بعد . والثانية : هي أنه لا يستبعد ان تكون المدينة آنذاك باسم آخر. ومن هنا ظهرت فكرة التفتيش عن حلب تحت اسمي أرمي Armi أو خلمـا halma الذين تذكرهما وثائق ابلا .

أما فيما يتعلق بالالف الثاني ، فلدينا العرض الكلاسيكي ل (هورست كلينجل)، فما دونه من تاريخ حلب يستند الى مصادر من القرن الخامس عشر حتى الثاني عشر، وبخاصة : المصادر الحثية .

مصادر آلالاخ (تل عطشانة ، انطاكية ، سورية) المستوى ع .

مصادر تل العمارنة (مصر) .

مصادر أوجاريت (راس شمرا ، سورية) .

---

* اعد هـذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ـ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ـ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ ـ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

الا أن هذه الوثائق ، من جهة اخرى ، قليلة التنوع ، وتعنى بالتاريخ السياسي او الحربي فقط . وتجدر الاشارة الى أن وثائق ايمار (مسكنة الجديدة) لم تأت بجديد عن هذه الفترة ، نظرا لطبيعة نصوصها الخصوصية : فهي محفوظات عائلية خاصة ، او طقسية رافدية ـ سورية . والاشارات السياسية الوحيدة فيها تشير الى كركميش (جرابلس) التي قامت بدور الوسيط لحساب الادارة المركزية في حاتوشا زمن سيطرة الحثيين على شمال سورية . وتقدم لنا مصادر ماري (تل الحريري) في العصر الذي كتب عنه كلينجل عرضه التاريخي ، بعض المعلومات عن القرن الثامن عشر ، ولكنها محدودة نسبيا ، لان الاهتمام بمحفوظات ماري الملكية ، في ذلك الوقت، كان يتركز على نشر وثائق عصر مملكة الرافدين العليا (سمسي أدو وولداه) ، حيث كانت المراكز السياسية تقع في أقصى الشرق : شبات انليل (تل ليلان) في أعلى الجزيرة ، وبخاصة أكالاتوم ، على ضفاف دجلة ، أو محفوظات حكام مركز مملكة ماري التي تتعلق ، قبل كل شيء ، بمناطق أخرى ، دون العاصمة (تل الحريري) مثل ترقا (تل عشارة) أو وادي الخابور الادنى .

اذاً ، تعد ماري ، من الان فصاعدا ، مصدرا رئيسا لتاريخ حلب ، أو غرب سورية بعامة . وقد نشر مؤخرا المجلدان (A R M XXVI/1) (XXXVI/3) اللذان يتضمنا رسائل سفراء ماري أو مبعوثيها المتنوعين الى مملكة حلب .

تقدم لنا هذه النصوص لمحات بالغة الاهمية ، ولكنها ، بالطبع لا تحل محل المصادر المباشرة ، وانما تسمح ، من الان فصاعدا ، بانتظار ظهورها بهدوء .

١ ـ تحديد العصر الاموري :

تتعلق نصوص ماري بما اتفق على تسميته « العصر الاموري » ، لقد قدم الاموريون من غربي الشرق الادنى ، كما أن اسمهم يعني « الغربيون » . هؤلاء الساميون ، الذين كانوا بدوا حوالي ٢٠٥٠ق.م ، هم ، دون شك ، المسؤولون الرئيسيون عن سقوط سلالة اور الثالثة ونهاية السيطرة السياسية للحضارة السومرية ، وهم الذين تحضروا بأغلبيتهم حوالي ١٨٠٠ ق.م ، أي في زمن محفوظات ماري ، وسيطروا على الشرق الادنى بكامله حتى سوزا في جنوب ايران ، وبحيرة أورمياخ Urmiah في الشمال . كما أن الحواضر الكبرى الاكادية مثل اشنونا وبابل، والسومرية مثل لارسا ، يجب أن تعد وكأنها محكومة من قبل سلالات امورية. واشهر ملوك ذلك العصر ، المشرع والفاتح حمورابي ، كان اموريا .

آ ـ كان الاموريون ينقسمون الى فرعين قبليين كبيرين :

ـ بني يمينا (ابناء جهة اليمين أو الجنوبيون) .

ـ وبني سمأل (أبناء جهة الشمال أو التماليون) . ونعلم اليوم ، ان العائلة الملكية في ماري كانت من بني سمأل ، وهكذا الحال ، على ما يبدو ، بالنسبة للعائلة المالكة الحلبية . بالمقابل ، كان أصل العائلة الملكية في بابل من بني يمين . وقد وجد دائما ، حتى بين المتحضرين ، نزوع للعودة الى البداوة ، ولان يصبحوا ما كان يدعى آنذاك «خناني» ، أي « الذي يعيش في الخيمة » أي بدوي . وقد حل بنو سمأل البدو فيالجزيرة العليا خاصة. وتفرعوا الىبطون صغيرة تمارسمع قطعانها النجعة الموسمية.

وعلى العكس من ذلك كان بنو يمين من قبائل بدوية كبيرة اتسمت تنقلاتها السنوية بالجموح غير آبهة بالحدود السياسية ، تنطلق من ضفاف الفرات حتى المتوسط ، مرورا بيمخاض الى الشمال أو « بالبادية التدمرية » الى الجنوب ، التي كانت بالتأكيد أقل تصحرا بكثير مما هي عليه اليوم .

ب ـ وكان يوجد فيذلك العصر توازن أكيد بين القوى السياسية الرئيسية،وهي:

ـ (من الجنوب الى الشمال) : خاسور ، قطنة ، حلب ، كركميش .

ـ (من الغرب الى الشرق): ماري ، كالاتوم ، بابل ، أشنونا ، لارسا .

في هذه الاثناء توضح رسالة شهيرة من ماري هيمنة مدينة حلب فتذكر أن عشرينملكا « يتبعون » ملكها في حين لا يتبع الملوك الباقين ، في أفضل الحالات ، أكثر خمسة عشرا « تابعا ملكيا » .

٢ ـ حدود المملكة :

ثمة ميزة هامة للاموريين وهي أنهم أعطوا أسماء جديدة للاماكن التي حلوا فيها، وبذلك خلقوا للمواقع الجغرافية أسماء جديدة غطت على أسمائها القديمة ، وحالت غالبا دون مطابقتها مع أسماء المواقع كما كانت تعرف في الالف الثالث .

ـ ان الاسم الذي يشار به عادة الى مملكة حلب هو ددوم Dadûm ويعني ببساطة « بلاد » باللهجة الامورية ، أما مملكة ماري حيث يعرفون اللهجة البابلية بصورة أفضل ، فتدعى ماتوم Mâtum ، وتعني أيضا « بلاد » باللغة الاكادية . أما الاسم الرسمي لمملكة حلب ، الذي يتضمن مفاهيم سياسية ، فهو يمخاض Yamhad الذي يبدو أنه صيغة فعلية تعني « هو كثير »(*). ولكن تعليل ذلك غير مؤكد ، وهذا

* ان الجذرين العربيين اللذين يقابلان « يمخاض » الاكادية هما محض و مخض . والاول يدل على القلة : محض الشيء ، والثاني على العطاء : مخاض ، وربما على الكثرة ، كما يقول ديوران (المترجم) .

حال الاسم « اخ يوراتيم » بالنسبة لماري (ضفاف الفرات) أو « أ خادجلت » بالنسبة لـ « اكالاتوم » (ضفاف دجلة) أو واروم Warum بالنسبة لاشنونا ..الخ.

ـ نستطيع في هذا المجال أن نحاول تفسير اسم المدينة نفسه ، الذي يظهر في نصوص ماري حلب halab ، وقد ظهر عدد من أسماء المواقع القريبة منه في العصر الاموري ، فمر معنا اسم خلبيت Halabit الذي يدل على حلبية Halabiyé المعاصرة أو على « حلابا » وهي مدينة في الجزيرة . وثمة اسماء مواقع مشتقة من الجذر خ ل ب HLB ذاته في وثائق اوجاريت . من جهة اخرى ، يذكر لنا قاموس رافدي من القرن الاول قبل الميلاد ان خلبو Halbu كلمة تعني « الغابة » ونعلم من خلال ادلة أكيدة أن خلبيت ، الاسم القديم لـ « حلبية » ، كانت مشهورة بغابتها . وربما أخذت المدينة هذا الاسم من أشجار الفستق (الحلبي الشهير) منذ العصور القديمة . فهو اذا اسم موقع يعادل تماما اسم Foresthill المعروف جيدا في البلاد الانكلو ـ ساكسونية .

اما امتداد مدينة حلب ، فيمكن تحديده كما يلي :

من الغرب الى الشرق : من البحر المتوسط (بحيث تتبع لها أوجاريت والالاخ حسب نصوص ماري) حتى الفرات ، حيث تقع ايمار Imar (Emar) في القرنين ١٤ و ١٣ ق.م) التي كانت ، برغم استقلاليتها ، المنفذ التجاري لمملكة حلب على الفرات وحدود سلطتها السياسية في الشرق.

في الشمال تحدها مملكة كركميش في أعالي الفرات . وكانت الحدود على ما يبدو نهر ساجور ، في شمال منبج .

من الجنوب ، كانت دولة قطنة في منطقة حمص المنافس المزمن لحلب . ولا نعلم بالتحديد خط الحدود ، ولا لمن كانت تتبع حماه التي لما تذكرها النصوص بعد . وفي الواقع نحن لا نعرف سوى القسمين الغربي والجنوبي من مملكة قطنة (حمص) ، حيث كانت الضفة الشرقية لبحيرة حمص ومدينتا قادش (قادسيا) وناشالا (القريتين) قسما من أراضيها . وهذا أمر مؤكد . اما تدمر فقد كانت مجال توسع على الاقل .

٢ ـ السياسة :

نستطيع من الان فصاعدا ، وبفضل نصوص ماري ، أن نلاحظ ان (عائلة ملكية واحدة) حكمت مملكة حلب خلال قرنين . وتسمح نصوص ماري بتوثيق ثلاثة ملوك وزوجاتهم وهم :

ـ سومر ايبوخ ، مع ملكته سومونابي ، وهو بشكل شبه مؤكد مؤسس هـذه السلالة . مثل يخدون ـ ليم معاصره وخصمه، ثم حليفه ، الذي أسس سلالة ماري. وهما من قبائل بني سمأل .

ـ ياريم ليم مع زوجته الملكة جاشيرا حمو زمري ليم ملك ماري .

ـ حمورابي (مازلنا نجهل اسم زوجته).

كان الملك ابان Aban الذي ذكر في وثائق آلالاخ طفلا صغيرا عندما دمرت ماري. ونلاحظ اسـتمرار التحالف مع ماري (زواجان ملكيـان : حيث أن زوجتي يخدون ليم ونظيرتها الشهيرة شيبتو زوجة زمري ليم كانتا اميرتـين حلبيتـين) . وكذلك استمرار التنافس المسلح بين حلب وقطنة ، اذ لم تكن فترات السلم الا فترات عابرة.

وتوطدت العلاقـات بين حلب وماري بعدد من التحالفات الحربية ادت الـى قيامها بالحرب جنبا الى جنب ضد اعـداء حلب في الجبـال الشمالية ، او ضـد اعداء ملك ماري في الشرق ، أي اشنونا او العلاميين ، وحتى لارسا جنوبي العـراق الحالي ، عندما كان زمري ليم وياريم ليم متحالفين مع بابل . وبذلك نستطيـع أن نتحدث عن محور سياسي ـ حربي فراتي حقيقي هو محور حلب ـ ماري ، الـذي غالبا ما امتد الى بابل حيث الاعداء الى جنوبها الغربي أو شمالها الشرقي.

هناك نوعان من الوثائق النادرة تحدد جبروت حلب :

ـ الاول هو رسالة تهديد من ياريم ليم الى امير « دير » في وادي دجلـة ، والتي تبدو نائية شرقا . ولكن ملك حلب القوي يتوعدها بغضبه الشديد . وقد احتفظت المحفوظات الدبلوماسية في ماري بنسخة من هذه الرسالة ، كان ياريم قد بعث بها الى صهره (اعلاما بالامر) .

اما الثاني فهو مجموعة من نصوص ماري الادارية ، وتسمح لنا بكتابة وقائعرحلة طويلة للملك زمري ليم ، مع قسم من بلاطه ، مصطحبا اوانيـه الثمينـة من الذهب والفضة الى مملكة حلب. ولم يكتف ملك ماري بالذهاب حتى عاصمة يمخاض من أجل تكريم إله حلب العظيم ادو ، الذي سنتحدث عنه بعد قليل ، ولكنه تابع طريقه الـى ضفاف البحر المتوسـط ، الى أوجاريت . ولا نعرف ، للاسـف ، دواعي قدوم ملك ماري الى ضفاف بحر الغرب الكبير .

٤ ـ ثروة البلاد :

انها ثروة كبيرة ، واهم من ثروة مملكة رافدية عادية. اذ أن مملكة حلب لا تتوقف مواردها على فيضان دجلة والفرات ، أو على محاصيل الحبوب والتمور فقط . فهي منطقة ممطرة ومحصول الشعير وحده كاف ليجعلها مصدرة للحبوب ــ عن طريق مرفأ ايمار ــ على مستوى بابل البالغة الخصوبة ، وزيادة على ذلك هناك زراعة كل انواع الكرمة، مما يجعلها مثل كركميش أو طوروس ، المصدر الرئيس للنبيذ في ذلك العصر. من جهة اخرى ، يجب الا ننسى زراعةالزيتون البالغة الاهمية، التي تذكرها النصوص خطأ في ابلا . لقد إتسعت زراعة هذه الشجرة بين ٢٣٥٠ و ١٨٠٠ ، وكانت حلب منطقة مصدرة لزيت الزيتون الى ماري ، حيث لا يوجد الا زيت السمسم . كما نستطيع أن نستنتج ، من جهة اخرى ، وجود قطعان كبيرة من الغنم ، اذ أن صوف يمخاض ونسيجها كانا مشهورين ومرغوبا فيهما وراء الحدود .

وكان لتجارة الاخشاب دور اقل اهمية مما كنا نعتقد سابقا ، لان منطقتي توتول Tutul ، وخلبيت كانتا تكفيان حاجة ماري ، ونرى بالتأكيد الاخشاب الثمينة تأتي من الشمال ، كالارز الذي استعمل كثيرا من اجل التبخير عند تقديم الاضاحي ، اضافة لاستعمالاته في البناء . ان المثال الوحيد الواضح الذي نعرفه لنقل جذوع الارز من لبنان الى ماري بهدف البناء ، ما قام به الملك يخدون ليم ، عند تشييد معبد شمش حينئذ ، اذ لا يمكن القول ان يخدونليم قد مر عن طريق حلب ، التي كان على حرب دائمة معها . ان موقع يمخاض ، كمحطة بين البحر المتوسط والفرات منحها دورا رئيسا في عالم التجارة في ذلك العصر . ان ايمار ، ونحن نتخيل ، اكثر مما نعلم ، بلغت مستوى يؤهلها للمقارنة مع نظيرتها الشرقية القوية آشور ، من حيث اهميتها وبيوتها التجارية . لقد وجدت بالتأكيد اتصالات في ميناء اوجاريت مع عالم بحر ايجة (كبتار Kaptar). ومن كريت كانت تأتي الاسلحة وقطع الثياب (وخاصة الجزم) وتصل حتى ماري .

وكانت حلب منطقة عبور « نحاس الجبال » الى ماري المحمول من آلاشيا (من الواضح انه اسم مدينة هامة في قبرص في ذلك العصر ، وليس اسما للجزيرة كلها ؛ كما وجدت اتصالات مع حاصور Hasor وفلسطين عن طريق قطنا ، ولم يظهر اي ذكر لمصر حتى الان .

كما وجدت اتصالات ، عن طريق كركميش ، مع الاناضول حتى كانيش (كبادوسيا) وبرشخاتة (طز غولو) ، ـ الغرب ، وحتى حاتوشا نفسها الى الشمال.

بالمقابل ، كانت حلب تفتقر لما تحتاجه من القصدير ، وهو المادة الاساسية في انتاج البرونز الذي تصنع منه الاسلحة في ذلك العصر ، والادوات والاواني . ونلاحظ جهودا حقيقية من أجل الحصول عليه ، ولكن ليس عن طريق الشمال (الاشوريون) ولكن عن طريق ابعد الى الشرق : أما في منتصف الطريق ، في تل ليلان (شبات ــ انليل) ، واما بواسطة ماري ، في الوقت الذي حطمت فيه سوزا قوة اشنونا العسكرية واصطنعت طريق جديدة لتجارة القصدير على طول نهر الفرات بواسطة موزعي ماري .

٥ــ الحياة والموت :

تتميز نصوص ماري بميزة هامة هي انها تسجل الى جانب الظواهر الجغرافية والسياسية والاقتصادية احداثا مختلفة تتيح لنا ان نفهم كيف عاش الحلبيون آنذاك ، كما تسجل مفاهيمهم وقيمهم بالنسبة لموضوعات هامة في الحياة الاجتماعية والدينية . عندما نشهد مراسم دفن الملكة سومونابي ، وكذلك في موت ملك كركميش أبلا خاندا Aplahanda ، نلاحظ ان مراسم الدفن كانت سرية (مقدسة وشبه سرية . المترجم) ، وشأنا عائليا في الحالة الاولى . أما عندما يموت الملك ، فان الحياة العامة والدينية تتوقف كليا . تسمى طقوس الدفن « كيسبوم » ، وفيما يخص العائلة الملكية فهي مراسم في القصر تأخذ شكل وليمة ، بحضور الالهة وأصدقاء متميزين ، وقد يدعى اليها سفراء ماري مثلا . هذا المظهر العائلي المنزلي للشعائر يساعد على فهم سبب وجود المدفن في البيوت الخاصة ــ كما نلاحظ في أوجاريت مثلا في وقت لاحق ــ وتتميز هذه القرابين الجنائزية بأنها كانت تتضمن حيوانات ميتة كانوا يقدمون ما يدعى بجروم Pagrum مقابل ما يجرى في الطقوس العادية من تغذية الاله باراقة دم حيوان رمز الحياة (والكلمة البابلية المقابلة لكلمة « اضحية » هي في الواقع « جريان » : نقوم niqum . هذا المظهر ظهر في آثار أوجاريت ، في عصر تال .

وثمة وجه آخر مهم لهذه الطقوس هو مناجاة الاسلاف الاولين . وقد ظهر أيضا في وثائق أوجاريت عن زمن لاحق . وهذه الاحتفاءات بذكرى الاسلاف كانت الاصل في كتابة قوائم السلالات ، وأول النصوص التاريخية . ان الذاكرة التاريخية في الشرق الادنى ، ومن ثم في دنيا الكتابة ، وجدت بحجة تكريم الاموات .

اما الحياة فتبدو أزهى باحتفالات الزواج ، ونحن نعرف عنها في منطقة حلب أكثر مما في منطقة حمص . فبعد الاتصالات الدبلوماسية كان يتم تبادل التقدمات : وكان والد العروس يقدم البائنة dot وتدعى ببساطة نديتوم niditum (اعطية ، هبة) ، أما العريس (أو والده بالطبع) فانه يقدم للخطيبة الترخاتوم terhatum

(الهبة المقابلة) وكذلك البوبلوم bubulum (تقدمة) الى الاهل والى عدد من الوجهاء. وكانت الهدايا ، وهي غالبا ثمينة ، تبدو وكأنها محاولة لتجهيز البيت الزوجي أو ترمز الى الثروة آنذاك : جواهر ثمينة (تصفها النصوص بدقة) ، أوانٍ قيمة أو للاستعمال ، ومفروشات متقنة الصنع الى حد ما ، وملابس وحيوانات وعبيد ــ وغالبا نساء عليهن تأسيس « بين الزوجة » قد يكون بينهن « نساء ناسخات ». كل ذلك رقم بعناية وسعر بدقة .

ويتلقى الاب الهدايا وحوله كبار اتباعه . وعند ذلك يستطيع مندوبو الزوج البدء باحتفالات الزواج .

وفي الحالتين اللتين نعرفهما ، لم يكن الزوج حاضرا ، ولهذا لم يوثق لنا سوى زواج بالوكالة. وكانت الفترة الاساس في الاحتفال ، لحظة وضع الحجاب على رأس الفتاة . ومن الهام جدا رؤية مثل هذا الاحتفال الذي نقل الينا أخيرا . لقد وثقت لنا شريعة القانون الاشوري الاوسط (القرنين الرابع والثالث عشر) في الواقع ، أهمية الحجاب من أجل تحديد صورة Statu المرأة المتزوجة واحترامها ، مقابل العاهرة التي كان عليها أن تسير في الشارع مكشوفة الرأس .

ونرى اذن في النتيجة الى أي درجة يمكن احياء مدينة حلب بفضل نصوص ماري. وهناك أحد الملامح الاساسية التي أرغب الانتهاء بها، الا وهي خصوصية الحياة الدينية في المناطق الغربية من الشرق الادنى ، مقابل الحياة الدينية الرافدية الاكثر خصوصية (المناطق الشرقية : بابل وسومر) والتي لا نعرفها الا من خلال وثائق بابلية تعود الى الالف الاول ق.م .

آ ــ **التنبؤ أو النبوءة :** الى جانب اللجوء الى طرائق التنبؤ بالعرافة أو التنجيم (فحص الاحشاء وخاصة كبد الخروف) وهي ميزة العصر البابلي القديم ، نلاحظ طرقا اخرى ، كالتنجيم بوساطة الطيور أو بجرع أشربة قد تكون كحولية . وثمة طريقة خاصة لفهم المستقبل يبدو ، من جهة اخرى ، انها كانت تجري بواسطة اثنين، عراف متخصص بفحص الاحشاء ، واخر يسمى « خادم الاله » وبعد ان ينتهي العراف من فحص الاحشاء يعلن التشخيص بـ « ملائم » أو « غير ملائم » فمن فم الخادم « الملهم » اذن يفصح الاله عن ذاته بشكل واضح ومفصل ، وبنبرة غنائية وتنبؤية خاصة .

ب ــ **شخصية ادو ((الاله)) حلب :** نشير ، بصورة خاصة ، الى الصورة المدهشة لاله مدينة حلب ادو . إن اله الصاعقة يحتل مكانة متميزة في عالم الالهة في ذلك العصر،

وكلامه ذو نبرة خاصة . هذا الاله تخيله الاقدمون، نظرا لجوهره الالهي ، بصورة محارب يقود بمهارة ويتحكم بهواطل المطر والبرد والثلج ، وهو مع ذلك الوحيد الذي ينطق بكلام ديني صاف وحقيقي ، حسب معاييرنا الدينية . وبدل أن يكون أحد الالهة العديدة المشركة المتعطشة الى النذور الثمينة والغنى ، يشدد على ان من يريد تكريمه يجب ان يقنع بممارسة العدل .

ففي هذه الخصوصية الدينية اذن تكمن ، دون شك ، بذور شعبيته الكبيرة في العصر المتوسط (القرن الرابع والثالث عشر) ، حيث لم يعد يدعى حتى باسمه ، وانما بلقبه : بعل Ba 'al وحسب ، أي السيد ، فمنذ العصر الاموري ،هو اله حارس للملكة . ولا شك في أن أولويته على سائر الالهة قد امتدت بالتأكيد الى خارج حدود يمخاض ، اذ أن زمري ليم لم يكتف بارساله لـه نصبا يمثله ، بل ألحقه بطبل ضخم من البرونز بلغ من الثقل ماجعل نقله الى ايمار ، ومنها الى حلب ، من الصعوبة بمكان.

جـ ـ الميثولوجيا السورية : نرى ، بصورة خاصة ، ادو اله حلب ، وقد ارسل قواته الى مملكة ماري عندما انتصر زمري ليم على عدوه واستولى على الحكم، والتي لابد أن تكون قد استخدمت ، بصورة أو باخرى ، عند تنصيب ملك ماري الجديد .

وسيرى زمري‌ليم ، في نهاية عهده ، أدو اله حلب يذكره بهذه اللحظة المميزة . وما قاله له آنذاك ذو أهمية في تاريخ الادب والفكر السوري القديم . اذ يتحدث الاله عن قوات ارسلها الى ماري عند تنصيبه ، وأنها هي الذي اتاحت له الانتصار على اله البحر فهناك رسالة وجدت في ماري قادمة من حلب ، تشهد قبل خمسة قرون على الشعر الاوجاريتي العظيم الخاص بمعركة بين بعل ويم ، اله البحر .

تسمح لنا ماري بالحديث اذن ، ليس عن حلب وحسب بصورة دقيقة ، وقبل أن نجد الوثائق (الحلبية) التي ما تزال ترقد في التل القديم ، أينما كان ، بل تبين جيدا الموقف التاريخي وتأصل مجموعة كاملة من الملامح السورية الخالصة ، غير الرافدية ، والتي نلاحظ وجودها في أوجاريت في عصر حديث نسبيا ، ولكنه يعود الى زمان أكثر بعدا منها بكثير .

رسائل جديدة عن تاريخ حلب وشمال سورية
(في القرن ١٨ ق٠م)

د. فيصل عبد الله
ج . دمشق

منذ العثور على محفوظات ماري في الاربعينات من هذا القرن ، ونشر معظم الرسائل والنصوص في سلسلة تحمل اسم المدينة ، ظهر اسم مدينة حلب (حلب Halab) وأسماء عدد من ملوكها وكبار موظفيها . وقد أتاحت معلومات هذه النصوص تكوين فكرة هامة عن تاريخ مدينة حلب ومملكتها التي عرفت باسم يمحض Yamhad

وقبيل نشر المجلد الثالث والعشرين من محفوظات ماري عام ١٩٨٤ ، كانت معظم معلوماتنا عن حلب يشوبها بعض الغموض ويدور حولها كثير من النقاش ، وخاصة ما يتعلق بهوية سومو ايبوخ ملكها الاول ، وقصة الزواج الملكي بين زمري ليم وابنة ملك حلب ياريم ليم ، شيبتو . وقد شك بعض العلماء بامكان لجوء زمري ليم الى قصر ياريم ليم فيحلب واتمام الزواج هناك، ومن ثم التحضير لحملة عسكرية ضد الاشوريين لاستعادة ماري منهم وتتويج زمري ليم من جديد على عرش أبيه يخدون ليم الضائع. بعد نشر المجلد الثالث والعشرين من سلسلة محفوظات ماري(١) (ARM) ثم **المجلدين الرابع والعشرين** والخامس والعشرين ، ثم السادس والعشرين بجزئين كبيرين ، حتى عام ١٩٨٨ ، وخلال السنوات الخمس الاخيرة ، تغيرت معظم الافكار السابقة السائدة حول نشوء مملكة يمحض ، وعلاقاتها بمملكة ماري، وخاصة فيما يتعلقبقضية الزواج السياسي بين ملك ماري زمري ليم وابنة ملك حلب آنفة الذكر .

هذه المجموعة الجديدة التي ننشر ترجمة لها من الاكادية ـ المارية مستعينين بترجمة جان ماري دوران في الجزء الاول من المجلد السادس والعشرين(٢) ، لا تشكل

---

* اعد هذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ـ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ـ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ ـ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

الا جزءا يسيرا من تاريخ حلب . وقد اخترناها لانها تتناول أهم القضايا التي كانت غامضة ، وهي الزواج السياسي بين العائلتين المالكتين في ماري وحلب .

تشكل هذه الرسائل بمجموعها ــ وعددها سبع ــ كلا منسجما . وسنرى ونلمس من خلالها ، وبالربط بين معلوماتها ومعلومات أخرى ، مدى أهميتها(٣) . وهي تنسب الى أصقدوم أحد رجالات ماري ، ويتبين منها أنه كان على راس بعثة رسمية من ماري الى حلب . وهو يعالج في رسائله الى ملك ماري موضوع مهمته وتفاصيل مفاوضاته مع القصر الحلبي وطلب يد الاميرة شيبتو .

بدأ أصقدوم بارسال الرسائل باسمه من مدينة حلب . وباسم معاونه على ما يبدو ، وأسمه ريشيبا ، ثم من ايمار عندما تم الاتفاق وتمت مراسيم الزواج ــ بدون حضور الزوج طبعا ــ وبعد ايمار بدأ الموكب رحلة العرس والعودة باتجاه ماري.

صنفت هذه المجموعة من الرسائل من قبل جان ماري ديوران ، مدير الفريق الفرنسي في مركز الابحاث في باريس ، الذي يترجم هذه النصوص وله الحق وحده بنشر الترجمة الاولى من الاكادية ــ المارية الى الفرنسية . وقد استعنا بهذه الترجمة ، ولكن تبقى ترجمتنا مستندة بشكل أساسي على النص الاكادي ، حيث نجد فارقا كبيرا في تركيب النص العربي المترجم عن الاكادية ، مع مثيله المترجم الى الفرنسية. ويلاحظ المختصون أن سبب ذلك هو أن الاكادية والعربية من عائلة لغوية واحدة، ومبدأ تصريف الافعال والاسماء فيهما واحد . الا ان هناك صعوبة واحدة تتعلق بموقع الفعل في الاكادية ، اذ غالبا ما يترك الى اخر الجملة . بحيث تبدأ الجملة الاكادية غالبا بجار ومجرور ، يليه مفعول به ثم الفاعل وصفاته وتنتهي بالفعل أخيرا . وهذا ما يجعل مطابقة الجملة العربية على الاكادية عملية صعبة . ولذا فسيلاحظ القارىء أننا ، عندما نرى الجملة مفهومة ، نؤخر الفعل في العربية كما في الاكادية لنحافظ على حرفية النص وامكان المقارنة . وعندما نجد ذلك متعذرا ، نترك الجملة العربية على طبيعتها .

يمكن تصنيف هذه المجموعة من الرسائل وفق موضوعها كمايلي(٤) :

آ ــ الرسائل المرسلة من حلب وتحمل الارقام :

[A. 2617] 10 : وهذه الرسالة تتعلق بمراسم الزواج التي تمت بعد موافقة الملك ياريم ليم ، وقبل موت الملكة الام سومو نابي .

11 [A. 414] : وتتعلق بزيارة المبعوثين لبلاد يمحض في فتـرة مرض الملكة الام .

12 [A. 3627] : وفيها انباء عن مشاركة البعثة بحل بعض الخلافات في منطقة حلب .

13 [A. 2679] : وموضوعها يتعلق بمكان اقامة العروس، الاميرة شيبتو، في ماري .

14 [A. 547] : أحد مندوبي زمري ليم واسمه ساميتار يعترض على اختيار موعد انطلاق موكب العروس في شدة الحـر والقيظ ، ويقتـرح التريث لانتهـاء الحر وفيضـان الفرات .

15 [M. 5418+M. 906 5] : وصول الموكب بقيادة أصقـدوم وريشيا الى ايمـار (مسكنة حاليا) على الفرات ، حيث يتوقعون وصولهم الى ماري خلال ايام .

16 [A. 973] : وصول شيبتو المتوقع مع أصقدوم الى مناطق متاخمـة لماري تبدأ من زبناتوم ثم ترقان الى صبروم واخيرا الى العاصمة ماري .

وكما ذكرنا فان زمري ليم لم يتزوج من شيبتو الاميرة الحلبية قبل استرجاعه عرش أبيه الذي كان الاشوريون بقيادة شمشي أدد وابنيه يسمخ أدد وأشمي دجـن قد ضموه الى مملكتهم في الفرات الاعلى ، ونصبوا يسمخ أدو بدلا من يخدون ليم والد زمري ليم، الذي قتل اثر تلك الاحداث كما يبدو . ولم يعرف آنذاك مصير زمري ليم، ولا توجد أية معلومات عامة عنه الا بعد عودته الى عرش أبيه وقوله أنه استعاد ممتلكات والـده(٥) .

قبل نشر هذه الرسائل كان جورج دوسان ، أول مترجم لنصوص ماري ، قـد نشـر مجموعة اخرى ، توحي بأن الزواج تـم منذ أجـل بعيـد .. نظـرا لعمـق الصلات التي كانت تبدو في بعض رسائل زمري ليم الى ابيه « حميه » ياريم ليم وكأن هذا الاخير هو الذي كان وراء عودته الى مملكة أبيه ، وأن الزواج كان حصيلة رؤيـة سياسية لتوحيد قوى ماري وحلب في وجه الضغط الاشوري والبابلي على حد سواء. هذه الصورة تغيرت بعد أن ظهر من الرسائل التالية أن الزواج قد تم في ماري ، وأن الملك لم يذهب بنفسه لاجراء مراسم العرس ، بل كلف بعثـة على رأسـها أصقدوم وريشيبا للقيام بالمهمة . وهذا ما نعتبره أقـدم مثل موثق في التاريخ لعمليـة زواج بالوكالة . لقد تزوج زمري ليم بعدد من النسـاء قبل شيبتو وهن غـير معروفات ،

ولكنهن أمهات أميرات ، بنات لزمري ليم ، قام بتزويجهن لعملائه وكبار موظفيه . ولكنه ما ان وصل الى السلطة ، ووطد دعائمها ، حتى توجه الى حلب طالبا الزواج، ولا شك أن ذلك يوفر له سندا قويا من جهة الغرب. لقد تم تقديم هدايا العرس وهي تسمى ترخاتوم « Terhatum » بالاكادية (الطرحة) من قبل المبعوث الرسمي أصقدوم وكان ذلك في نهاية سنة تسمى « كاخات » من سنوات حكم زمري ليم الاولى وهي السنة التي تم فيها توطيد السلطة السياسية في حوض الفرات ، وتقابل السنة الثالثة من حكمه(٦) .

ويبدو من مجموعة رسائل اخرى ، أن أصقدوم هذا أو آخر سيحمل ذات الاسم ، قام برحلة اخرى من ماري الى حلب . ونلاحظ أن الرسالة ذات الرقم (٩) لها أهمية خاصة ، لان مرسلها هو التخصية الثانية المرافقة لأصقدوم ، وهو ريشيبيا ، يبدو فيها وكأنه هو الذي يقود عملية مفاوضات الزواج ، ولكنه يذكر اسم أصقدوم في السطر السادس مشيرا الى أن التعليمات الملكية معطاة اساسا الى الاثنين. كما يرد أسم احد كبار موظفي القصر ، لا شك انه الوزير شمروم ، نلاحظ من الرسالة ذاتها ، انه هو الذي يستطيع ان يؤثر على نجاح المفاوضات أو فشلها . ونعلم مسبقا أن وزيرا آخر للبلاط(٧) هو طب بلاطي Tab - balati (ربما طيب البلاط أو المؤتمن عليه) ، أي امين سر البلاط ـ ولقب الوظيفة بالاكادية شوط لوم قد ظهر في وثائق ماري المتعلقة بشؤون حلبية . وعلى هذا يبدو أن شمروم الذي يأتي اسمه غالبا من اسم نبات « الشمر » المعروف كان وزيرا قبل هذا الاخير ولربما عاصر الملك الاول لحلب، سومو ايبوخ والد ياريم ليم، وبقي وزيرا في عهد الابن ، كما هي الحال بالنسبة لطب بلاطي الذي لا نعلم عنه شيئا حتى عهد صعود حمورابي الحلبي وخلافته لابيه ياريم ليم(٩). وهنالك ما يدعو للاعتقاد بأن الاثنين قد مارسا سلطة وزارية في البلاط الحلبي جريا على عادة الممالك الامورية في بابل وماري انذاك في تكليف وزيرين بادارة شؤون البلاط(١٠) . ولكن يبدو أن شمروم هو الاقدم في البلاط ، وله الخبرة الكبيرة والقدرة على اقناع الملك الحلبي بتزويج ابنته الى ملك ماري ، ولهذا فان اختيار أصقدوم وريشيبيا له كوسيطين لم يكن عبثا . لان هذا الشيخ-الوزير ، لم يكن ليقبل بالمهمة بلا ثمن ، فذكر أصدقاءه السفراء الماريين بأنه كان قد طلب « وكتب » لملك ماري بأن يرسل له المغنية المسماة كاراناتوم . وقد اختار اللحظة المناسبة للتذكير بذلك ، أي أنه يعلن بشكل خفي « امرأة بامرأة » انتم تريدون شيبتو وأنا أريد كاراناتوم . وهو يعلم بأن ريشيبيا سفير ماري قادر على ذلك ،فقد سبق له أن كان مشرفا على فرقة الغناء في عهد يسمخ أدد .

ويجب القول هنا إن شحروم لا بد أنه قد أسن ، ويبدو ان طب بلاطي قد أصبح الوزير الاول بعده . ويتبين من الرسالة (٩) أن سفراء ماري لا يستطيعون

الحصول على مايريدون مباشرة من الملك الحلبي ، وأن مقابلة الملك والحوار معه مسألة تحتاج لوسيط ، هو الوزير الذي يحتل مرتبة « العارف » بشؤون العائلة الملكية ، ويواكبها أبا عن جد . ولا شك بأن قناعة الوزير تعني أوامر الملك ، ولهذا فان رغبات الوزير هي من رغبات الملك . وهذا ما يدعونا للتأكيد بأن مشروع زواج زمري ليم والاميرة الحلبية لم يكن مشروعا مبيتا ، كما كان يعتقد سابقا، بل جاء نتيجة مفاوضات لا يبدو أنها كانت سهلة . بل أن احداثا أخرى قد دفعت بزمري ليم الى اتخاذ مثل هذه الخطوة لان حلب أصبحت أقوى سلطة سياسية وعسكرية غربي مملكته . وتتلخص هذه الاحداث بتدهور مملكة أعالي الفرات التي كانت بزعامة شمشي أدد وابنيه أنفي الذكر ، وظهور تحالف جديد لا نعرف عنه كثيرا بزعامة زمري ليم في ماري والفرات الاعلى ، وتوطيد السلطة الحلبية في الغرب وبدء توطيد نفوذها في مناطق الفرات القريبة وخاصة ايمار(١١) .

من جهة أخرى فان الملك الحلبي لم يكن على ما يبدو متسرعا أو متلهفا لتزويج ابنته من زمري ليم ، لاعتبارات عدة ، ربما كان أولها كبر المقام الحلبي ، وضرورة التريث ، وكذلك لان « أميرة حلبية » ربما كانت مرغوبة من ملوك آخرين أكثر اهمية . ولهذا نلاحظ أن المبعوثيين الماريين بذلا جهودا كبيرة للحصول على موافقة ياريم ليم على الزواج . فقد تلقى أصقدوم هدايا العريس (ترخاتوم) وحملها على الفور الى القصر بانتظار قبولها . ولم يقبلها الملك الا بعد حين . ولكن قبوله لها كان يعني الموافقة كما سنرى .

لقد استطاع جان ماري ديوران أن يقدر زمن انطلاق المهمة المارية الى حلب بين ١٥ كانون الاول و ١٥ كانون الثاني ، قبيل اشتداد البرودة في المنطقة ، وفي فترة مناسبة للملاحة في حوض الفرات أيضا ، لان ارتفاع مياه الفرات يبلغ مداه في تشرين الثاني وكانون الاول(١٢) بنتيجة أمطار الخريف . كما لاحظ دوران غياب أصقدوم في سجل الاعمال الادارية في ماري لمدة تقدر بأربعة أشهر . وهذا يعني ان رحلة العودة تتطابق مع وصف الرسالة١٤ ، من أنه يجب انتظار زوال فترة الحر والقيظ . أي أن العودة كانت في بداية شهر أيلول . وهذا يعني أن الرحلة باتجاه ماري بصحبة العروس قد بدأت في هذه الفترة تقريبا ، وأن رحلة البعثة بما فيها الاقامة في حلب وزيارة مواقعها القوية كما سنرى قد استغرقت قرابة تسعة أشهر . ولكن التاريخ المحدد لوصول العروس او الملكة الجديدة لماري لم يظهر بشكل دقيق ، وفي أقرب تقدير أنه تم في السنة الثانية من حكم زمري ليم ، وفي بدايتها على الاغلب .

١ ـ الرسالة [A. 984] 9 : الوصول الى حلب وبدء مفاوضات الزواج :

ريشيبيا ، يكتب الى مولاه (زمري ليم) . ان موكب الرحلة قد وصل بسلام الى حلب ، وسر الملك (الحلبي ياريم ليم) بذلك . قام ريشيبيا وأصقدوم بعرض الموضوع ـ وهو طلب يد الاميرة شيبتو ـ على وزير البلاط شمروم . الذي قام بدوره بشرح الامر امام ياريم ليم . يذكر شمروم ـ بهذه المناسبة ـ ملك ماري بأنه كان قدطلب منه ارسال المغنية كاراناتوم . ولذا فان مندوبي ماري يحثان مولاهما على ارسالها بسرعة كي يضمنا قيام شمروم بانجاح عملية مفاوضات الزواج : وهذا هو نص الرسالة .

قل الى مولاي
هكذا (تحدث) ريشيبيا ،
خادمك :
موكب (حملة) مولاي ، سالمة ،
وصلت ، والملك كان مسرورا جدا.
الأوامر ، لأصقدوم
وإلي بالذات ، التي وجهها مولاي،
قد عرضت أمام شمروم .
اوامر مولاي ..
قد اثلجت (صدر) شمروم .
وموضوعنا ، امام الملك ياريم ليم
بالذات ، سيعرضه شمروم،
(ويفصل له) موضوع اوامر مولانا.
ويشير علينا بما يلزم
شمروم أمام الملك ،
شارحاً (بالتفصيل) .
ثانيا ؛ شمروم ،
قال لنا ما يلي :
« ما لمولاي ، والمغنية
التي كتبت له عنها، لم يرسلها!»
الآن ، يوم ، اللوحة(الرسالة)هذه
يسمعها مولاي ،
المغنية كاراناتوم
على بغل لياسيم داجان
أو لآخرين
ليركبوها ،
وفي اليوم التالي
لوصول لوحتي (رسالتي) هذه .
فلتغادر ، لتصل بسرعة .
هذا لكي :
يتمكن شمروم من
عرض الموضوع أمام
الملك .
كي تصل هذه المغنية ،
ليبذل مولاي كل جهده ..

٢ ـ الرسالة [A. 2617] 10 : تعثر المفاوضات بسبب مرض الملكة الام سوموناپي :

مندوبا زمري ليم ، اصقدوم وريشيبيا ، يكتبان من حلب الى مولاهما . لقد قدما هدايا العرس الى الملك ياريم ليم وقبلها ، وهذا يعني الموافقة . ولكنه اخطرهما بأن والدته مريضة ويخشى من حدوث ماتم ، ولهذا سارعا بوضع الحجاب على رأس

العروس وهو رمز اعلانها زوجة (وضع الاكليل) . وانتظرا ليعطي الملك اوامره باصطحابها الى ماري ، ولكن الملك اقترح عليهم أن يذهبوا برحلة « سياحية » الى مملكته . ولكن المندوبين قد احتجا على هذا التصرف ، لانهما يعتبران الملكة الام سومونابي مولاتهما وانهما لا يقبلان الانصراف . ويبدو ان الملكة توفيت في هذه الاثناء، ولذا فانهما يطلبان مجلسا محترما في مراسم التأبين مع خدم ابن الملك ياريم ليم . لقد قاما بايصال رغبتهما عن طريق « طب بلاطي » الوزير الثاني . ولكن الملك رد بانزعاج قائلا : قلت لكم اذهبوا . .

قل لمولانا ما يلي :
هكذا تحدث أصقدوم
ريشييا
خادماكَ :
ياريم ـــ ليم
احاطنا علماً بالموضوع كمايلي:
لقد أحضرتم المقدم ـــ ببلوم
ولكن أمي مريضة
واخشى من حدوث مأتم
في قصري
وقربت أيامكم (يوم رحيلكم) .
ولهذا وبسرعة
قد سلمنا المقدم ـــ ببلوم
الذي حمّلتنا إياه مولانا .
ووضعنا الحجاب على رأس العروس
وبعد ثلاثة أيام
من تقديمنا المقدم ـــ ببلوم
فان سومونابي
قد لاقت مصيرها .
الملك ياريم ليم
بواسطة طب بلاطي ،
قد احاطنا علماً كما يلي :
اذهبوا ، فمدني القوية
وقصوري ، شاهدوها ، كلها .
نحن
تساءلنا
وكتبنا للملك ما يلي :
« لماذا بعث لنا مولانا
هذه الاسطر :
« هذه مدني القوية ، وقصوري
شاهدوها كلها ! »
هذا ما كان جوابنا
ثم كتبنا له ما يلي :
أليست السيدة سومونابي
مولاتنا ! إذا لم يكن
لنا مقعدنا بجانب مولانا
فإن هذا الأمر سيسمع في ماري!
وزيادة على ذلك مجلس خدم
ابنك معنا
الى هنا ، لا جواب !
وهو قد اكتفى بإعادة خدمه قائلين:
« الم تروا بلادي . . »
اذهبوا !. قلت
....
....
....
....
....
....
....

....
في قصر مولانا
55 ومـن ممتلكاتـه ، ٢٠ نمريقاً أو
مزهرية مذهبة

ليرسلها لنا . لتودع في النهاية
في قن (أو مستودع)
مولانا .

٣ ـ الرسالة [A. 414] 11 : زيارة سياحية في بلاد يمحاض :

يبدو أن مندوبي ماري قد أجبرا على القيام برحلة « سياحية » في مناطق حلب ريثما تنتهي أيام الحزن بعد وفاة الملكة الام سومونابي . فان ريشيبيا وأصقدوم يكتبان لمولاهما في ماري بعد عودتهما واتمام مراسم دفن سومو نابي ، وقد اجتمع عمـلاء وتابعوا الملك ياريم ليم اثر ذلك ، فكان مسرورا جدا. وبعد ذلك يذكران لمولاهماالهدايا التي قدماها للقصر الملكي .

الى مولانا
قل ما يلي :
٢ هكذا تكلم أصقدوم
٤ وريشيبيا
خادماك
٦ كما أن « الملكة » سو نابي
قد ماتت ، فإن ياريم ليم
٨ قد قال لنا ما يلي :
« ريثما ينتهي هذا المأتم
١٠ اذهبوا الى وسط (لب) بلادي
وشاهدوها » . خمسة عشر يوما
١٢ في أوساط بلاده
ونحن نتجول
١٤ ثم عدنا
ومنذ أن عدنا فإن الخرفان الاولى
١٦ أضحية البنت (بنت ياريم ليم)
المتبقيـة
١٨ وكذلك ما تبقى من خرفان
كانت لدي ،
٢٠ قد قمت بتحضيرها .

خاتم واحد من الذهب (وزنه)
٦ وزنات (ثقل) .
٢٢ ثوب واحد (ساكوم) وثـوب
قماش « نـوع أول » ٥ أثواب
قماشية خشـنة نوع ٢ واحـد
وعشرون ثوب عادي
٢٤ ومائتا خروف (تيشاني) .
وخرفان « بألية » أو طيور
٢٦ الى ياريم ليم .
ثوب واحـد رقيق ، وشكلتـان
ذهبيتان وزنهما (ثقلان) .
٢٨ وشكلتان ذهبيتان بثقل واحد
وعشرون خروفـا الى السـيدة
جاشيرا
٣٠ ثوب واحد من نوع (مراتو) واربع
شكلات ذهبيات بثقلين ،
الى البنت شيبتو
٣٢ الهدايا الاولى وكذلك
الثانية ، قد وفت (بالأمر) .
٣٤ ياريم ليم ،

وجهه كان مشرقا جدا .
٣٦ وقال
هدایاك التي أمامي ماذا أعمل بها؟
حتى الآن الملوك لم يكونوا هنا
٣٨ اما الان
فان حكام البلاد قد اجتمعوا
اجتمعوا كلهم

٤٠ من اجل هذا فان ياريم ليم
كان مسرورا جدا
وبعد الاضحى (خيارى)
٤٢ وألح على ذلك
وبسرعة سنغادر
فالأمر قد تم .

٤ ـ الرسالة [A. 3627] 12 : **مندوبا ماري يشاركان بحل خلاف في يمحاض :**

يبدو أن ياريم ليم قد طلب من مندوبي ماري أصقدوم وريشيبيا المساهمة في حل خلاف بين بعض الجهات التابعة للملك الحلبي . ولكن موضوع الخلاف غير واضح :

الى مولانــا
قل :
هكذا تكلم أصقدوم
رريشيبيا :
٥ خدُماك :
فيما يتعلق بقافلة مولانا
. . . .
. . . .
هكذا ل . . .
٢ قد ردوا بهذا الكلام علــى أمراء
زلمــاكو
لنذهب
ولنبعث بأمرائنا أو شيوخنا
كي يتناقشوا معكم ، حينئذ قال

ياريم ليم :
٦ مع مبعوثيهم قد أرسلت مبعوثين
لي مع أوامري التالية :
٨ « يجب ان يصل مبعوثون منهم
على الاقل ، أثناء اقامتكم » .
ولكن هؤلاء الامراء لم يصلوا
١٠ بل أرسلوا شيوخهم
وعادوا ، وقالوا ذات الشيء .
١٢ كيف يحصل أن اتلقى كلاما
لا معنى له ، في بيته »
١٤ والآن فإن مبعوثي ياريم ليم
لم يعودوا حتى الآن .
١٦ ولهذا فإن تقريرا كاملا
لم نرسله حتى الآن الى مولانا

٥ ـ الرسالة [A. 2679] 13 : **مكان اقامة العروس :**

نلاحظ أن الملك الحلبي ياريم ليم مهتم جدا بمكان اقامة ابنته بعد أن وافق على زواجها من ملك ماري. وهو يسأل عن الموضوع فيجيبه المندوب أصقدوم بأن بيتهــا سيكون جميلا . ولكن هذا ليس كافيا ويسارع بالكتابة الى مولاه ملك ماري زمري ليم

طالبا منه أن يختار بيتا او قصرا مناسبا للملكة الجديدة ، لان مرافقي العروس الحلبية سيكتبون تقريرا الى مولاهم بعد عودتهم . ويظهر من هذه الرسالة ، أن الملك ياريم ليم يطلب أن تقيم مع زوجها تحت سقف واحد .ولكنه يشير الى امكان تركها المكان لبضعة أيام في الشهر . وفي ذلك اشارة الى تقليد اجتماعي بأن تبتعد المرأة عن زوجها أثناء الدورة الشهرية :

الى مولاي
٢ قل :
هكذا تكلم أصقدوم
٤ خادمك :
ياريم ليم
٦ قد أحاطني علما بما يلي :
غالبا ما سمعت
٨ ان آلهة القصر
(حاضرة) قوية
١٠ فأين ستوضع
اغراض ابنتي !
١٢ أجبته بيت ابنتك
سيكون جميلا !
١٤ فقال : أغراض ابنتي
لتوضع في بيتها .
١٦ ولتعش ابنتي مع زوجها ،
ومن خمسة الى ستة أيام
١٨ لتترك قصرها
للعدة (مدة الدورة الشهرية) .
٢٠ والآن ، ليأمر مولاي
ويختار بيتا لابنته (لابنة
ياريم ليم) .
٢٢ ولينسقه (ينظمه)
كيما ، خدمه
٢٤ الذين سيأتون معي
يرونه ، والى مولاهم
٢٦ يرفعون تقريرا
والآن ما سمعته من فم ياريم ليم .
٢٨ الى مولاي
قد كتبته ، فليتفكر مولاي
٣٠ بمسكن البنت هذه
لنستقر على خيار
٣٢ ثانيا ، والآن . . .
....
٣٤ ....
....
٣٦ ....
....
٤٠ . . لنعد . . . .
فيما يتعلق بالحمالين(للكراسي)
٤٢ الذين كتبت له عنهم
ليرسلهم لي مولاي
٤٤ كيما ، وقبل سفري ،
اتمكن من ترتيب هذا البيت .

٦ ـ الرسالة [A. 547] 14 : حالة الطقس وموعد رحلة موكب العرس :

الطقس والاحوال الجوية لم تتغير بشكل ملحوظ منذ تاريخ كتابة هذه الرسائل حتى يومنا هذا والزمن هو حوالي ٤ الاف سنة !. والمعروف أن مناخ المنطقة مستقر

منذ أكثر من ١٠ الاف سنةاي من بداية العصر الحجري الحديث. موضوع هذه الرسالة ما هو الوقت المناسب للقيام برحلة العرس الى ماري انطلاقا من حلب ، الخلاصة أن ايلول ، أو بداية الربيع هما الوقت المناسب . وهو ما نعرفه اليوم عن حالة الطقس في المنطقة :

كثير من النساء سيواكبن العروس من حلب ولذا يجب اتخاذ اجراءات مناسبة فهن رقيقات كما تصف الرسالة :

الى مولاي
٢ قل (ما يلي) :
هكذا تكلم مساميتار
٤ خادمك
فيما يتعلق بالموكب الذي
سيقوده أصقدوم
٦ ويؤمن سلامة مولاتي .
سمعت أن كثيرا من النساء
٨ سيذهبن مع مولاتي ،
والنساء اللواتي سيذهبن هن
ناعمات
١٠ والطريق هذه ، مدبرة ، وقفراء،
وما من أحد يرتحل في مثل هذه
الايام .
١٢ انها ايام خطرة .
واخشى ، بسبب العطش
١٤ أن تتضرر نفوس أو
اي شيء اخر .
١٦ مما سيندم عليه
مولاي . في هذا الشهر
١٨ ما من احد يسلك هذا الدرب
ففي الربيع او الخريف
٢٠ تسلك هذه الدرب .
الدرب في هذا الشهر ليست
٢٢ سالكة . هذا الشهر
بعد خمسة ايام سينتهي
٢٤ وفي الشهر القادم وفي ايجي كور،
في اليوم العاشر اذا لم يكن في اليوم
الخامس
٢٦ فالايام ستبرد ، والفرات
سيبدأ فيضانه ، والرحلة مناسبة
٢٨ « نص مهشم »
....
٣٠ ....
....
٣٢ ....
....
٣٤ ....
....
٣٥ ....
كخادم
٣٦ الى مولاي
قد كتبت
٣٨ وليتساءل مولاي (ويتفكر)
وليتصرف بسلطانه !

٧ ـ الرسالة [M.5418+M. 9065] 15 :

هنا نجد وصفا لمسار الرحلة بعد أن وصلت ايمار وغادرتها وأصبحت على مشارف ماري ، والمندوبان يكتبان الى مولاهما سائلين التوجيه فيما يتعلق بمبيت الملكة العروس ، قبل وصولها ماري بأيام :

الى مولانا
٢ قل ما يلي :
هكذا تكلم اصقدوم
٤ وريشيبيا
خادماك
٦ هذا الرَقم (الرسالة) من ايمار
ارسلناها الى مولانا ، في اليوم
العاشر
٨ وسنصل ماري بعد تسعة ايام!
٢ آ .. كيما يرى ويصطحب اخوته.
ثانيا أوامر مولانا
٤ آ لتصدر لنا ، فيما اذا كانت
البنت (العروس) ستطلع
٦ آ الى دور يهدوليم او
الى مدينة ساجاراتيم
٨ آ الى قصر ترقا أو اي قصر
اخر . .
ساع ، أو مراسل سريع
١٠ آ يجب ان يصل
١٢ آ إلينا بسرعة
كي نتدبر الامر .

٨ ـ الرسالة [A. 973] 16 : الموكب على مشارف ماري :

احد عاملي زمري ليم الذي حضر لاستقبالها في دور يخدون ليم يكتب عن وصولها وعن تحضير الطعام لها ولمرافقيها . وهنا نجد وصفا لمسير الرحلة عبر القرى على طريق ماري :

الى مولاي قل ما يلي :
٢ هكذا تكلم سومو خادو
خادمك
٤ هذا الرقم من دوريهدوليم
قد ارسلته الى مولاي
٦ في هذا اليوم ، مولاتي
الى دور يهدوليم ، مساء
٨ ستصل
فقد كتب الى أصقدوم :
١٠ وجبة طعام لمولاتنا
وجماعة العرس ، أحضرها من
١٢ دور يخدوليم ، الى تيلازيبوم
وبما أنني لم أوافق
١٤ فقد ادخلت مولاتي
الى دور يخدوليم
١٦ الركب
في «مدينة» جانيباتوم
١٨ قد انتظر

وبما أن ، شاتمنى في مدينةخوران
٢٠ فقد خشيت
من بني يمين ولم ارسلهم
٢٢ الى جانيبا توم
انطلاقا من خوران . الركب
٢٤ سيركب .يوم في يخدوليم
ستبيت ، ويومها الثاني
٢٦ في ريبناتوم ، وفي ثالث
يوم في ترقا
٢٨ وفي اليوم الرابع
الى صبروم ستصل
٣٠ وستبيت في صبروم
وستنهض في اليوم الخامس
٣٢ حيث ستدخل الى ماري
في الظلام .و.هكذا..!
..(تهشيم) ..

٩ ـ العودة الى ماري :

طريق العودة الى ماري ، يجب أن يمر من ايمار (مسكنة) . ولا توجد لدينا رسائل عن الطريق الا بدءا من هذه المدينة وهي رسالة واحدة ، ورسالتان من قبل سومو خدو ومساميتار . نلاحظ ان الوصول الى ماري عن طريق دور يخدون ليم ثم ساجارانوم أو عن طريق ترقا . ويبدو أن اختيار الطريق يتعلق بوجود خطر البدو ، بني يمين .

وتذكر الرسائل ان الموكب فيه المرافقون والمرافقات ، ومنهم من سيتولى كتابة تقرير للملك الحلبي عن الرحلة وعن أوضاع العروس بعد استقرارها ، وفيه الوصيفات الرقيقات كما تقدم . ولكن للاسف لا توجد تفاصيل أكثر عن تركيب مجموعة موكب هذا العرس التاريخي ! الذي مضى عليه قرابة ٤ الاف سنة وهو من اقدم الامثلة على الاطلاق .

١٠ ـ مراسم الزواج الحلبي والسوري عامة :

لدينا مجموعة وثائق مسمارية تعطي فكرة هامة عن مراسم الزواج في سورية خلال مطلع الالف الثاني ، وخاصة في عصر ماري أي القرن الثامن عشر ق.م ، والمثال الاول الذي تقدمه الوثائق هو زواج يسمخ ادو بن شمشي ادو ملك اشور من ابنة ملك قطنا « بلتوم » Béltum ، وكذلك فان معظم بنات زمري ليم اللواتي تزوجن فيما بعد قدمن مثلا على طرائق الزواج . فلقد أصبح واضحا ان الكلمة الاكادية نديتوم Niditum تعني مجموعة الهدايا التي يقدمها الاهل لابنتهم وقد ترجمها دوران (ن ARM 2611 p.99.) ب (dot) وهي البائنة او المهر بالمفهوم الحديث في مجتمع سورية اليوم . ومما يلاحظ ان النديتوم ذاتها تعطى للبنت التي تترهب وتصبح قديسة . ولقد أصبح هذا الجذر اللغوي (ndn ،ندن) يدخل في تركيب اسماء العلم المقدسة.

والمعنى الاساس لهذا الفعل هو « أعطى » وعندما يدخل في تركيب الاسماء يصبح « عطا » وعطاء ، وهو تركيب معروف في أسماء العلم المعاصرة .

في هذه النصوص لا نجد ما يدل على النديتوم المعطاة لشيبتو ، بل معلومات عن الـ «ترخاتوم» كما هو وارد في النص : ARM T XXV 616 = M.5647 ، الذي يبدأ بتسجيل المواد وفي الختام يذكر في السطر (٦٢) وما يليه ان ما تقدم هو : «ترخاتوم الى بنت ياريم ليم ، التي أخذها معه الى حلب ، أصقدوم (بتاريخ) شهر (d)min-biri سنة استيلاء زمري ليم على (مدينة) كاخات » . يفهم من هذا ان ترخاتوم هي الهدايا التي يقدمها العريس الى العروس.

أما المواد المذكورة في النص آنف الذكر فهي : أساور وأحجار كريمة مذهبة ، وسبحات وحلق. والجدير بالذكر أن كل حلية مسجلة يذكر الى جانبها وزنها وسعرها! فنجد ذكراً لاربع أساور وعدد من المجوهرات متواضعة القيمة الى جانب مزهرية ذات قيمة ملحوظة . ولا يوجد ذكر لاثاث منزلي وانما لكثير من الثياب . وللاسف ان الرقم الفخاري هذا مهشم في قسم منه ولا يسمح بمعرفة قيمة الترخاتوم تماما . وفي أمثلة اخرى نجد ذكرا لعدد وفير من المواشي في زواج ابن ملك قطنا . ويمكن القول ان ثروة زمري ليم كانت اقل من مثيله يسمخ أدو بالمقارنة بين ما قدمه كل منهما كترخاتوم(١٢) .

عندما يقدم أصقدوم هذا الترخاتوم ــ هديا العريس ــ لا نجده يذكرها بهذا الاسم . بل نجد في النص (١١) كلمة « mu - tù » وهي « تقدمه » وقد تمت عمليتان من هذا النوع كما لاحظنا ، واحدة قبل مأتم الملكة الام والثانية بعد العودة من الجولة « السياحية » . وكما نلاحظ أن هذه التقدمات تشمل العائلة وليس العروس فقط ، فهي اخر من تلقى التقدمة في النص المذكور . ولربما أن الترخاتوم هي الدفعة الاولى التي ذكرناها وكذلك مجموعة التقدمات تحت اسم بيلوم Biblum في النص [10 [A. 2617 . هذه الكلمة تعني باللهجة البابلية « هدية العرس » وهي مذكورة في قانون حمورابي وهي غير معروفة في ماري كما يذكر دوران (ن. دوران ١٠٢).

وعندما قبل ياريم ليم ان يقدم اليه البيبلوم ، فهذا يعني أنه وافق على الزواج وانتهت مرحلة المفاوضات ، ونلاحظ تعبيره الخاص ادخلوا البيبلوم ! وعلى العكس يكون رفضه عدم الموافقة . هذا من العادات والتقاليد التي ما تزال معروفة ، ونلاحظ من جهة اخرى ان قبول الهدايا السياسية أو رفضها يعني كذلك قبولا أو رفضا لعروض الزائر السياسي .

أما ما يتعلق بحجاب العروس ، فاننا لاحظنا بأن المندوبين قد سارعوا الى وضعه على رأس شيبتو بعد دخول البيبلوم وقبول الاب له . وما ان يوضع غطاء الرأس Kitti mum (من كتم) حتى تصبح العروس ملكا لعريسها تخضع لطاعته . وطالما أن العريس غير موجود ، فالوكلاء يحلون محله . هذا وضع زمري ليم الذي لم يكن قادرا على ما يبدو على القدوم الى حلب لانشغاله ، عسكريا وسياسيا **وعلى هذا يعتبر زواج زمري ليم وشيبتو ، حتى الان ، اقدم مثل على الزواج بالوكالة في التاريخ اطلاقا .**

من جهة اخرى ، فان العاهرات المقدسات لا يحق لهن وضع غطاء على الرأس ! (انظر المكان نفسه ص ١٠٣) وكذلك العبدات .

واذا كانت علامة الزواج هي وضع الغطاء ، فان **علامة الطلاق** هي أن يقدم الزوج على تمزيق طرف رداء الزوجة بحضور شهود . كما ان العصمة يمكن أن تكون بيد المرأة ولها ان تطلب الطلاق . ولدينا بعض الامثلة : فاحدى بنات زمري ليم تكتب لابيها ان يأتي لاحضارها ، فهي لم تعد تريد أن تعيش مع زوجها . ونجد في بعض الامثلة البابلية ان المرأة تستطيع ان تقول لزوجها « أنت طالق »(انظر ديوران نفسه ص ١٠٤).

١١ ـ المسكن الشرعي ومشكلة الدورة الشهرية :

تبرز مسألة السكن الشرعي للزوجة في الرسالة (١٣) ويتيح لنا النص فهم بعض العادات الاجتماعية على المستوى الملكي على الاقل . نلاحظ أن المشكلة تبدأ عندما يطرح ياريم‌ليم السؤال أين ستسكن ابنتي طالما ان « الحضور الالهي » أو المقدس عظيم في قصر ماري ! وكان جواب أصقدوم ، بيت ابنتك سيكون على مايرام .. وهذا يعني احتمالين : هل سيكون لشيبتو بيت مستقل خاص ، أم أنها ستعيش في (شقة) من القصر الكبير .

يقول ياريم‌ليم في الرسالة السابقة : انه سيكون لابنته بيتها الخاص ، ولكن يجب أن تعيش مع زوجها « تحت سقف واحد » وهنا السؤال أين سيكون بيتها الحقيقي.

اذا اخذنا بنظر الاعتبار أن المرأة في المخاض تعد غير طاهرة من وجهة النظر الدينية اذ لا يحق لها ممارسة الطقوس ، وكذلك الامتناع عن الزوج . فاننا نستطيع أن نفهم ان العادة الحلبية أو السورية تقضي بان تسكن الزوجة مع زوجها ـ تحت سقف واحد ـ ولكن في طور العادة الشهرية يمكن ان تتركه لبضعة ايام كما جاء على لسان ياريم ليم ، على اعتبار ان القصر حكمه حكم المعبد ، فعلى الزوجة مغادرته في طور عدم

الطهارة . ولنلاحظ ايضا أن العادات البابلية والمارية السابقة والمسجلة في النصوص توحي بان بسض الزوجات لهن بيوتهن الخاصة خارج القصر من جهة اخرى فان الرجل عندما يكون غير طاهر تنطبق عليه محرمة عدم الدخول الى المعبد . (انظر دوران نفسه ص ١٠٥) .

اللغة العربية في هذه الرسائل :

ان الاكادية هي أقدم لغات العائلة اللغوية القديمة والحديثة في الوطن العربي كما هو معروف ولهجة ماري هي اكادية متوسطة بين لهجة بابل والغرب ــ حلب ــ اوجاريت ــ تل العمارنة . وتركيب الجملة الاكادية يختلف عن مثيلتها العربية في موقع الفعل ، في آخر الجملة لا أولها . إلا أن جميع حركات الاعراب واحدة ، وكذلك تصريف الافعال والاسماء الى حد ما . يضاف الى ذلك الضمائر الشخصية وغيرها . ولنأخذ رسالة واحدة فقط ونقارن بعض كلماتها بالعربية :

بعلي ، سيدي . مولاي beli-ia .

سليمة . (جذر الفعل سلم وبالاكادية شلم) salmam .

نلاحظ أن حرف ù يقابل واو العطف العربية وهي ذاتها بالاكادية .

جذر الفعل الاكادي هو : ù-wa-i-ra-an-né-ti (ور (waru).
ويفيد معنى : أصدر امرا . أو أمَرَ ، وعندما نعلم أن الواو الاكادية أصلها (م) في كثير من الكلمات لذا نجد أن moru تردفي كثير من النصوص الاكادية المتأخرة . أما Warutm فهي مشتقة من الجذر ذاته والتاء للتأنيث . والكلمة هنا تفيد معنى الاوامر أو أمرة . (ن. سطر ٩٤٧).

شمرا اسم نبات . (سطر ٨)	Simru
سكن . بالاكادية « شكن » سطر ٩	ni-is-ku-un-ma
سبت ، وثبت . سطر ١٢ ..الخ	Sa-bé-it
ثانية ، ثانيا	sa-ni-tam
شور . اشار . سطر ١٤	i-sa-ri-is

كما ، كيما . سطر ١٨	ki-a-am
ما ، مما . أما . سطر ١٩	mi-nu-um
أستفر (سِفرٌ) بمعنى ، أكتبُ ص ٢٠ .	as-ta-ap-pa-ru-ma
ليركبونها . . ركب . سطر ٢٦	Li-sa-ar-ki-bu-ni-is-si-ma
يوم . سطر ٢٧	uma - am

هذه هي الكلمات التي يمكن مقارنتها بسهولة بالعربية ، في الرسالة الاولى فقط. وليست غايتنا هنا تقديم دراسة لغوية مقارنة بين العربية والاكادية ، فالامر يحتاج الى صفحات . ولكن اظهار مدى **القرابة اللغوية بين هذه الرسائل التي كتبت منذ اربعة آلاف سنة وبين اللغة التي نتكلمها وتكتب بها** . وتجدر الاشارة هنا الى أن كثيرا من الكلمات والصيغ المنطوقة في الدارجة ، نجدها مكتوبة في كثير من الحالات في الرسائل الاكادية .

خاتمة :

ان هدف ترجمة مثل هذه الرسائل من اللغة الاكادية الى اللغة العربية يرمي الى مجموعة من الاهداف والفوائد :

١ ـ ان العامل اللغوي قوي جدا ، ويثبت مدى بقاء اللغة الاكادية في أختها العربية عبر آلاف السنين ، ونحن نعلم مدى أهمية العامل اللغوي في تكوين حضارة شعب ما . ولهذا نجد أن الاكادية تقدم لنا اقدم أمثلة على لغة أم للعربية ، وغيرها من العائلة القديمة . **ان دراسة اللغة العربية وتاريخها ، لا يمكن باي حال من الاحوال ، أن يتوقف عند ظهور أول نص مكتوب بالحرف العربي المعروف اليوم ، بل ان دراسة اللغة العربية وتاريخها يمتد عبر خمسة آلاف سنة ، فتقدم لنا النصوص الاكاديةأمثلة حية على اللغة الام للعربية وهي الاكادية بلهجاتها المختلفة .**

٢ ـ برغم أصالة العامل اللغوي وأهميته في حضارات العرب القديمة، فان عامل تكوين شخصية الفرد والمجتمع ونمط عيشه وتفكيره تعد من العوامل الهامة في تكون حضارة شعب ما . وفي عملية البحث عن جذور العادات والتقاليد ، وجذور العلوم والابحاث وانماط التفكير ، نجد أن مثل هذه النصوص ـ وقد بلغت أكثر من مليون

لص ــ تقدم لنا أقدم مثل على أنماط عيشنا اليوم وتفكيرنا وطقوسنا . **وشاهدنا على ذلك الحجاب الذي قرانا عنه في احدى هذه الرسائل ، والمسكن الشرعي للمرأة المتزوجة ، وطقوس الطهارة والنجاسة وسيادة قانون الاب في المجتمع الخ..**

٣ ــ نريد أن نقول ان الانسان مـع المحيط يشكلان وحدة قادرة على الثبـات والاستمرار مثل عامل اللغة . فاللغة تخضع لعامل النطق وعامل النطق بتغير مـع الزمن ، وتفقد اللغة من وحدانيتها عندما تتوزع على مساحة جغرافية واسعة . ولكن الانسان والمحيط وما يخلفانه من عادات وأعراف وقوانين تساعد على فهم أكثر للترابط والتواصـل بين حضارات الماضي وحضارة اليـوم . **نريد أن نقول ان أي انقطـاع** حضاري لم يحدث منذ ٥ الاف سنة حيث ظهر أول كلام سومري ــ واكادي مكتوب، **حتى يومنا الحاضر رغم التغيرات في أسماء القبائل والشعوب ، ولهجاتها المتعـددة فالانسان والحضارة موجودان بشكل مستمر ولا تشكل الحدود الجغرافية لقبيلة او شعب أي حاجز بينها وبين حضارة العرب القديمة والحديثة .**

* * *

تمكنت من اعداد هذه الدراسة أثناء اقامتي في معهد الدراسات الشرقية في شيكاغو ، ربيع وصيف ١٩٩٠ ، بفضل برنامج التعاون بين جامعتي دمشق وشيكاغو .

الحواشي :

(١) Archives Royales de Mari .

(٢) J. M. Durand, Archives Epistolaires de Mari I/1, ARM XXVI, (erc) Paris 1988.

(٣) حول تاريخ حلب في القرن ١٨ ق.م وجميع المصادر المتعلقة بها حتى عام ١٩٨٥ في موضوع اطروحتي للدكتوراه ، انظر :

F; Abdallah, Le Royaume d'Alep / Yamhad et les villes de Syrie du Nord, 1800-1594 avant. J - C. Université de Paris I (La Sorbonne) 1985 .

(٤) انظر جان ماري دوران ARM 2611 ص ٩٥، فقد نشر مضمون هذه الرسائل في مؤتمر الاشوريات في باريس ، انظر :

F. Abdallah. "La Famme dansrile Royaume d'Alep au XVIIIe. Siécle av. J-C. " dane La Fcmme dans le Proche - Orient antique - XXXIIIe RAI, 1986, pp. 13-15.

(٥) فيما يتعلق بعودة زمري ليم الى عرش ابيه ، انظر :

D. Charpin, J-M. Durand, « La prise du pouvoir par Zimai-Lim» M. A. R. I. 4, p. 336 - 338 .

(٦) ان ترتيب سنوات حكم زمري ليم التي عرفت من خلال تاريخ الرسائل بسنوات واحداث حكمه، يخضع لاعتبارات ودراسات مقارنة ، لمزيد من التفاصيل لابد من الرجوع الى:

J.M - Durand, ARM 26/1, p. 96, note 3.

(٧) انظر حول هذا الموضوع : M. A. R. I. 2, 1983, pp. 219 - 220 ; Durand, ibid

(٨) من اجل هذه المعلومات والوثائق انظر : Durand, ARM 26/I, p. 96 N. 5

(٩) المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع والنصوص ستنشر في المجلد ٢٧ الذي سيصدر بعنوان :

A.E. M1/3, L'Affaire d'Alahtum

(١٠) دوران نفسه سينشر هذه المعلومات في المجلد المشار اليه اعلاه .

(١١) « La Prise du pouvoir ..» , ibid.

(١٢) P. Sanlaville , M.A.R.I. 4, p. 24 .

(١٣) لمزيد من المعلومات انظر :

J. M. Durand (ibid) p. 102-102).

أخبار جديدة عن نفوذ مملكة يمخد (حلب)
في منطقة الخابور

د. فاروق اسماعيل
كلية الاداب ـ جامعة حلب

كانت مملكة يمخد ومركزها مدينة حلب واحدة من أبرز ممالك سورية وبلاد الرافدين في القرن الثامن عشر ق.م . ورد أول ذكر لها في وثائق ماري العائدة الى عهد يخدون ليم (القرن التاسع عشر ق.م) حيث كان يحكمها **سومو ابخ** ، وفي عهده كانت تحاول تشكيل قوة سياسية مناوئة لنفوذ ماري المتزايد ، معتمدة في ذلك على جمع شمل حكام المدن الصغيرة في مناطق الفرات الاعلى ، ولا سيما قبائل 'بني يمينا' ولكنها أخفقت ولم تستطع التأثير في قوة يخدون ليم .

عندما بدات سيادة شمشي أدو الاول على مملكة ماري وما حولها اتخذ سياسة تأليب القوى السياسية الصغيرة المحيطة بيمخد عليها ، ومذاك برز العداء الطويل بين يمخد وقطنا ، ولكن سومو ابخ استطاع برغم ذلك الحفاظ على وحدة مملكته وتأمين سيادتها على منطقتها التي كانت تمتد بين كركميش وتوتول من جهة ، وجبل البشري ومناطق قطنا فمنطقة العاصي من جهة اخرى .

في عهد خلفه **ياريم ليم الاول** قوي الدور السياسي ليمخد في المنطقة ، ولاسيما بعد موت شمشي أدو الاول . اذ استطاع زمري ليم الاول ان يمد نفوذه الى مناطق شرق دجلة ، وان يتولى حماية مدن هناك مثل دير ودينيكتم ، كما تحققت بفضل مساعدته عودة زيمري ليم الفار الى عرش ماري .

في عهد ابنه **حمورابي الاول** استمرت ، في باديء الامر ، العلاقات الودية بين القوى الرئيسة الثلاث يمخد ، ماري ، بابل ، بدليل أنه أرسلت قوات يمخدية الى حمورابي بابل بقيادة زيمري ليم حاكم ماري، ولقيت هناك ترحيبا وتقديرا ،ولكن ذلك لم يدم طويلا ، وكانت ماري ضحية تنامي قوة حمورابي بابل وشعوره بان العالم يجب

* أعد هذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ـ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ـ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ ـ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

ان يخضع له، وكان حمورابي حلب أضعف من ان يواجه ذلك ، ولم يحرك ساكنا عندما دمر حمورابي البابلي ماري (حوالي ١٧٦١ ق.م) بل بدأ التخطيط للتغلغل في مناطق الخابور وسنجار التي كانت تحت سيطرة ماري سابقا .

حتى سنين خلت كانت اخبار منطقتي الخابور وسنجار وعلاقاتهما الخارجية بعد سقوط ماري غير وافية لقلة الشواهد الكتابية واقتصارها على الوثائق المكتشفة في تل الرياح في منطقة سنجار .

لقد تفككت كما يبدو المملكة الموحدة التي أرسى أسسها شمشي أدو الاول الى ممالك مدن صغيرة على شكل مشيخات ، وبرزت بالتالي أطماع القوى الخارجية الكبرى في السيطرة على اجزاء منها ، وتجلى ذلك في حملات حكام أشنونا وعيلام على منطقة الخابور ، وكذلك في بروز النفوذ اليمخدي هناك . وهذا الوضع الجديد ترصده الوثائق الكتابية التي اكتشفت عام ١٩٨٧ في تل ليلان (شخنا / شبت انليل القديمة، مركز مملكة آپوم) . وهي تكشف بوضوح ولاول مرة عن النفوذ اليمخدي الحلبي هناك في عهد ملكها حمورابي الاول .

لقد كانت مملكة آپوم « بلاد القصب » واحدة من أقوى الممالك الصغيرة في منطقة مثلث الخابور الشرقية متاخمة لايدا مرص في القسم الغربي منها ، وبذلك كانت تشكل منطقة ربط جغرافي مع مناطق شرق دجلة وسنجار ، وقد ادرك حاكم يمخد (حلب) أهميتها الجغرافية والسياسية ، واستطاع كسب صداقتها لتحقيق نفوذه في المنطقة. ففي بداية عهد ملكها **موتيا** (منتصف القرن الثامن عشر ق.م) تحقق تعاون كامل بين المملكتين ، وتبادل الملكان الرسل والخدمات . فقد كتب اليه حمورابي طالبا منه المساعدة في ارسال مبعوثي بلاد پوراتم Purattum الواقعة في مقاطعة نمخم Numhum بين بلاد آپوم ودجلة ، وذلك عندما قررت التبعية لملك يمخد والانضواء تحت حمايته (L 87 - 1309)

وفي رسالة اخرى يشير حمورابي الى تعليمات عسكرية هامة ارسلها اليه مع خدمه ، ويطلب منه أن يوليها الاهتمام الكامل (L87 - 1278) ، وثمة رسالتان اخريان منه الى موتيا يصعب فهم مضمونهما بسبب حالتهما السيئة (L87 - 1302, 1355) وخلال عهده برزت مشكلة تمس سيادة حلب الخارجية ، اذ تشير رسالة (L87 - 929+944) الى ان بلاد يَسّان ويموتبَلُم المحيطة باندريغ ورزاما حوالي سنجار والواقعة تحت نفوذ حكام حلب قد تعرضت للغزو والتخريب ربما بدعم من حكام اندريغ ورزاما ، ويسمع حمورابي بالامر ويوجه اصابع الاتهام الى حكام كردا وآپوم وكرنه / قطارا وذلك بوجود بعض رسلهم . ويزعج خبر الاتهام هذا حاكم كردا

فيكتب الى ملك آپوم محرضا اياه على الاحتجاج لدى تبلو المندوب الحلبي المقيم في شخنا /شبت انليل وطالبا منه أن يرسله اليه للتحقيق في الامر بحضوره مع حكام بعض المدن القريبة من منطقة التمرد . ان ما كان يقلق حلب في هذه المسألة هو الخوف من استغلال بابل الفرصة والعمل على ازالة سيادة حلب على تلك المنطقة . ويبدو أن هذا الاتهام غير المحقق قد سبب الفتور لفترة في علاقات يمخد وآپوم، ولذلك تحول حمورابي الى الاعتماد على حاكم آخر في المنطقة هو خالو رابي الذي لا نعرف بالضبط مركز حكمه ، ولكنه كان على الارجح في منطقة جنوب بلاد آپوم شرق كمنت .

كانت هذه فرصة مناسبة لخالو رابي كي يبرز نفسه ودوره في المنطقة ، ولذلك جند كل قواه لتحقيق آمال حكام يمخد المعقودة عليه .

في حلب عهد حمورابي الى أخي دبخ القائد العسكري تنظيم حملة على تلك البلاد الثائرة قوامها ستة آلاف محارب . وفي منطقة الخابور راح خالو رابي وبن دمو السفير الحلبي المتنقل هناك يتباحثان في خط سير الحملة والامور المتعلقة بها .

فمن رسالة من إيّا مالك حاكم كخت الى موتيا (L87 - 936) نعلم ان بن دمو التقى خالو رابي و « الملوك » (اشارة الى بعض حكام المنطقة) في مدينة زرآنوم Zar' anum (وهي مدينة غير بعيدة عن شخنا) وذلك لعقد تحالف بينهم، والتباحث في الوضع الجديد .

وفي رسالة اخرى (L87 - 560) نقرأ ان رسولا لاخي دَبخ وصل الى خالو رابي، وقال له : لقد بدأت التوجه نحو اندريغ ومعي ستة الاف محارب ، سأسير عبر منطقة الخانيين وبين قطعان الاغنام .. وحظائر الخانيين .. ولن يحصل [أي اعتداء]، ليتك تفرح .

في عهد **تل ابنو** الذي ارتقى عرش شخنا/شبت انليل في السنة الاخيرة من فترة ولاية خابيل كينو (السنوات الاولى من النصف الثاني من القرن الثامن عشر ق.م) عادت العلاقات الحسنة بين الملكتين ، فقد كتب حمورابي الى تل أبنو مباركا ارتقاءه العرش ، ومؤكدا احترامه سيادته ، قائلا : « المدينة مدينتك والبلاد بلادك .. ». (L87 - 1383) .

ومن رسالته الثانية الى تل ابنو يتضح تحسن العلاقات والتعاون العسكري بينهما وقبول ملك آپوم باستخدام المحاربين الحلبيين لارضه مقابل خدمة مصالحه ، يقول له فيها : « سابقا أرسلت اليك رسولي بن دمو ، وأنت نفذت قرارك اذ وزعت [جنده] في بلادك ، وقد كانوا أفضل خدمة لك من ذي قبل . الان عليك أن تؤدي

خدمة جيدة لأبيك ، ضع مخططا مع رسولي بن دمو ، وقم [بزيارة] الي . مسألة أخرى؛ لقد قبض في أمورسكم على خدم لي ،اكتب [الى المسؤولين فيها] كي يحرروا خدمي ، ثم اتخذ انت قرارا في وضعهم » (L 87 - 472) .

لكن تل ابنو لم يرض تلبية طلب حمورابي بزيارته قبل ان يتحقق من حسن نواياه بمعاهدة صداقة تبرم بين المملكتين . في هذا المجال برز أيضا دور خالو رابي في التقريب بينهما ، ففي رسالة من خالو رابي الى تل أبنو نقرأ : « لقد استمعت الى رسالتك المرسلة الي ، اذ كتبت عن عزمك على عدم السفر الى حلب . بما انك لن تسافر ولن تتقابل مع الملك [حمورابي] دع أحد خدمك الثقاة يقود حاميتك الملكية ، ويذهب معي الى حلب . سوف يلمس الملك حلقه من أجلك . (وهذا تعبير رمزي عن الالزام الذاتي والتعهد بتحقيق ما يرضي الطرف الاخر) ، وليرقبه خادمك ، وسوف ينقل اليك بعدها كيف لمس الملك حلقه من أجلك ، وعندها سيبتهج قلبك بالتأكيد . وعندما اعود من حلب تعال الي نتواجه ، وسأوضح لك آراء الملك » . (L 87 - 227) .

لا نعتقد أن تل ابنو اقتنع باقتراح خالو رابي ، مما اضطر هذا الاخير الى السفر وحده الى حلب ، ففي رسالة ثانية منه يذكر أنه قابل الملك ، ويخاطب تل أبنو قائلا : « رأي الملك يتفق مع رأيي ، فليبتهج قلبك . لقد ناقشت أمورك ــ كما تريد ــ مع الملك . لا تكن متهاونا فيما يتعلق بمناطق الرعي . ليت تحياتك واخبارك تصلني على الدوام » (L 87- 1398) .

لا توضح الوثائق أسباب الحذر الذي كان يتملك تل أبنو ، وقد يكون من بينها عدم اطمئنانه لمغادرة بلاده خوفا من تمرد داخلي ، كما لا تساعد على معرفة حدود تحسن العلاقات مع ملك يمخد ، ولكن يمكن استخلاص حرص حمورابي على الاتفاق الكامل مع تل ابنو ، وربما كان مرد ذلك انه لم يقتنع تماما ببديل اخر قوي يخدم مصالحه في منطقة الخابور ، وعلىالرغم من ان خالو رابي بذل جهده واظهر كل الاخلاص له أدت وشاية من بوريا حاكم اندريغ الى تحول حمورابي عنه . لقد كتب خالو رابي الى تل أبنو شاكيا : « لقد افترى علي بوريا امام حمورابي ، وقال :لقد عقد خالورابي معاهدة مع أحد الاعداء ، لقد حلف اليمين وذبح حمارا » (L87 - 832) وذبح حمار كان أحد طقوس عقد المعاهدات .

يبدو أن ذلك تم في فترة انصرف فيها حمورابي عن الاعتماد على حكام منطقة الخابور بشكل عام ، ووجه انظاره نحو اندريغ منتهزا فرصة بروز الخطر البابلي على دويلات منطقة سنجار .

لقد مد يد العون نحو اندريغ فقبلت التبعية له خوفا من الاطماع البابلية المتنامية وتهديداتها لمنطقة سنجار . لقد افرح تعهد حمورابي بالحماية حاكم اندريغ . وكتب الاخير الى تل أبنو يعلمه بذلك قائلا : « لقد جمعنا رسلنا وأرسلناهم الى حلب ، ولكنهم عادوا بعد أن وصلوا مدينة كبشم (في أعالي المنطقة الواقعة بين الخابور والبليخ ، شرق أو جنوب شرق حران) ، اثنان سريعان منهم .. استطاعا المتابعة الى حلب عبر توتول والوصول الى حمورابي ، وقد سطع [وجهه] كشروق الشمس . لقد قال كل الكلمات الجميلة التالية : « لن أقطع (المساعدة عن) بوريا ، طالما أنه قد.. ملك بابل .. والبابليون سوف [يصلون] كركميش . سوف يأتون أولا الى هنا ، و [يهاجمون] ابني بوريا . لذلك سوف ينطلق عشرة آلاف محارب بقيادة أخي دنج، وسيمكثون سنتين في اندريغ ، وينفذون كل رغباته (رغبات بوريا). ولانهم سيحققون رغباته ليته يأتي الى هنا مع أخي دبخ ويقابلني » . لقد وصل هؤلاء المحاربون الى اندريغ حقا عبر طريق الصحراء ، وهم يقيمون معي (489+462 - L87) .

لا تفيدنا الوثائق بمعلومات أكثر عن هذا التحول في سياسة حلب تجاه منطقتي الخابور وسنجار ، والامل معقود على وثائق أخرى تكتشف مستقبلا في تل ليلان أو غيره في اضاءة مجريات الاحداث في السنوات اللاحقة .

ما هو جدير بالبيان أيضا تلك الشخصية السياسية الحلبية التي قادت النشاط اليمخدي هناك . أعني **بن دمو** الذي يستحق بحق ان يوصف بـ « سفير حلب المتنقل في منطقتي الخابور وسنجار » .

لقد كان بن دمو ممثلا شخصيا للملك حمورابي ، ومقيما شبه دائم في المنطقة البعيدة يتلقى التعليمات من سيده ويتنقل بين أنحاء الخابور وسنجار لحماية مصالح حلب السياسية والاقتصادية ، ويسهم في حل المشاكل القائمة ، اضافة الى نشاطات مدنية وعسكرية متنوعة . ويبدو أنه استمر في اداء هذا الدور في عهد ابان ايل بن حمورابي وخليفه [انظر (L87-628)] . وهو بذلك يشبه البابلي موتو خدكيم كما صورته وثائق تل الرماح .

لقد وصف بن دمو بـ « زعيم الاموريين SAG GAL MAR.TU.MES (L87-765) واشارت الوثائق مرارا الى التقائه بملك البلاد ، وذكر في الوثائق الاقتصادية ذكرا يشير الى التقدير الكبير الذي كان يلقاه ، فقد صدرت باسمه هدايا ومنح قيّمة كثيرة مثل الاواني الفضية وانواع من الاحذية والثياب ووجبات طعام فاخرة (انظر مثلا (L87-638, 184,977a, 474) . كما تلقى الفتيان الذين كانوا يتبعون له ،

ويشكلون حاميته المرافقة ويتنقلون ناقلين الاخبار والتعليمات، موادا كثيرة قيمة ايضا. كما تجدر الاشارة الى وثيقة تسجل استلام طباخ بن دمو ثوبا ، ويبقى التساؤل قائما : هل كان قد احضر معه طباخا من حلب ، أم خصص له القصر في شخنا طباخا من أهالي البلاد .

وثمة رسل اخرون قدموا من حلب وتلقوا الهدايا من أحذية وثياب عندما غادروا شخنا/شبت انليل مثل Yaridi - Addu, Irimmunu, Ahuni, Iluranu

وتحدثنا وثيقة اقتصادية عن جماعة حلبية زارت البلاد . وعند العودة تلقى أفرادها أواني فضية كبيرة وثيابا من النوع الاول (L87 - 653) .

إن أهمية هذه الاخبار تنبع من جدتها وتفردها برصد تلك الفترة التاريخية القصيرة (حوالي منتصف القرن الثامن عشر ق.م ومطلع نصفه الثاني) ، مشكلة بذلك جسرا بين أخبار مملكة يمخد/حلب في وثائق ماري والالاخ .

إن ما يؤسف له هو غياب وثائق من تلك الفترة من حلب العاصمة نفسها ،وبقاء أرشيف ملوك حلب القدامى مجهولا غائبا تحت حلب الجديدة .

* * *

العلاقات السياسية بين مملكة ارفاد الارامية وآشور
حتى اواسط القرن الثامن ق.م

د. محمد حرب فرزات
جامعة دمشق

نحاول في هذ البحث* تسليط بعض الاضواء على المرحلة التاريخية التي سبقت عقد المعاهدة المعروفة بين متع إل برعترسمكي آخر ملوك أرفاد المملكة الارامية القديمة في سورية الشمالية، وبرجاية مدك (كتك) من أجل المساعدة على تفسير بعض الغاز النصوص الارامية المعروفة بنقوش سفيرة . (راجع الحالة الراهنة للبحث في : لومير ودوران (١٩٨٤) . A. Lemaire et J. - M. Durand, 1984, p. 3-21, 131 - 147)

ولهذه النصوص في هذه النقوش الارامية القديمة اهمية تاريخية كبيرة، ويتوقف على تفسير عدد من المسائل الشائكة التي تطرحها رسم صورة التاريخ السياسي الصحيح لهذه المرحلة المهمة من تاريخ سورية القديم ما بين أواسط القرنين التاسع والثامن ق.م . ويبقى أهم الاسئلة المطروحة فيها :

من هو برجايه ؟ وأين هي مملكة (كتك) ؟ وضد من وجه هذا التحالف ؟ وما هي حدوده ؟ وبدون الاجابة عن هذه الاسئلة يبقى عدد من المسائل التاريخية في حيز الفرضيات .

لقد كنا حاولنا مناقشة هذه الاسئلة واقترحنا أجوبة لها من قبل في دراسة بعنوان : (مملكة أرفاد الارامية ، ١٩٧٢ ،
H. Farzat, Le royaume araméen d'Arpad, 1972)

كانت في حينها أول دراسة شاملة عن تاريخ هذه الدولة الارامية وعلاقاتها مع الدول المعاصرة ، وظهرت بعدئذ دراسات أخرى كان اكثرها اثارة للنقاش الدراسة المشتركة للاستاذين لومير ودوران ، دو نأن يؤدي ذلك الى إغلاق البحث في الموضوع، فالمسائل المطروحة من قبل ما زالت قائمة ، تناولها فيما بعد عدد من الباحثين كان اخرهم أ. مالامات (١٩٧٦) و ن. نعمان (١٩٧٨) .

---

* أعد هـذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ - ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ - ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ - ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

أما في بحثنا هذا ، فاننا سنعمل على إيضاح العلاقات بين مملكة ارفاد وآشور في النقاط التالية :

١ ــ ارفاد واشور قبل ادد نيراري الثالث .

٢ ــ العلاقات بين أرفاد واشور في زمن أدد نيراري الثالث .

٣ ــ محاولة لاعادة النظر في العلاقات بين أرفاد وآشور من خلال نصوص سفيرة الارامية ومسلتي انطاكية ومرعش الاشوريتين .

ــ ارفاد واشور قبل ادد نيراري الثالث :

ماتزال المعلومات عن مملكة ارفاد ، وهي مملكة بيت أجوشي الارامية ، التي امتد سلطانها على رقعة واسعة من سورية الشمالية ، محدودة ومبعثرة ، وفيها ثغرات كثيرة . فمع التحولات السكانية والسياسية التي عرفتها سورية والمشرق القديم في مطلع الالف الاول ق.م ، تطورت الاوضاع في منطقة حلب وأخذت تذوب ملامح الدولة الامورية الحثية ياحان على أيد الاسرة الآرامية الحاكمة الجديدة من بيت أجوشي . وقد عاصرت هذه الدولة التي تمكنت من ترسيخ قواعدها في شمال سورية الذين نعرف منهم جوشي ملك **ياحان** وارامي أو أدرامي مارجوشي ، رجل جوشي وعتر سمكي وابنه متع إل اللذين عرف كل منهما بلقب ملك **أرفاد** . وكان أولهم معاصرا لآشور ناصر يال الثاني (٨٨٣ ــ ٨٥٩) وآخرهم معاصرا (لكل من آشور نيراري الخامس (٧٥٤ ــ ٧٤٥) وتكلات بلاصر الثالث (٧٤٤ــ٧٢٧) .

والى ما قبل سنوات لم تكن تتوافر معلومات موثقة كافية عن هذه الدولة التي غدت في النصف الاول من القرن الثامن ق.م . واحدة من أهم دول سورية الشمالية.

وقد ذكر أرامي Arame مار أجوشي معاصرا لكل من شلمانصر الثالث ملك آشور (٨٥٨ ــ ٨٢٤) وسردور الاول ملك اورارتو ، أما ماكان يعرف عن عتر سمكي والد متع إل فكان ضئيلا جدا . وقد ارتبط تاريخ مملكة أرفاد في مراحله الاخيرة بنقوش سفيرة وباتجاهات الباحثين ، لا سيما اللغويين منهم في تفسيرها . وتأثر تفسير نقوش سفيرة الى حد كبير بطبيعة نصوص المعاهدة الاخرى الشهيرة بين آشور نيراري الخامس ومتع إل ملك ارفاد وهي معاهدة تبعية من الواضح فيها أن متع إل كان تابعا للملك الآشوري لكن النصوص الاشورية التي نشرت في السنين الاخيرة تلقي مزيدا من الضوء على التحركات الآشورية في سورية وتطلعنا على مطامح عتر سمكي والد متع إل مما يستدعي إعادة النظر في الظروف التاريخية المتداولة بين المهتمين بموضوع العهود المعقودة بين متع إل وبرجاية .

إن نشر نصوص مسمارية آشورية تاريخية جديدة مؤخرا ، وهي نصوص واضحة الخط ، كتبت بأسلوب تقريري مفصل ، وتعود الى زمن الملك أدد نيراري الثالث ، يسد فراغا ملحوظا في المعلومات عن العلاقات الاشورية ــ الارامية في هذه الفترة التي امتدت اكثر من قرن من أواسط القرن التاسع الى أواسط القرن الثامن قبل الميلاد .

وقام بنشر هذه النصوص المسمارية فيصل دونباز ، من أصطنبول ، ضمن منشورات مشروع نشر نقوش بلاد الرافدين في تورانتو بكندا :

(Donbaz, Veysel, Two Neo - Assyrian Stelae in the Antakya and Kahramanmaras Museums, in Annual Review of The Royal Inscriptions of Mesopotamia Project. Vol. 8, 1990 = ARRIM, TORONTO, (Ontario, CANADA)).

وقبل التحدث عن هذين النصين المنقوشين نحاول التعرف على الاوضاع في سورية قبل مجيء أدد نيراري الثالث ، فقد وقعت في كلحو ، العاصمة الاشورية ، في السنين الاخيرة من حكم شلمانصر الثالث أضطرابات خطيرة ، حين كان يقود بنفسه حملة على الحدود الشمالية الشرقية ، وقد تركت هذه الاضطرابات تأثيرا خطيرا على كيان الامبراطورية الاشورية ، واغتنمت الدول الواقعة غربي الفرات أي في سورية الداخلية وعلى الساحل الفرصة للتحلل من السيطرة الاشورية الضعيفة وممارسة سياسة مستقلة فيما بينها . ومن المعروف أن شلمانصر الثالث لم يستطع ان يفرض سياسته على تحالف الدول الارامية ــ الكنعانية في قرقر (٨٥٣) ، لكن شمشي أدد الخامس (٨٢٤ ــ ٨١١) ، الذي خلف اباه تمكن في سنتين من قمع الاضطرابات في العاصمة الاشورية واسترد نفود المملكة في بابل بعد التوصل الى عقد معاهدة بين الدولتين الرافديتين ، اشور وبابل :

(E. F. Weidner , « Der Vertrag Samsi - Adad V mit Marduk Zakir Sumi I » Afo, 8, 1932/33, p. 27-29).

أما الدول السورية فكانت قد عادت الى منازعاتها القديمة . وقامت دمشق بزعامة ملكها حزائيل تسعى الى فرض هيمنتها على دول المنطقة الارامية ــ الكنعانيةفي سورية وفلسطين واستؤنفت سياسة برهدد الثاني ، وبعد وصول حزائيل الى القدس اضطرت مملكة يهوذا في جنوب فلسطين الى قبول التبعية للملك الارامي، (سفر الملوك الثاني ١٢ : ١٧ــ١٨) .

ومن جهة اخرى يطلعنا نقش كيلامو ملك سمأل الواقعة شمال جبال الامانوس، وهو نقش باللغة الكنعانية ــ الفينيقية ، على جانب من العلاقات بين الدول السورية

الشمالية في أواخر القرن التاسع . وقد وجدت سمأل التي اختارت ان ترسل بشكل نظامي مبالغ سنوية الى اشور منذ أيام شلمانصر الثالث طلبا للحماية ، صعوبة كبيرة في ترتيب علاقاتها مع جيرانها الاقوياء على حدودها ، على حد وصف النص نفسه، واهمهم من الشرق بيت أجوشي ، وحطينا / أونقي جنوبا ، أي العمق ، حول حوض العاصي الاسفل ، وهي منطقة انطاكية . وقد ذكرت هذه المنطقة باسم اونقي/ العمق في الوثائق الاشورية لاول مرة في زمن شلمانصر الثالث :

(ARAB, I, 613; Elliger, Festschrft Eissfeldt, 1947, s. 80; KAI II, 24).

الذي استطاع ان يتدخل في وجه سياسة بيت أجوشي التي كانت تشجع حطينا / اونقي ضد سمأل حليفة اشور . أما سياسة بيت اجوشي في منطقة حوض العاصي فكانت تقوم على مبدأ أساس ينص على منع مملكة حماة من مد نفوذها نحو الشمال، ومنع مملكة شمأل من مد نفوذها نحو حوض العاصي جنوبا ، وذلك حرصا على مصالحها في خضم الصراعات الاقليمية المحلية .

كانت مملكة حماة مملكة قوية بين الدول السورية الارامية التي انتقل الحكم فيها من أيدي حكام حثيين الى أيدي أمراء وملوك آراميين ، أشهرهم زكر ملك حماة ولعش .

وقبل وصول زكر الى الحكم في حماة كان أورخليني ملك حماة قد انضم الى الحلف السوري الحثي ــ الآرامي ــ الكنعاني وعلى رأسه ملك آرام / دمشق لمحاربة ملك اشور شلمانصر الثالث ملك اشور في قرقر على العاصي (٨٥٣ ق.م).

وتمكن الامراء السوريون بعد معركة ضاربة من إرغام الملك الاشوري على التراجع خائبا دون أن يحقق الهدف المرجو من الحملة . وعندما جاء زكر الى الحكم في حماة بعد ذلك انفرد في مواقف البت عليه الدول السورية الاخرى بزعامة ملك دمشق ، مما أدى الى الحرب والى محاصرة الملك زكر ، ملك حماة ولعش في مدينة حزرك التي كانت عاصمة اقليم لعش . وكان زكر يوحد في شخصه الملكي المملكتين المتحدتين معا في مملكة واحدة مزدوجة افترض لاند سبرجر أن اسمها الموحد هو كتك التي هي محصلة تحالف مملكتي حماة وحزرك واتحادهما . وكانت هذه المملكة واراضيها محل تنافس بين ملك آرام دمشق من جهة وملك أرفاد / حلب (بيت أجوشي) من جهة اخرى لانها واقعة بين الدولتين . وكان لاندسبرجر B. Landsberger أول من اشار الى فرضية مفادها ان كتك هي حزرك ، وهي فرضية تزداد اهميتها بعد التنقيبات الحديثة في آفس :

(B. Landsberger, Sam'al, 1948; G.Buccellati, Cities and Nations of Ancient Syria, 1967, p. 145).

وقد عثر على نقش ذكر في آفس ١٩٠٣ ، ونشر يونيون النص لاول مرة ١٩٠٧، وهو موجود في متحف اللوفر في باريس).

يوضح هذا النص الارامي المهم الوضع الجغرافي ـ السياسي المنقسم في سورية في تلك المرحلة ويعدد أسماء الدول القائمة آنذاك ، وقد ابرز هذا النقش ما كان يتمتع به زكر من مؤهلات سياسية تمثلت بالطموح والنشاط والقدرة على التحرك الفعال. ويمكن ان يعد هذا النقش اثرا اعلاميا ما يزال صداه يتردد حتى اليوم ، فهو ملك حماة ولعش ، جعله ربه بعل شمين ملكا على حزرك ، « وهملكني بعل شمين بحزرك» وهو الذي أيده ونصره ومكنه من فك الحصار عن عاصمته حزرك وارغم المهاجمين على التراجع .

في هذا الصراع على النفوذ بين الدول السورية ، وقف ملك ارفاد ، ومن المرجح أن يكون عترسمكي المعاصر لادد نيراري الثالث الى جانب ملك دمشق الذي كان زعيم التحالف ومحركه وقد وجد ملك أرفاد فرصة نادرة للتحالف مع ملك دمشق الارامي لمواجهة مطامع ملك حماة ولعش زكر ، وانضم اليهما ملوك قوي في كيليكية ، وأونقي / العمق على العاصي ، وجرجم على سفوح طوروس ، وشمأل في شمال الامانوس ، وملاطية في سورية العليا وسبعة ملوك آخرون لم تذكر أسماؤهم .

توضح هذه الوثيقة مدى تجزؤ سورية السياسي منذ عصر العمارنة (النصف الثاني من الالف الثاني ق.م). وهذا التنافس الشديد بين الدول الرئيسة في البلاد في خضم النزاع على النفوذ في المنطقة بين الدول والقوى الكبرى المحيطة (آشور وأوراتو) . ومثل هذا الوضع السياسي كان يحول دون اتحاد البلاد على نحو فعال ضد مطامع الملوك الاشوريين التوسعيين .

فبعد أن امنت مملكة دمشق حدودها الجنوبية أيام حزائيل ، وبعد أن فتحت الطرق أمام تجارتها حتى العقبة وبسطت سيطرتها على الطريق الملكية الكبرى الممتدة من شرقي الاردن الى الجزيرة العربية قام برهدد الثالث وهو ابن حزائيل، بتوجيه سياسته نحو الشمال : (A. Dupont-Sommer, Les Arameens, p 47) وكان حليفه السياسي العسكري في هذه المرحلة ملك أرفاد برجوشي الوارد ذكره في نقش والذي يحتمل ان يكون عترسمكي كما يمكن ان يستنتج من نقش انطاكية ونقش كهرمان مرعش . ومهما يكن فان الموقع المميز الخاص لبرجوش في نص زكر يعكس الدور المهم لهذه المملكة الارامية في شمال سورية منذ آرامي Aramê المعاصر لشلمانصر الثالث . ولم يكن ملك ارفاد متساهلا تجاه مطامع أشور كما كان يفعل ملك سمأل ،

وعمل خلفه برجوش على وضع حد لتوسع مملكة حماة باتجاه الشمال والجنوب وهو ما فرض التحالف بين الدولتين المعنيتين ، وهما برجوش ملك أرفاد وبرهدد ملك دمشق ، اللذان سعيا لتوسع التحالف للتمكن من محاصرة زكر في حزرك ، لكن زكر نجا اخيرا من الحصار ونتائجه . ويرى س. سميث (C.A.H. III,p. 28) ان الصراع بين الدول الارامية كان لمصلحة آشور التي وقفت الى جانب زكر . ويلاحظ سميث ان ادد نيراري الثالث وجه ، بعد مهاجمة حزرك من قبل التحالف ، حملات عنيفة ضد اعداء زكر بين سنتي ٨٠٥–٨٠٢ (ARAB, I,739-740) ثم تطور الوضع في سورية كلها بعد ذلك بتأثير عاملين:

أسرعت مملكة اسرائيل وهي بيت عمري في الوثائق الاشورية للاستفادة من إخفاق برهدد وحلفائه فاستردت المواقع التي كان حزائيل قد سيطر عليها . وهذا يتقدم أدد نيراري نحو مناطق أمورو وآرام الواقعة غربي الفرات تكون آشور قد عادت لاول مرة بعد ربع قرن الى استئناف سياسة شلمانصر الثالث التوسعية في المنطقة، ووجدت فيه مملكة اسرائيل التي كانت تخشى مملكة آرام دمشق المنقذ المنتظر (سفر الملوك الثاني ١٣ : ٥) .

– سياسة أدد نيراري الثالث (٩/٨١٠ – ١/٧٨٢) :

عند اعتلاء أدد نيراري الثالث عشر آشور كانت تل برسيب وهي تل أحمر قد اضحت حصنا أشوريا متقدما على الفرات لمراقبة الاوضاع في غربي الفرات، وتحركات الدول السورية الشمالية والارامية لا سيما حلب / أرفاد وحماة ودمشق .

وتميز عهد أدد نيراري الثالث بتحرك نشيط أدى الى اعادة بناء الامبراطورية الاشورية . فلقد تمكن بسرعة أن يسترد محاور الطرق المهمة ، غوزانا / تل حلف في ٨٠٨ وبالتالي تحكم بطريق المواصلات والقوافل التجارية نحو بلاد أمور والداخلية والساحلية . وكان التحرك الاشوري في هذه المناطق مألوفا منذ زمن بعيد ولكن بدءا من العام٨٠٦/٥ والى ٨٠٢/١ أخذ الجيش الاشوري يتحرك نحو مناطق لم يكن تقدم اليها من قبل لاحكام القبضة الاشورية على سورية التي كانت لها أهمية اقتصادية واستراتيجية للوقوف بوجه الاقوام المحاربة على الحدود الشرقية والشمالية للدولة الاشورية ، فمن سورية كانت تجلب اليد العاملة الماهرة والاخشاب من الامانوس ولبنان ، وعبر طرقها كانت أشور تستورد المعادن من بلاد الاناضول .

واستنادا الى هذه المصادر الاشورية كانت بلاد ارفاد (KUR Ar-pa- da) ضمن نطاق هذا الهجوم الاشوري الواسع منذ (٨٠٥) . ولكن لا يعرف ما اذا كانت مدينة

أرفاد نفسها قد هوجمت. لكن مدينة رئيسية في مملكة بيت أجوشي وهي خزازو/أعزاز (URU Hazazi) هوجمت في ٨٠٤ . وكان من نتائج هذه الهجمات الاشورية قطع الاتصال مع ملك دمشق الذي كان يعمل على الاحتفاظ بتحالفاته مع سورية الشمالية.

(S.Page « Astela of Adad Nirari III and Nergal Eres from Tell al Rimah » Iraq, 30, 1968, p. 139 - 153).

وفي (٨٠٢) تقدمت الجيوش الاشورية في حملة ضخمة نحو البحر الكبير باتجاه ارواد وصيدا وصور لفرض أتاوات وغرامات على مدن الساحل ، وأقام الملك نصبا تخليدا لهذه الحملة الظافرة (المرجع السابق ، أيضا :

(H.Donner « Adad Nirari III und die Vasalen des westen in Archeologie u. Altes Testament, Festschrift fur K. Galling Tubingen, 1970, p.49-60).

وفي نقش ملكي يتباهى أدد نيراري بانه أخضع بلاد خاطي ، أي سورية الشمالية وأمورو بكل امتدادها (سورية الوسطى) وفيها صور وصيدا وعمري (بيت عمري) وهو الاسم الذي كان يطلقه الديوان الاشوري على مملكة اسرائيل المذكورة في العهد القديم ، وأدوم وفلسطو (فلسطين) حتى البحر الكبير في الغرب . وهكذا وصلت حدود الدولة الاشورية الى مصر . وكان هدف ملك أشور في نهاية المطاف ضرب مملكة دمشق التي كان يدعى ملكها ماري / أي سيدي في وثائق الديوان الاشوري (A. Dupont - Sommer , Les Araméens, p. 53) وفي الترجمة العربية أيضا .

وهكذا اثبت **تسلسل الاحداث وتتابعها أن هدف اشور في غرب الفرات كان** ضرب العالم **الارامي ، لاسيما أهم ممالكه آرام دمشق .**

وبنتيجة هذه الحملات العسكرية تمكنت آشور من تحقيق بعض مآربها ، فقد تلقى أدد نيراري من دمشق كميات كبيرة من الفضة والنحاس والحديد والاقمشة ، ونقل الفاتح الاشوري كميات كبيرة من الاخشاب التي قطعت من الغابات في جبال الامانوس ولبنان . الا أن أدد نيراري لم يستطع أن يمسك في قبضته البلاد السورية طوال حكمه . (انظر أهمية دمشق التجارية :

B.mazar, BA XXV, 4, 1962; ARAB, I, 734-739; ANET, p. 282)

ومع ذلك فان أكبر الاهتمام وجه آنذاك الى المناطق الشمالية الشرقية حيث كانت تتكون قوى محاربة في أوراتو (من القرن التاسع ، حول بحيرة وان ، وأخذت هذه القوى الجديدة تهدد الدولة الاشورية ومصالحها في سورية العليا وسفوح طوروس وسورية الشمالية في منطقة حلب .

وتدل الحوليات الملكية الاشورية على مدى اهتمام الملوك الاشوريين المحاربين شلمانصر الرابع (٧٨٢ ــ ٧٧٢) واشور دان الثالث (٧٧٢ ــ ٧٥٤ ــ بحماية مصالح الدولة الاشورية بالعمل على الاحتفاظ بسيطرتها على الطريق الاستراتيجية المؤدية الى البحر . وتعرضت حدود مملكة أرفاد والطرق عبر أراضيها للانتهاك من الجيوش الاشورية . وكان بعض المواقع هدفا متكررا للهجمات الاشورية لا سيما حتاريكا / حزرك التي أبرزت **التنقيبات الاثرية الجديدة في تل آفس اهميتها** ، كما حدث في الاعوام ٧٧٢ و ٧٦٥ و ٧٥٥ ق.م .

وفي حين اختارت بعض دول المنطقة مثل سمأل سياسة التفاهم مع أشور لطلب حمايتها في المنازعات المحلية بينما لجأت أرفاد الى المراوغة وتراوحت سياستها بين الاصطدام بآشور عند الاصطدام بحلفائها ، وبين التفاهم الدبلوماسي كما في اتفاقية آشور نيراري الخامس مع متع إل ، وهي تتضمن بالدرجة الاولى فرض تحالف عسكري على أرفاد أهم متطلباته تقديم الجند والمؤونة للجيش الاشوري حين طلبها .

وهكذا يتضح ان منطقة حلب ، وهي في القلب من مملكة بيت أجوشي كانت محل نزاع بين ثلاث قوى هي : ١ ــ الدول الارامية المحلية ، ٢ ــ الاورارتيون الذين حاولوا التقدم من جهة الشمال ، ٣ ــ اشور التي حاولت فرض نظامها الامني والاقتصادي على المنطقة الممتدة بين جبال زاغروس والبحر المتوسط . لكن اشور لم تتمكن من فرض سياستها الا بعد صراع طويل امتد الى أيام تكلات بلاصر الثالث في أواسط القرن الثامن ق.م .

ــ العلاقات بين ارفاد وآشور :

يعود النقشان المسماريان اللذان نشرهما الباحث التركي فيصل دونباز الى زمن ادد نيراري الثالث (أواخر القرن التاسع ومطلع القرن الثامن ق.م) (حول الملك الاشوري : (Crayson, CAH. 3/1, 270-276

وكان بعض الباحثين قد اشار الى أهمية **النقش الاول** وهو نقش انطاكية او مسلة أنطاكية : (A. R. Millard — H. Tadmor, Iraq, 35, 1973 p. 60 - 61) الا ان فيصل دونبار قدم قراءة منهجية مفصلة للنص المسماري وخلاصته : **تحديد الحدود بين ممتلكات زكر ملك حماة وعترشومكي ملك ارفاد ، وتقسيم الانتفاع بنهر العاصي بين الطرفين .**

وقد جاء في هذا النقش أن ادد نيراري ملك أشور ، ابن شمشي ادد ملك اشور ابن شلما نصر (الثالث) ملك الجهات الاربعة قد قام ومعه قائد الجيش شمشي ايلو

بتحديد الحدود بين زكر صاحب بلاد حماة واترسمكي (عترسمك في نصوص سفيرة) ابن أدرمو (أرامي في نصوص سفيرة أيضا) ، والمقصود هنا برجوشي صاحب ارفاد (السطر ١ ــ ٥) وتنص هذه الوثيقة على أن تكون مدينـة (نخلاسي) بكل حقولهـا وبساتينها ومستوطناتها ملكا لاترسمكي، وعلى أن يقتسم الطرفان نهر العاصي بينهما. ويؤكد النص علىأن الملك وقائد جيشه اعطيا طواعية وصراحةهذه الحدود لاترشومكي بن ادرمو ولاولاده وعقبه ، وله ان يحصن مدينته وأراضيه حتى تخومه (سطر ٦ــ١١) ويقسم ملك اشور بالارباب التي تذكر هكذا تباعا : اشور وادد وبر/ور واليل الاشوري ومولیشو وسین/شهر المقيم في حران ، أرباب اشور العظام ، بأن من يتحدث بسوء بعد هذا عن هذا النصب أو من يغير مكان هذه الحدود بالقوة ويأخذها من اترشومكي وأولاده وأحفاده ويمحو الاسم المكتوب ويكتب اسما اخر بدلا عنه سيحل عليهم غضب الارباب العظام الذين سجلت اسماؤهم على هذا النصب ولن يتقبلوا صلاته .

اما **النقش الثاني** وندعوه **نقش مرعش** فهو حجر حدود أيضا . وقـد رسمت هذه الحدود على ايدي أدد نيراري ملك اشـور ، ابن شمشي أدد ملـك آشـور وساموراماث سيدة قصر شمشي أدد ملك اشور أم أدد نيراري ، كنـة سلمانصر ملك الجهات الاربع ، (سطر ١ ــ ٧) .

يذكر النص كيف ان الوضع الحرج الذي وجد فيه اشبيلولوما ملك الكوموخيين اضطر الملك الاشوري وسيدة القصر ساموراماث الى اجتياز الفـرات لنجدتـه . ويتحدث النص عن انتصار ملك اشور الذي وقف الى جانب أوشبيلولوما على تحالف كان على رأسه أترشومكي بن أدرمو صاحب أرفاد ومعه ثمانية ملوك لم تذكراسماؤهم ودارت المعركة عند مدينة بافيراخوبونا ، وانتهت حسب ما أفادت الوثيقة الاشوريـة الى هزيمة اترشومكي وحلفائه والى اضطرار ه مع حلفائه الى الانسحاب والتفرق ، بينما تمكن أدد نيراري من تعيين الحدود بين أوشبيلولوما ملك كوموخ وكالبارودا بن بالالام ملك جرجم.

وتأتي هذه الوثيقة شاهدا على الدور المهم الذي كانت تضطلع به مملكة أرفاد وملوكها من بيت أجوشي منذ أيام اترشومكي في مواجهة التوسع الاشوري ومن جهة اخرى يؤكد هذا النص ما كانت تمارسه اشور على العلاقات الدولية والسياسية في المنطقة من تأثير ، فكانت تعقد الاحلاف وترسم الحدود وتفرض سياستها بما يخـدم السلام الاشوري (Paxa Assyriana) وتحرص على تثبيت هذه العلاقات بالتسجيل ووضع أحجار الحدود (التخوم) .

ـ نقش مرعش ، الظهر :

يتحدث عن توجه القائد شمشي إيلو في ايام شلمانصر، وهو شلمانصر الرابع (٧٨٢ـ٧٧٣) ، ابن أدد نيراري ، ملك العالم ، ملك اشور ، ابن شمشي أدد ملك الجهات الاربع « الى دمشق ، حيث تلقى من حزائيل » رجل دمشق جزية تتألف من فضة وذهب ونحاس ، وسريره الملكي وكرسيه الملكي ، وابنته مع بائنة ثمينة ، وما لايحصى من ممتلكات القصر .

ويقول الملك في هذا النص انه عند عودته من دمشق اعطى حجر الحدود « التخوم : تخومو في الاشورية » لاشبيلولوما كوموخ . وفي هذا اشارة الى أن الملك اضطر الى تأكيد موقفه من قضية حدود كوموخ في سورية الشمالية العليا (وهي بلاد كوماجين في المصادر الكلاسيكية فيما بعد).

ويعلن ملك اشور في ختام النص انذاره بضرورة المحافظة على الحدود المرسومة قائلا :

« ومن يجرؤ على انتزاع هذا الحجر من يد أوشبيلولوما او من أولاده واحفاده ليكن اشور ومردوك وأدد وسين وشمس خصوما له في دعواه ، ليصموا آذانهم عن صلواته وليحطموا بلاده كما تتحطم قطعة الآجر » .

ويتضح من هذه النصوص كيف أن اشور اضطرت الى القتال مرتين من أجل حدود كوموخ ذات الموقع الاستراتيجي الهام على خطوط مواصلاتها ، مرة ضد أرفاد ومرة أخرى ضد دمشق ، وأوقعت الهزيمة بالطرفين قبل مجيء متع إل الى الحكم في أرفاد / بيت أجوشي .

لقد أدى التدخل الاشوري المتواصل في نطاق مصالح استراتيجية للدولة على مسرح تجاوز حدود سورية الشمالية وامتد الى سفوح طوروس حيث كانت تقوم دول صغيرة متنافسة ومتنازعة تداخلت مصالحها وتضاربت أحيانا الى منازعات على الحدود افسحت المجال لتدخل الدول الكبرى في المنطقة : اشور .

وكانت هذه المنازعات بين الدول السورية تجري دون تدخل خارجي كما حصل في الحرب بين ملك دمشق وحلفائه، ومن جهة أخرى ملك حماة زكر (نقش زكر) ولكن وقوع نزاعات مماثلة على الطرق الحيوية للمواصلات بين الفرات والبحر أدى الى تدخل مباشر (نقش انطاكية) وقد اشار نص مرعش/الوجه صراحة الى موقف

اترشمكي الذي يبدو انه اراد الافادة من النزاع بين كوموخ وجرجم وهما من دول سفوح طوروس للتوسع في المنطقة . فقد كان لارفاد منذ القرن التاسع ق.م استراتيجية عسكرية في منطقة تمتد ما بين مجرى الفرات الاعلى ووادي العاصي الادنى . وهو ما كان يتضارب مع مصالح الدولة الاشورية التي كانت تتابع باصرار سياستها التوسعية باتجاه الغرب وهي سياسة بقيت تتمسك بها وتتابعها حتى القضاء على الدول الارامية تباعا واحدة بعد الاخرى .

ان ما كانت تفعله اشور في المنطقة يشبه شيئا ما من النظام الدولي الاقليمي كانت تعمل على فرضه على الدول الصغيرة في المنطقة بمختلف الوسائل في جهود متواصلة ترافق فيها التحرك العسكري مع التحرك الدبلوماسي لفرض ما يمكن أن يسمى السلام الاشوري على المشرق القديم كله ، وعندما كانت تنجح في فرض وجهة نظرها أو تسوية النزاعات المحلية بحضورها كانت تتوصل الى تعيين الحدود / التخوم، تحديدا ماديا بأحجار منقوشة معترف بها ترعاها الالهة ويفرض على الدول المعنية الالتزام بمضمونها.

وقد لجأ بعض دول المنطقة الى طلب حماية اشور فكانت هذه الدول راضية بتبعيتها كما كان موقف سمأل وكوموخ . الا أن ارفاد كان مختلفا ، فهي تتصادم مرة الى أن تتوصل الى حل مرض كما جرى في تسوية الحدود مع زكر على نهر العاصي ، وتتصالح مرة أخرى كما جرى في التعاهد بين اشور نيراري الخامس ومتع ال ، الا أن انقلاب الاوضاع في اشور قبل صعود تكلات بلاصر الثالث العرش شجع متع ال على خوض مغامرة كبرى بالسعي الى توحيد العالم الارامي في وجه التوسع الاشوري بالتعاون مع القوى الارامية الاخرى . وقد ظهر من قبل أن ذلك كان ممكنا مرتين ، مرة للوقوف بوجه زكر المدعوم من اشور ومرة أخرى عندما تدخل عتر شمكي ضد كوموخ .

ـ محاولة لاعادة النظر في العلاقات بين ارفاد / حلب / وآشور في زمن متع إل:

تابع متعإل سياسة ابيه، ومضى خطوة أبعد لتأليب العالم الارامي كله ضد اشور وتحركاتها التوسعية . فالحلف الذي تحدثت عنه عهود سفيرة يضم ارام كلها ومصر وارام العليا والسفلى (نقش سفيرة I A)وان بنودها تنطبق على منطقة تمتد من قرقر (اي من منطقة نهر العاصي) الى يأودي (سمأل) ومن لبنان الى يبرود ومن دمشق الى ... ومن البقاع الى ... (نقش سفيرة I B) أما الارباب الذين يضمنون هذه العهود فهم أرباب المنطقة الممتدة من بابل الى ارام وكنعان .

ويحتل هدد حلب مكانا متميزا بين الالهة الشهود (سفيرة I A سطر ١٠ ، ٣٦ ، ٣٨) فهو الاله المشترك للعالم الارامي كله . وقد وجهت اشور كل قواها لدحر

المراكز الكبرى لهذا التحالف وهي العواصم التي هاجمهـا تكلات بلاصر الثالث ملـك اشور القوي الذي كان يعرف مواقفها من اشور وعلاقتها فيما بينها :

ففي ٧٤٣ ق.م هاجم ارفاد بعد انضمام متع إل الى أعداء اشور (أوراتو).

وفي ٧٤٣ ق.م هاجم حماة ونقل كثيرا من سـكانها ...ر٣٠ للحاجة الـى الايدي العاملة .

وفي ٧٤٠ ق.م دخل ارفاد وجعلها قاعدة لاشور .

وقام في ٧٣٤ ق.م بمهاجمة بيت عموكاني / نابومكين زير وعاصمته شابيا في جنوب بلاد الرافدين .

واخيرا في ٧٣٢ ق.م دخول دمشق بعد سحق المقاومة الارامية فيها .

فمن هذه المعطيات تبين أن التحالف الذي عقده متع إل مع ملك كتك هو تحالف ضد اشور لا معها كما ظن بعض الباحثين . أما حلفاء متع إل فهم الذين بقوا يحاربون اشور الى النهاية وهم ملوك حماة وبابل/بيت عموكاني ودمشق . وان مملكة (كتك) هي ضمن رقعة من هذا الامتداد الجغرافي الذي أشرنا اليه لا خارجه . أما برجاية فهو عاهل لاحدى هذه القوى الارامية البابلية في المنطقة . واذا لم يكن بالامكان حتـى الان القبول بصورة جازمة بأيٍ من الفرضيات المطروحة لتحديد شخصية برجاية أو تحديد موقع كتك فان مصطلحات لا تتحمل اللبس مثل : « كل آرام » و «عالي آرام ، وتحتا» توحي بوجود اتحاد آرامي ضد التوسع الاشـوري في العالم الارامي ، كان برجايـة احـد أطرافـه .

وقد أشارت بعض الفرضيات المعروضة لتحديد شخصية برجاية الى احتمـال كون برجاية ملكا من ملوك احدى المناطق السورية أو الرافدية ، فهو يمكن أن يكـون اسما لملك غير معروف لمدينة يحتمل أن تكون (كاتيكا) عنـد بحيرة الجبول يمكـن أن تكون ذكرت في حوليات تكلات بلاصر الثالث ، وامتدت بين حلب والفرات . وهذا يعني ضرورة البحث في منطقة سفيرة ، ولا يوجد دليل مادي يؤيد ذلك حتى الان .
(A. Alt, 1935; H. Genge, Nordsyrische - Südanatolischereliefs, 1970).

ويرى لاند سبرجر أن كتك يمكن أن تكون مملكة حماة ولعش وهـي حزرك / حتاريكا : أما برجاية فهو الملك الذي خلف زكر . ولكن لا يوجد ما يؤيد هذه الفرضية بعد . أما التعديل الذي اقترحه نعمان (١٩٧٨) فيجعل لعش في موقع بين مملكتي حماة ودمشق . وينقل ملامات الى كي ـ (ات) ـ كا وهو اسم مرمم لمدينة من بيت عديني على الضفة الشرقية للفرات أضحت بعد السيطرة الاشورية مقرا لقائد الجيش شمشي ـ ايلو . (A.Malamat, 1976; J.D. Hawkins RLA, 1982)

ويبقى الراي الذي حرك النقاش الدائر حول الموضوع (انظر : لومير ودوران ، ١٩٨٤) في حيز الفرضية . اذ كيف يمكن قبول قيام تحالف بين متع إل ملك ارفاد مع شمشي ــ ايلو الذي ضرب ارام كلها من شمال ارفاد الى ارام دمشق التي كانت حليفة لارفاد بيت اجوشي .

وفي خضم الاراء المختلفة حول شخص برجاية وموقع كتك ، كان مارتن نوت (١٩٦١) قد اقترح أن يكون برجاية ملكا غير معروف لمدينة كيسك الواقعة في جنوب بلاد الرافدين . وكنا بدورنا في بحثنا السابق (١٩٧٢) ، أكثر تحديدا عندما اقترحنا اسم نابوموكين زر زعيم بيت عموكاني الذي كان معاصرا لمتع إل وبرهدد الثالث ، والذي اغتصب عرش بابل في ظروف شديدة الوطأة على الاراميين والكدانيين في الجنوب وخاض مع ملك اشور تكلات بلاصر الثالث صراعا مريرا ، انتهى بسقوطه وبانتزاع الملك الاشوري عرش بابل أيضا ، ليكون الزعيم الثائر هو العاهل الذي يدل عليه اسم برجاية (ابن الجلال) ، أو (ابن الجاه) . وقد دعانا حينئذ الى هذا الاتجاه دراسة معمقة لحضور الارباب الشهود وترتيبها في القائمة (نقش سفيرة I A) ويأتي في مقدمتها آلهة بابل : مردوك وزربانيت ونابو وتاشميت وشمش . ولكن قراءة أخرى للاحداث التي وقعت في أيام ادد نيراري الثالث وعتر سمكي في سورية الشمالية ، وملاحظة هذا الترابط في المواقف بين متع إل ملك ارفاد من جهة وملك بابل المغتصب للعرش زعيم بيت عموكاني نابومكين زير في شابيا من جهة أخرى (انظر عن الاوضاع في بابل بعد العصر الكاشي : برنكمان (Brinkman (J.A.) PHPKB, 1968) وبرهدد ملك دمشق من جهة ثالثة ، ما يدعو الى البحث عن برجاية وعن مملكته التي دعيت (كتك) في نقوش سفيرة ، في الاطار الجغرافي ــ السياسي للمنطقة قبل عقد عهود سفيرة ، مع ايلاء عناية خاصة الى هوية الارباب الشهود وفي طليعتها إل/ملل ومليشو ومردوك وزربانيت ونابو وتاشميت (من مجمع الارباب في بابل) ، وهدد حلب وسين/شهر حران (من مجمع أرباب العالم الارامي) ، وإل كبير الالهة في العالم الكنعاني .

فهل يمكن أن نجد في نقوش سفيرة محاولة لتوحيد العالم الارامي المجزأ والمهدد من اجل وضع حد لمطامع ملوك آشور وتسلطهم ؟ فاذا كان الامر كذلك ، فلا بد من التريث فترة أخرى لكي يعرف من هو برجاية الذي وقف الى جانب متع إل ملك ارفاد .

جمع معظم مادة هذا البحث اثناء وجود الباحث في مهمة علمية في جامعة شيكاغو (حزيران ــ تشرين الاول ١٩٨٩) .

الفرس الاخمينيون في سورية(١)
(من خلال التنقيبات الاثرية)

د. شوقي شعث
المتحف الوطني بحلب

* مقدمة تاريخية :

ورث الفرس الاخمينيون(٢) الحكم الكلداني (البابلي الجديد) بعد سقوط بابل في نحو ٥٣٨ ق.م ، ويعد المؤرخون هذا الحدث هاما جدا في التاريخ، أنهى حكما ساميا ليأتي بحكم هندوأوربي ، ظل قائما في ظل الفرس والهلنستيين والرومان والبيزنطيين حتى انتهى على يد العرب المسلمين بعد أن خرجوا حاملين عقيدة جديدة وافكارا جديدة قامت على تحرير البلاد والعباد(٣) .

توسعت الامبراطورية الاخمينية التي اسسها كورش (٥٥٠ ـ ٥٣٠ ق.م) شرقا وغربا ، ولم يمض حتى غدت بعد خمس وعشرين سنة من أعظم الامبراطوريات التي عرفها الشرق القديم ، وشملت سورية ومصر واسيا الصغرى في الغرب ، والبنجاب في الشرق ، وامتدت من القوقاز شمالا حتى المحيط العربي جنوبا (المحيط الهندي) ، وعليه ربما كانت هذه المرة الوحيدة التي أصبحت هذه الاراضي الشاسعة فيها تحت حكم مركزي واحد(٤) .

اصبحت سورية في هذا العهد ضمن الايالة الخامسة (المرزبانة) التي كانت تضم لبنان وفلسطين، وتضم أربعة مناطق لكل منها مركز هو مدينة شبه مستقلة، وكانت دمشق من اهم المدن السورية في ذلك العهد ، كما كانت بعض المدن الساحلية ، مثل أرواد وجبيل وصيدا وصور ، على درجة من الاهمية ؛ وقد سمح لها بممارسة الحكم الذاتي مكافأة لها على الخدمات التي قدمتها للامبراطورية الفارسية في حربها مع الجزر اليونانية وفي حملتها على مصر(٥) ، كما سمح لها بصك النقود باسمها .

---

* اعد هـذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ـ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ـ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ ـ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

كان الملوك الاخمينيون يتطلعون الى سورية لموقعها الاستراتيجي الهام ، فهي الممر الاجباري لهم نحو مصر التي كانت تعد من اغنى المقاطعاتفي الامبراطورية ،وطريقا هاما لهم نحو سواحل البحر الابيض المتوسط وبالتالي نحو الاناضول والجزر اليونانية(٦) . وكما انطلقت من موانيها السفن التجارية المحملة بالبضائع الى غرب البحر المتوسط ، انطلقت السفن الحربية لاخماد توارث الايونيين ، وضد اليونان في الحروب الميدية، وضد الاثينيين عام ٤٥٠ ق.م ، وضد السلاميين بقبرص Salamines ، ومما يفسر الاهمية الاستراتيجية لسورية وجود حاميات أخمينية في كثير من مراكز المدن السورية يؤكد ذلك وجود مدافن للجنود الفرس في شمال سورية ، كما في النيرب مثلا(٧) .

على الرغم من السلم الذي فرضه الاخمينيون على سورية ، الذي ساعد على استتبابه التقاء المصالح التجارية السورية والاخمينية ، حيث وجد كل طرف طريقه في الامبراطورية المترامية الاطراف الى تنمية تجارته ، فكان السوريون يتاجرون لصالحهم الخاص أو لصالح الطرفين شرقا وغربا مما ساعد على ازدهار البلاد وغناها، الا ان هذا لم يمنع السوريين من الثورة ضد الحكم الاخميني عندما كانت تتعرض كرامتهم الوطنية للاهانة من قبل الحكام الفرس . فقد كان هؤلاء يظهرون صلفا وتكبرا يزيد عن حده احيانا . وحاولوا أكثر من مرة اهانة ممثليالشعب السوريفي مناسبات كثيرة فرد السوريون بالتمرد والثورة التي اندلعت شرارتها في نحو اواسط القرن الرابع قبل الميلاد ، وعرفت بثورة المقاطعات السورية (٤٤٨ق.م) (٨) ، وتبعتها ثورة اخرى في عام ٣٥١ ق.م انتقلت الى طرابلس وصيدا ، ومدن سورية اخرى . الا أن الفرس تمكنوا من اخمادها(٩) وأجبرت سورية على المشاركة في حروب الاخمينيين ضد المقاطعات الاخرى مثل مصر واليونان ، كما ا جبر المدن السورية على دفع الجزية الى الملك الفارسي الكبير كما يشير هيرودوتس (III, 91) (١٠) .

ساعد اتساع الامبراطورية الاخمينية وامتدادها من الشرق الى الغرب وتواجد الشعوب الكثيرة فيها على ازدهار التجارة العالمية وتلاقح الافكار والثقافات . كما ساعد سك النقود واستعمال اللغة الارامية في التجارة العالمية على ذلك الازدهار ويفسر هذا في الوقت نفسه قوة التأثير السوري في اطار الامبراطورية . الا ان هذه الامبراطورية ارتكبت خطأ تاريخيا فادحا لا تزال الاجيال العربية عامة والسورية خاصة تتذكره بمرارة وهو السماح لليهود الذين وجدهم الفرس ببابل عند احتلالها بالتوطن في فلسطين وليس معروفا فيما بعد اذا كان مرسوم كورش الذي سمح لليهود بالتوطن بفلسطين كان مكافأة لهم على مساعدتهم الفرس بالخيانة التي ارتكبوها ضد الكلدان حين سربوا اخبار ضعفهم الى الاخمينيين ، ام انه كان خطة للتخلص منهم حتى

لا يرتكبوا خيانة اخرى ضدهم ، أم انهم قصدوا بارسالهم الى فلسطين خلـق توازن سكاني وسياسي مع الفئات الموالية للمصريين فيها(١١) ، ومع ان السـكان الاصليين قاوموا ذلك الاستيطان بقيادة شيخهم جشم ، الا أن القوات الفارسية قضت على تلك المقاومـة(١٢) .

*** التطور الحضاري في ظل الحكم الفارسي :**

تميزت الامبراطورية الفارسية الاخمينية عن غيرها من الامبراطوريات الســابقة بطريقة خاصة في الادارة وباجراءات قانونية معينة ، الى جانب استخدام النقد واللغة والكتابة الارامية . وقد ســاهم ذلك في التطور الفكـري والحضاري على مسـتوى الامبراطورية ، مع أن الفرس لم يحاولوا فرض أو خلق نوع من الوحدة الفكرية التامة كما انهم لم يتخلوا عن معتقداتهم ولم يحاولوا استخدام القوة في نشر أفكارهم في بلاد الشام أو غيرها من البلدان المغلوبة(١٣) . وعلى الرغم من ذلك ، وحتى وقت قريب ، كان من الصعب أن يقيم الباحثون الاثر الحضاري الذي تركه الاحتلال الفارسي في سورية وبلاد الشام عامة، ــ الذي استمر قرابة القرنين من الزمان ــ(٥٣٧ــ٣٣٣ق.م) في بلاد الشام ، وذلك بسبب قلة المصادر التي اقتصرت على بقايا النقود وبضعة نقوش هنا وهناك الى جانب بعض الاشارات التي لا يركن اليها ، التي وردت في التوراة وفي كتب المؤرخين الكلاسيكيين(١٤). وفي الاونة الاخيرة نشطت الاكتشافات الاثرية، واظهرت برغم قلتها ، كثيرا من الطبقات الحضارية الاخمينية في المواقع السورية في الداخـل والساحل وفي بعض المواقع الفلسطينية واللبنانية وزودتنا ببعض المعلومات عن تطـور الحضارة في سورية ابان الحكم الاخميني ، وسنعرض فيما يلي الى اهم المكتشفات الاثرية التي تعود الى ذلك العصر .

جرت في سورية تنقيبات اثرية في كثير من المواقع مثل : عمريت ، وتل سوكاس، وتل الكزل ، وتل مرديخ / ابلا ، وتل افس وتل عين دارا ، وتل دينيت ، وتل رفعت . ومواقع حوض الفرات مثل: تل الحاج وتل السويحات وتل العبد ، وراس شمرا ، وراس ابن هانيء ، والمينا . وفي لبنان بمواقع صور وصيدا وبيبلوس وكامد اللوز ، وفي فلسطين تل ابو حوام وتل عراد وتل القدح (حازور) وتل الحسي والسامرة وتل الشريعة وتل القصيلة وغيرها من المواقع وقد اظهرت تلك التنقيبات طبقات حضاريـة تعود الى العهد الاخميني كما أشرنا سابقا .

ففي **عمريت** اظهرت التنقيبات الاثرية التي قامت بها المديرية العامة للاثـار والمتاحف بمعاونة موريس دونان آثارا تعـود الى العصر الفارسي ، وكان قد عثر قبل

ذلك على تماثيل حجرية واجزائها عام ١٩٢٦ تعود الى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد ، ولا شك ان التنقيبات المقبلة ستميط اللثام عن آثار جديدة تعود الى العصر الاخميني(١٥) .

وفي تل سوكاس على شاطىء البحر جنوب مدينة جبلة بنحو ستة كيلومترات ، الذي يقوم على مرفأ طبيعي يعد من افضل المرافىء الواقعة على الشاطىء السوري ، قامت في مستعمرة يونانية في العهد الكلداني ، احتلها كورش الاخميني ودمرها ، الا انها ظلت مسكونة في العهد الفارسي ، وان قل شأنها ، وكذلك في المعهدين الهلنستي والعربي بدلالة وجود كسر فخارية تعود الى تلك العهود(١٦) .

وفي تل الكزل (سميرا القديمة) وجدت طبقة تعود الى العصر الاخميني ويبدو انها كانت تمتد على مساحة واسعة من المدينة من الشرق الى الغرب ، وظهر ذلك جليا في الاسبار الاثرية التي جرت هناك حيث ظهرت كسر فخارية تعود الى الفخار المطلي باللون الاحمر ذي الارضية السوداء ، الى جانب كسر تخص أوان أتيكية ذات طلاء اسود بعضها مزين في اسفله الداخلي بفصينات من النخيل وأشكال تأخذ شكل القلوب وكلها تعود الى القرن الخامس قبل الميلاد وربما عاد بعضها الى الفترات اللاحقة . وهناك ايضا بعض الاواني المصنوعة محليا كالسرج المفتوحة ذات المثعب او المثعبين والصحاف الافقية والقدور الكروية والجرار التي تأخذ شكل الطوربيد ،الى جانب ذلك اكتشف في الطبقة الفارسية دمية برونزية ومعبض عظمي لسكين ، ورأس سهم ، الى جانب ستة رؤوس لدمى فخارية وجدت الى جانب بعضها البعض(١٧) ، وعلى الرغم من اللقى الكثيرة التي تعود الى العصر الاخميني الا انه لم يعثر على بقايا معمارية هامة ومرد ذلك ربما الى استمرار استعمال المنشآت المعمارية ابان العصور اللاحقة .

عموما يظهر من التحريات والتنقيبات التي جرت في تل الكزل ان الموقع كان في العهد الفارسي الاخميني موضع استيطان كثيف ، وربما كانت سميرا في ذلك العهد ميناء بحرياهاما او ربما كانت قريبة من البحر أغننت بالتجارة ، وربما ساعد على ذلك غياب مدينة حماه بعد تدميرها نحو عام ٧٢٠ ق.م على يد سرجون الثاني الاشوري(١٨) .

اما في تل مرديخ / ابلا فقد عثر في المنطقة E في النصف الشمالي الشرقي من الاكروبول على سوية فارسية كما عثر على بعض المباني المتفرقة في المنطقة المنخفضة خاصة في المنطقة الشمالية الشرقية من المنطقة B ، ومؤخرا في الزاوية الجنوبية الشرقية من القطاع B . ويلاحظ ان اللقى المكتشفة في ا لسوية الفارسية تشبه

في تقنيتها تلك التي عثر عليها في العصر الحديدي الثاني وتقاليده المحلية الا انه يلاحظ تأثير يوناني كثيف بدأ في العصر الفارسي وازداد في العصر الهلنستي(١٩) ، ويلاحظ كذلك أن البقايا المعمارية في هذا العصر انتشرت دون تنظيم حول قصر صغير يأخذ شكل مستطيل غير منتظم له باحة مركزية ، أطواله ٣٥ x ٢٥م ، وقد يكون هذا البناء هو الوحيد الذي بني في هذه الفترة على أنقاض قرية من العصر الحديدي الثاني بعد أن سويت الارض ، وبنيت البيوت الخاصة ملاصقة لجدران القصر الجنوبية والغربية والشرقية (٢٠) . ويتألف القصر من باحة سماوية مرصوفة تحيط بها الغرف من الجوانب الاربع ، وفيما بعد صغر حجم الباحة الوسطى لبناء غرف مسقوفة ، كما حدث تغيير في وظيفة الجزء الشمالي من مخطط مبني على نمط بيت‌هيلاني ليصبح هناك فسحة داخلية عامة أو باحة مربعة للعمل الرسمي، كما استبدل به نموذج معماري مغلق له استقلاله الذاتي حصن تحصينا جيدا بجدران حجرية عالية تفصله عن المناطق السكنية التي تحيط به ، وهذا النموذج المعماري معروف جيدا في سورية ، فقد عثر عليه في راس شمرا ومعروف بشكل جيد بفلسطين ابان الفترة الفارسية ، وتطور هذا النوع من القصور في تل مرديخ (شكل ١) وفي أماكن اخرى مثل تل السعيدية (شكل ٢) أو القلعة الشمالية باسدود ، وهذا يشير الى ميل عام الى تحويل القصور في الفترة الفارسية الى أبنية محصنة مزودة بابراج مراقبة(٢١) . وقد يكون سبب ذلك كره السكان المحليين لممثلي الحكومة الفارسية ، وهناك حالات أخرى جاء مخطط القصور الفارسية فيها على نمط القصور الاشورية من العصرين الحديدي الاول والثاني وهو نمط معروف في سورية وفلسطين(٢٢) .

وفي **تل دينيت** ، الذي يقع الى الشرق من مدينة ادلب حيث تنقب المديرية العامة للاثار والمتاحف منذ عام ١٩٧١ ، بادارة كاتب هذا المقال ، عثر في المنطقة(آ)على سوية فارسية هي السوية الثانية في الاكروبول تضم بقايا معمارية فارسية مبنية بالحجارة الفشيمة وببعض الحجارة المسواة ، فيها قاعدة عمود من الحجر الكلسي تزينه أقواس تفصل بينها حليات زهرية على شكل زهرة اللوتس . ويبدو أن العمود الذي كان يرتكز على هذه القاعدة كان من الخشب المكسو بطبقة من الكلس أو الطين ذلك لوجود افريز في أعلى القاعدة ويعتقد ان هذا البناء الذي نتحدث عن بقاياه يخص قصرا من العهد الفارسي(٢٣)، (الشكل ٣) الى جانب البقايا المعمارية عثر على لقى صغيرة تعود الى العصر الاخميني مثل : دمى الخيالة وعشتار وختم مسطح عليه شعار اهورامزدا المجنح وعلى الوجه الاخر صورة لحيوان . وكذلك عثر على ختم مخروطي من الفخار طبعته تمثل طيرا مختزلا ربما كان ديكا ، هذا الى جانب الفخار الاسود اللماع والاحمر اللماع المصنوع محليا او المستورد . وفي المنطقة (ط) عثر ايضا على سوية فارسية فيها بقايا معمارية وكسر فخارية ، وعنصر تزييني مصنوع من الفريت

يمثل قردا وجرار طوربيدية ونلاحظ في تل دينيت أنه في السوية الاخمينية تسود الى جانب التقاليد الفارسية الاخمينيـة تقاليد محلية ارامية وتقاليد يونانية دخيلة (٢٤) .

وفي **تل آفس**(٢٥) الى الشمال من ابلا ، والذي يعتقد أن حزرق او حزاريقا الارامية تقبع فيه ، عثر على لقى فارسية مختلطة بعض الشيء مع لقى الطبقة الهلنيستية . ويبدو أن ذلك راجع الى استمرار استعمال مساكن العهد الفارسي في العهد الهلنستي ، أي أن سكانه من العهد الفارسي ظلوا هم انفسهم في العهد الهلنستي دون تغيير . عثر في هذه الطبقة على بقايا معمارية متطورة من تقاليد محلية سابقة ، كما عثر على لقى أخرى مثل المشابك البرونزية والفخار اليوناني المستورد . وتقوم اليوم بعثة اثرية ايطالية بالتنقيب بالموقع .

وفي **عين دارا** ، قامت المديرية العامة للاثار والمتاحف باجراء تنقيبات أثرية اظهرت عددا من السويات تعود الخامسة منها الى العهد الفارسي الاخميني عثر فيها على بقايا ارضيات غرف ، وعلى دمى فخارية لحيوانات من ذوات الاربع ودمى فرسان وتميمة من الحجر البلوري مثل عليها أهورامزدا الرب الفارسي المتحد مع قوس الشمس المجنح(٢٦) ، كما عثر على جرار فخارية ذات قعر مدبب وأحيانا مجوف (٢٧) . وتتابع اليوم المديرية العامة تنقيباتها بادارة الدكتور علي ابو عساف(٢٨) .

وفي منطقة حوض الفرات عثر في **تل العبد** في السوية الاولى (النصف الثاني للالف الاول قبل الميلاد) على بيوت سكنية تعود الى العهد الاخميني، تشير الى أن سكانها كانوا قرويين يعتمدون في حياتهم على الزراعة ، والمبادلات التجارية مع سورية الداخلية والساحلية وبلاد ما بين النهرين ويؤيد هذا ما عثر عليه من الاواني الفخارية الملونة باللون الاحمر أو اللون الاسود والتي تأخذ شكل القصعات والقدور ، والفخار الاتيكي المتأخر ذي الطلاء الاسود والمصابيح (السرج) اليونانية والدمى التي تمثل الفرسان الاخمينيين واللوحات التي تمثل عشتار(٢٩) .

أما تل الحاج فعثر فيه على سوية من العهد الاخميني لكنها فقيرة باللقى وأهم ما فيها دمى تمثل عشتار ودمى فرسان وصحون اتيكيه مدهونة بالاسود(٣٠) **وفي تل السويحات** عثر على بقايا معمارية تعود الى نهاية عصر الحديد أو الى العصر الفارسي(٣١) . **وفي تل رفعت** تعرفنا على طبقة فارسية (السوية الاولى) عثر فيها على بقايا معمارية ودمى طينية تمثل فرسانا ولوحات عشتار ، وأختام ، ويلاحظ هنا أن الطبقة الفارسية مخربة(٣٢) .

وفي **راس شمرا** اكتشف بناء من العصر الفارسي عام ١٩٣٤ ، أعيد العمل فيه عام ١٩٧٢ ، وقد تبين أن غرفه منتظمة تتحلق حول باحة أرضيتها مفروشة بأحجار غير منتظمة تميل نحو الغرب ، وهي مجهزة بمجرى له الاتجاه نفسه(٢٣) . ويوجد عمودان في الجهة الشرقية ، أو ربما دعامتان من الخشب يعودان الى العصر الاخميني.

بنتائج هذه التنقيبات الاثرية أمكن التعرف علىتطور الحضارة السورية في العهد الفارسي في المجالات المختلفة ، كالعمارة وصناعة الفخار والفنون التشكيلية . كانت نتائج التنقيبات في طبقات العصر الفارسي في جميع المواقع السورية واللبنانية والفلسطينية متشابها تشابها كبيرا فيما بينها . فقد عثر على بقايا مستوطنة فارسية دمرت في مطلع العصر الهلنستي في تل أبو حوام بفلسطين في السوية الثانية(٢٤) المرحلة (B) ، وكذلك في تل عراد(٢٥) (الطبقة الخامسة) بمنطقة بئر السبع ، وفي تل حازور (السوية الثانية) في المدينة المرتفعة (القرن الرابع قبل الميلاد)(٢٦) . وفي تل الحسي (المرحلة الخامسة) عثر على بقايا معمارية وعلى مستودعات حبوب(٢٧) . كما تعرفنا على التيارات الحضارية التي كانت سائدة أو مؤثرة في سورية وسائر بلاد الشام ، ويمكن أن نخلص الى أن السيادة السياسية الفارسية لم تؤثر كثيرا في النواحي الفنية ، ويبدو أن ذلك عائد الى أن الفرس لم يحاولوا فرض حضارتهم على سكان البلاد المغلوبة وركزوا اهتمامهم على التجارة وحمايتها بشتى الوسائل . هذا ويمكن أن نلخص صفات الحضارة في سورية في الفترة الاخمينية الفارسية كما يلي :

١ ـ رسوخ التقاليد الحضارية الارامية المحلية التي كانت سائدة قبل مجيء الفرس الاخمينيين . فقد استمرت الحياة متواترة كما كانت . وقد يكون هذا هو السبب في تنامي الشعور بالتفوق الحضاري على سادتهم ، وعليه لم يحدث تطور كبير يلفت النظر كشكل جديد .

٢ ـ ازدياد التأثيرات اليونانية في هذه الفترة بدلالة وجود كثير من اللقى الاثرية الفخارية وغيرها المستوردة من بلاد اليونان ، ولا بد من القول ان المستعمرات اليونانية التجارية كانت موجودة قبل الفرس لكنها تطورت في عهدهم بسبب التجارة . وقد أظهرت التنقيبات في تلك المستعمرات كميات كبيرة من الفخار الاتيكي الاحمر والاسود الذي أصبح شائع الاستعمال . كما أصبحت النقود اليونانية متداولة بين الناس قبل مجيء الاسكندر بنحو قرن وربع ، وقلدت محليا منذ منتصف القرن الخامس وذلك برغم وجود النقود الفارسية . (المبادلات الدولية كانت تتم بالدراخما اليونانية أما المبادلات المحلية فكانت بالعملة الفارسية أو المحلية) .

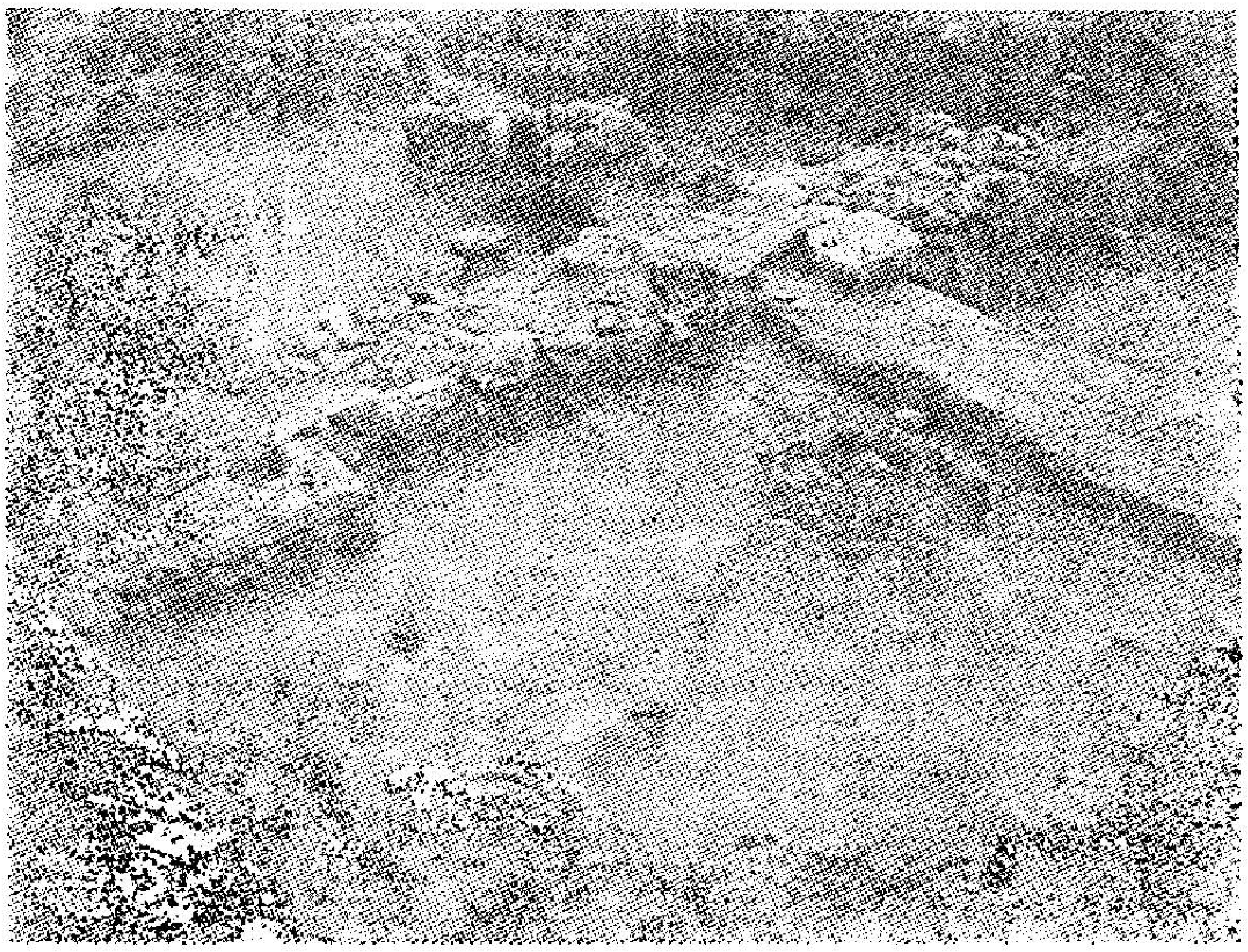

صورة ما يعتقد انه قصر من العصر الفارسي الاخميني (تل دينيت ـ سورية)

٣ ـ شيوع استعمال اللغة الارامية بشكل واسع لدرجة أنهـا أصبحت اللغـة الوحيدة التي كان يتعامل بها الحكام الفرس فيالمراسلات الدبلوماسية والتجارية وظلت كذلك حتى القرون الميلادية .

خلاصة القول ان هذا العصر هو عصر سـوري آرامي حضـارة وتجارة برغـم السيادة السياسية الفارسية ، وان جلبت تلك التجارة معها بعض المـواد الحضارية الى سورية من الشرق أو الغرب .

* * *

الحواشـــي :

(١) يطلق العلماء على هـذه الفترة كثيرا مـن التسميات اعتمادا على المكتشـفات الاثريـة التي ظهرت في هذا العصر ، فمنهم من يطلق على هذا العصر الحديدي الثالث ٥٥٠-٣٣٠ ق٠م
Albright W.F., Archaeology of Palastine pp. 142-146
ومنهم من يفرد له عصرا يسـميه العصـر الفارسي الاخميني
Nozzoni S., The Persian and Hellenistic settlinents, Athens 1971 .
ويسميه ريس Riis العصر الفينيقي الجديد ويسـمه بريدوود Suke, Koben. 1970
العصر السـوري-الهليني Syro-Hellenic
وهناك تسميات أخرى منها : العصر الارامي اليوناني أو الفارسي اليوناني ونحن نفضل تسمية بالعصر ارامي المتأخر .

(٢) حملت هذا السـلالة اسم السـلالة الاخمينية تسمية بالعصر الارامي المتأخر .

(٣) حتي ، فيليب تاريخ سـوريا ولبنانوفلسطين جـ١ ترجمة جـورج حداد وعبد الكريـم رافق ، دار الثقافة بالاشـتراك مع مؤسـسـة فرانكلين ، ١٩٥٨ ، ص ١٣٩ .

(٤) حتي ، المصدر نفسه ص ٢٤٠ ، ولنفس المؤلف لبنان في التاريخ منذ أقدم العصـور التاريخية حتى عصرنا الحاضر ، مؤسـسـة فرانكلين ١٩٥٩ ص١٨٥ .

(٥) حتي فيليب ، تاريخ سوريا ولبنانوفلسطين ص ٢٤٦ .

(٦) SARTRE M., la Syrie soue la domination Achéménide dans Archeologie et Histoire de la Syrie II, p. 12.

(٧) المصدر نفسه ص ١٢ ، ويضيف في نفس المقال (ص ١٤) ان سـوريا كانت هامـــة للاخمينين لانها قدمت لهم كثيرا من مـواد البناء لبناء قصورهم ومعابدهم في سوزا وغيرها من العواصم الملكيـة ، هذا الـى جانب بناء قصور نبلائهم الذين سكن بعضهم في سـوريا .

(٨) SARTRE , op. cit. p. 14.

(٩) حتي ، تاريخ سـورية ..ص ٢٤٨.

(١٠) SARTRE , op. cit. p. 14.

(١١) حتي ، تاريخ سـورية ..ص٢٤٢ .

(١٢) الدباغ مصطفى : بلادنا فلسطين جـ١/ق١ ص٥٨٥ ، ويضـيـف الدبـــاغ ان الفرس الاخمينين وجدوا في اليهود جواسـيس لهم وعنصرا من عناصر بذر الفرقة بين خصومهم بفلسـطين ، وعونا لهم في احتلال مصر .

(١٣) مورتغـات : تاريخ الشـرق الادنى القديـم تعريـب توفيـق سـليمان واخـرون (بلا تاريخ) ص ٣٧٨ وانظر كذلك : ج.ب جروندى G.B. Grundy في مقاله : « الفرس وامبراطورية الشاه الاعظـم » الذي كتبه في « تاريخ العالم » الذي نشره السـيرجون هاملتون المجلد الثاني ص٤٦١.

(١٤) حتي ، لبنان في التاريخ ص ١٩١-ص١٩٢.

(١٥) انظر دليل المتحف الوطني بدمشـق ،الطبعة الاولى ١٩٦٩، وضعه امناء المتحف ، قاعـة المنطقة السـاحلية ص٤٠-ص٤٢ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٦.

(١٧) دونان وبني وصليبي : التنقيب في تلالكزل تقرير اولي ، الحوليات السـورية ، م ١٤ (١٩٦٤) ص ٢٠١- ص ٢٠٢ .

(١٨) المصدر نفسه ص ٢٠٨ . هذا وقد عاودت التنقيب في تل الكزل بعثة اثرية تابعـــة للجامعة الامريكية ببيروت.

(١٩) Mazzoni S. OP. Cit. p.81

(٢٠) Mazzoni Ibid , p. 83.

(٢١) Mazzoni Ibid, p. 87.

(٢٢) Mazzoni Ibid, p.87 ; Albright p. 145.

(٢٣) SHAATH Shawqi. Tell Denit, Studi Archeoloici et Topo grapnie unpublished desserta-tion 1976 -- 1977.

(٢٤) شعث ، شوقي : نتائج التنقيب الاثري في تل دينيت ، الحوليات الاثرية السورية ٤٠ (١٩٩٠) ص ٥٧-ص٦٢ .

(٢٥) MAZZONI S. (ed) Tell Afis et l'eta clel Farro Seminari di Orientalistica - 2 /1992.

وفي هذا الكتاب مقالات عن تل افس ومحيطه.

(٢٦) الصيرفي ، فيصل : حفريات عين دارا ، الحوليات الاثرية السورية (١٠) ١٩٦٠ ، ص ٩٦ .

(٢٧) الصيرفي : المصدر نفسه (١٥/٢) ، ١٩٦٥، ص ١١١ .

(٢٨) ابو عساف ،علي : انظر المقال المنشـور في الحوليات الاثرية السورية م ٣٣/١-٢ ، حول متابعة التنقيب الاثري بموقع عين دارا ص ٦١ ، ٩٢ ، و ص ٢١-٦٩ .

(٢٩) دليل مكتشفات حوض الفـرات ص ٢٧ (١٩٧٤) .

(٣٠) المصدر نفسه ص ٩٧ .

(٣١) المصدر نفسه ص ١٠١ وكذلك انظر :
— T.A Holland , Preliminary report on excavations at T. Swey'hat Syria 1973 - 4 Levant Vol. VIII (1976) pp. 40 - 41 .

(٣٢) Seton WILLIAMS, Preliminary repolt on tlu excavation at Teu Rifât, IRAQ Vol. XXIII Spring 1961 pp. 68 - 87 and pls. XXXI-XLE .

(٣٣) شتوكي ،رالف : تنقيبات رأس شمرا / أوغاريت ، تقريـر أولي الموسم الثـالث والثلاثون (١٩٧٢) م ٢٣ (١٩٧٣)ص٣٥٩ .

(٣٤) Eneyelopedy of Excavatlin Vol. I p. 10 .

(٣٥) Ibid p. 83 .

(٣٦) Ibid Vol. II p. 495 .

Ibid Vol. II p. 520 .

(٣٧) وانظر كذلك :
Albright, Archaeogy .... pp.142 - 143 .

* * *

اعمال التنقيب السورية في تل سيانو

د. عدنان البني
المديرية العامة للآثار والمتاحف
سورية

نعرف من نصوص أوغاريت ان مملكتين صغيرتين في التخوم الجنوبية لتلك المملكة الباهرة ،تحملان اسم سيانو واشناتو ، متحدين مختلطتين حينا ، ومنفصلتين احيانا، كانتا في ممتلكاتها وانفصلتا عنها . ومع اتحادهما كانت تتمتع كل منهما بملك. والاجماع الان ان سيانو هي في تل سيانو(١) ، أما أوشناتو فهي في أحد مواقع ثلاثة(٢) . وما يعنينا في هذا البحث هو المملكة الاولى .

تل سيانو واحد من اكبر خمسة تلال أثرية على الساحل السوري، يقع على خط الطول ٢٢ر٣٥ ، وخط العرض ٠٠ر٣٦ الى الشرق من مدينة جبلة ، وعلى بعد حوالي ثمانية كيلومترات منها(٣) ، ويمر الى الجنوب منه نهر الحداد(٤) . تبلغ مساحة التل، انطلاقا من خط تسوية النهر ، قرابة عشرة هيكتارات ، ويرتفع ٤٠ر١٤٨م عن سطح البحر . اما ارتفاعه عن مستوى السهل المحيط به فهو وسطيا نحو ٤٠ مترا . وفي ذروة التل نقطة مساحية مثلثاتية من الدرجة الثالثة ترى من كل الجهات .

أصل تل سيانو رابية طبيعية من الغضار البني الضارب الى الصفرة ، تراكمت فوقها الطبقات الاثرية بارتفاعات مختلفة . وتتسنم التل أجمة تظلل بضعة قبور أهمها قبر الشيخ علي (غانم) الذي يحمل شاهدة مؤرخة في القرن ١٢ هـ . والاشجار في الاجمة وعلى بعض سطوح التل هي البلوط والسنديان والصنوبر والزعرور وغيرها . وفي الوضع الراهن نجد أقساما كبيرة من تل سيانو على شكل جروف متدرجة تزرع بالزيتون والحبوب . وبقرب التل وحوله تقوم بيوت قرية سيانو . وثمة بئر اثرية شهيرة فيها تعرف باسم بئر سيانو تقع الى الجهة الغربية من القرية .

ما زالت في الاقسام السفلى من التل وفي جواره القريب معالم أثرية ظاهرة او مختفية كشفت عن بعضها أعمال المشاريع العامة المختلفة ، منها سرداب او نفق في

---

* اعد هذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ – ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ – ٢٢ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ – ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار – حزيران ١٩٩٣ .

الجهة الشرقية ، تردد الحديث عنه - وسنقوم بدراسته علميا وتحديد زمنه وطبيعته مستقبلا - ومنها أيضا ما نرجح انه جبهة مدفن بزخارف كلاسية من ايام الرومان كتب عليها باليونانية « (سنة ... شهر) ابيلايوس ، اليوم الرابع ، تيودود بن ابولونيوس (بنى هذا او اقام هذا الـ ....) » .

ومن شكل الحروف يقدر أن تاريخ الكتابة هو النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي أو مطلع الثالث ، أيام اسرة السفيرة السورية - البرقاوية . وفي التل قطع حجرية متناثرة مختلفة الاشكال كانت في الاصل تابعة لمبان أزيلت ، اذ كان التل ، وحتى زمن قريب ، (مقلعا) تنزع منه الحجارة المنحوتة وتبني بها مساكن المنطقة .

* * *

اسباب التنقيب الاثري في تل سيانو :

اشير مرارا الى أهمية تل سيانو من الوجهة الاثرية ، بعد القيام بزيارات منهجية له ، والوقوف على حجمه وشكله والبقايا المبعثرة فوقه ومن حوله ، ونماذج الفخار الوفير المنتشر على سطوحه . وقد زاره زيارة أثرية اميل فورير في عام ١٩٣٤(٥) ، وقدر انه عاصمة مملكة سيانو ، كما زاره زيارة استكشافية أثرية بول ريس(٦) ، وكذلك عدد من الزملاء السوريين والاجانب ، وسجلته المديرية العامة للاثار والمتاحف عام ١٩٧٩ موقعا أثريا(٧) . وقمنا مع الاستاذ جبرائيل سعادة وبعض الزملاء بجمع نماذج الفخار منه وتصويره في ١٩٨٣ .

وفي شباط ١٩٩٠ اثارت رئيسة دائرة آثار اللاذقية السيدة نجوى خاسكية موضوع الخطر المحدق بالتل وضرورة التنقيب فيه وذلك في تقرير خاص فكلفت رسميا بدراسة وضع التل الحالي من كل النواحي كما كلف السيدان بسام جاموس وجمال حيدر باعداد وصف لوضع التل أثريا فوصفا دراسة أولية حسنة .

وحدث حادث غيّر سير الامور وأدى الى ضرورة البدء فورا بالعمل . ففي أواخر حزيران من العام ١٩٩٠ اخترقت آليات شركة في اللاذقية (ريما) الاجزاء الدنيا من التل بعمق شديد ، وانكشفت في الجهة الغربية منه معالم اثرية . فأوقف العمل واقيمت حراسة على التل ، وجرت أعمال توسيع وتوضيح لمعصرة زيت من العصر الروماني المتاخر ، بخزانها والبلاط الفسيفسائي ذي المكعبات الكبيرة(٨) . وتولى هذا العمل السيد وجيه الملاح بتكليف من دائرة آثار اللاذقية .

تشكيل البعثة وتوقيتها :

عهدت لنا المديرية العامة للاثار والمتاحف بادارة بعثة سورية واسعة لاجراء عمليات تنقيب شاملة في هذا التل ، بدأت العمل الفعلي من ٧ تموز حتى منتصف ايلول ١٩٩٠ ، وشارك فيه السيد ميشيل مقدسي نائبا للمدير والسيدة نجوى خاسكية ، والسيد باسم جاموس والمهندسة نهى دروس والسيد هيثم حسن والانسة غادة عزوز ، بالاضافة الى بعض متطوعين وطلاب دبلوم الاثار بجامعة دمشق ، اسهموا بالعمل بعض الوقت .

وفي الموسم التالي ١٩٩١ ، كان تشكيل البعثة نفسه تقريبا بالاضافة للانسة سهام اسماعيل . وشارك فيه عدد من طلبة دبلوم الدراسات العليا في قسم الاثار بجامعة دمشق وطلاب المعهد المتوسط للاثار . وفي الموسم الثالث ١٩٩٢ كان الاستاذ ميشيل مقدسي مسؤولا عن ادارة البعثة ميدانيا ، مع اضافة الاستاذ احمد سرية والسيد سهل مشارقة والسيد غسان القيم الى البعثة . وامتد العمل كالعادة من نحو منتصف تموز الى منتصف ايلول ، وبلغ مجموع المساحات المنقبة في ذروة التل وعلى السطح الشمالي والشمالي الغربي والاسبار الموزعة في عدد من أجزاء التل ، اثنين واربعين بمقياس ٥×٥ م .

مدينة سيانو في النصوص القديمة :

لم يرد ذكر مدينة سيانو ، مثلها مثل اوغاريت وارواد ، في حوليات الملك المصري من الاسرة الثامنة عشرة ، تحوتمس الثالث (نحو ١٤٨٣ ــ ١٤٥٠ ق.م) بعد ان قام بسبع عشرة حملة على ممالك سورية المتمردة دوما ، وسجل أخبارها على جدران معبد الكرنك . وفي عهد خليفته الفرعون امنحوتب الثاني (نحو ١٤٥٠ ــ ١٤٢٥ ق.م) سعت مملكة أوغاريت التي كانت تحكمها سلالة كنعانية وطنية للدخول رضائيا في نطاق النفوذ المصري(٩) ، محتفظة باستقلالها ، تأمينا لمصالحها التجارية ، وسادت ، فضلا عن ذلك على جارتها الجنوبية مملكة سيانو/أوشناتو المزدوجة . واحترم المصريون هذا الواقع الجديد .

وثمة رسالة طريفة من تلك الفترة ، محررة بالبابلية ، من رجل يسمى شيني تيشوب الى سيده ملك اوغاريت عن مهمة اتمها في مدينة سيانو يقول فيها حرفيا:

الى سيدي ملك اوغاريت. ان خادمك شيني تيشوب يقول : عند قدمي مولاي اسجد من بعيد سبع مرات ، أثر سبع مرات . فيما يخص ملك أوغاريت كل شيء يسير على ما يرام . أرسل اخبارك لخادمك بعودة البريد . طبعا لما طلبه مني سيدي واجهت الرجل المغرر به بحقيقة نفسه فخجل ووشى بالرجال الذين افسدوه ولكن كيف الوصول اليهم(١٠) .

ومن اخبار سيانو في أوغاريت رسالة محررة بالاوغاريتية من ملك سيانو على الارجح(١١) جاء فيها : يقول ملك (سيانو) للملك أوغاريت يا اخي سلام عليك ، لتحفظك الارباب ، اني مرسل اليك رسولي أوخورا ليعالج بعض القضايا التي تخصني فارعاه يا اخي حتى يوم عودته. وارسل لك أيضا ابن سوراتو ليبحث بعض قضاياي والمشكلة الحاصلة مع رجل بالووان ابن سوراتو وابن نعمو سيمثلان امامك فاقض بينهما ولتكن تسوية عادلة مع رجل بالو .... وان رجالا من بيروت(١٢) . من الذين ادعو بانهم يسعون للحصول على بعض المشروبات من أوغاريت ارتكبوا اعمالا معادية. .الخ.

وفي عصر العمارنة والاصلاح الديني في مصر ضعف النفوذ المصري في بلاد الشام وبخاصة في الشمال والساحل . وكانت الممالك الساحلية تطلب نجدة مصر دون جدوى وتبقى الرسائل مكومة في محفوظات امنحوتب الثالث ، وأمنحوتب الرابع (اخناتون) بخاصة . وفي هذه النصوص ذكر لمدينة اسمها تيانا يعتقد بأنها سيانو . ففي أحد النصوص نجد يباخو حاكم ، أو ملك مدينة غزرو ، يشكو من عداوة أخيه البكر ويذكر فيها أن مدينة تيانا ضده . وثمة نص فيه شكوى من شوباندو ملك مدينة اخرى يذكر ان تيانا في حالة حرب معه (١٣) .

وفي ايام نقماد ملك اوغاريت (نحو ١٣٧٠ ـ ١٣٣٠ ق.م) عقدت في حدود عام ١٣٦١ ق.م معاهدة بينه وبين عزيرو ملك أمورو (بلاد الاموريين) ، شملت بنودها عهدي خيبات ملك سيانو ، تذكر المعاهدة مناوشات في غياب الملك عزيرو بمصر بين بعلويا الوصي على عرشه وبين عبدي خيبات ملك سيانو ، الامر الذي يدل على وجود تخوم مشتركة بين سيانو وأمورو(١٤) .

وفي أيام الملك الاوغاريتي نقما بن نقماد (نحو ١٣٣٠ ـ ١٢٧٠ ق.م) ازداد النفوذ الحثي في شمال سورية ، وتسرب الى الساحل ، وخرجت سيانو من فلك اوغاريت وارتبطت بمملكة كركميش (جرابلس)(١٥) ، التي كان الحثيون قد اتخذوها مركزا على الفرات لمراقبة الشؤون السورية(١٦) . وكان ذلك بين ١٣٣٦ و ١٢١٥ ق.م (١٧) .

ايد الملك الحثي مرسل الثاني (نحو ١٣٥٠ ـ ١٣١٥) الوضع الجديد الذي كان حتما بتدبير الحثيين ، وعين الحدود بين مملكة اوغاريت ومملكة سيانو أكثر من مرة . ولقد اغضب هذا الامر أوغاريت لان سيانو كانت تابعة لها ، ولان كركميش بعيدة ولا حدود مشتركة بينها وبين سيانو .

كان ملك اشناتو وملك سيانو يقدمان التزامات للملك اوغاريت ، وبعد انفصالهما عن تبعيته لم تعد هناك ضرورة لذلك . وقد اقر الملك الحثي مرسل الثاني هذا الوضع الجديد الذي اصبحت مملكتا سيانو واوشناتو بموجبه تابعتين بشكل ما للحثيين ولكركميش ، والت بعض مداخيل المملكتين لهم وخسرتها أوغاريت ، الامر الذي جعلها تتلكأ بدفع الجزية المعتادة للحثيين . واشتكى ملك أوغاريت نقماد للملك الحثي مرسل الثاني من انه لا يستطيع الاستمرار في دفع الارزاق التي كان يدفعها اسلافه لهم بسبب اقتطاع مملكتي سيانو واوشناتو ، فخفض الملك الحثي جزية اوغاريت الى ٢٥٠ شاقلا من الذهب ، مثلها في ذلك مثل مملكة امورو .

وقد وجد نص في قصر اوغاريت الملكي يقول على لسان الملك الحثي مرسل الثاني: مرسل الملك الكبير ، فصل عبد عنات ملك سيانو وأولاده عن أوغاريت واعطى سيانو للملك كركميش كي تكون في خدمته . سيانو مع مدنها المجاورة وحدودها وجبالها اعطاها بموجب صك مختوم الى ملك كركميش(١٨). وفي نص اخر يقول الملك الحثي نفسه انه حدد الحدود بين أوغاريت وسيانو وانه ثبت مدنا سماها لاوغاريت وانه قسم الملاحات بين نقماد ملك اوغاريت وعبد عنات ملك سيانو . وعلى ملك سيانو ان يدفع في شهر شباط من كل عام خروفا واربع جرار من الخمر مثل ما كانت العادة في ايام الملك ساسيا(١٩) . والملك ساسيا هذا ربما كان مؤسس مملكة سيانو(٢٠) .

وبرغم التحكيمات والمراسيم الحثية ظلت مسألة الحدود بين اوغاريت وسيانو مثار مشكلات كثيرة خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م ، نقرأ صدى ذلك في مراسلات عدة بين ملوك الحثيين وكركميش وأوغاريت وسيانو واوشناتو . من ذلك ذلك ما جاء في جزء من مرسوم عليه ختم الملك الحثي توداليا الرابع (نحو ١٢٦٥ ــ ١٢٣٥ ق.م) عثر عليه في القصر الملكي باوغاريت يتضمن تسوية بين آرى تيشوب ملك سيانو ومعاصره في أوغاريت ، وهو حتما الملك عشتمرو الثاني (١٢٦٠ــ١٢٣٠)، وبتعلق هذه التسوية بمدينة سوكسي (تل سوكاس) وملاحات مدينة اتاليغ(٢١) وكان ذلك في اواخر أيام اوغاريت .

بعد اجتياح شعوب البحر للساحل السوري في نحو عام ١١٨٥ق.م وانهيار المملكة الحثية والمملكة الاوغاريتية ، واكثر ممالك الساحل السوري من الامانوس حتى رفح ، بدات فترة معتمة غامضة في هذا الساحل(٢٢) .

وفي نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، اخذت دولة آشور تحاول شق منفذ لها على البحر . وتابع الملك الاشوري تغلات فلاصر أول (١١١٢ ــ ١٠٧٤ ق.م)

غزواته حتى البحر المتوسط لكنه لم يدخل في نزاع مع الممالك الارامية في الداخل أو المدن الكنعانية على الساحل . وتوقفت الحملات الاشورية من بعده حتى اواخر القرن العاشر ق.م . ومنذ عهد الملك الاشوري حدد نيراري الثاني (٩١١ — ٨٩١ق.م) بدأت المحاولات من جديد ولم تنقطع حتى عصر سلالة الملك السرجونيين (٧٢٢ — ٦١٢ ق.م) . فاجتاز الملك آشور ناصر بعل الثاني (٨٨٣ — ٨٥٩ ق.م) الفرات الى بلاد الشام وكان بين الممالك التي قدمت له الهدايا ، الممالك الكنعانية الغنية على الساحل . وفي حكم خليفته شلمنصر الثالث (٨٥٩ — ٨٢٤ ق.م) حدث الارتطام. ومن اخباره المنقوشة على المسلة السوداء(٢٣)، وعلى صفائح البرونز على باب بالاوات(٢٤) ، نعرف أنه وصل الساحل في أول سنة من حكمه ، اذ ذكر انه غسل سلاحه في البحر الذي تغيب فيه الشمس . وحين هزمه ، عام ٨٥٣ ق.م ، الملوك الكنعانيون والاراميون ، والسوريون عموما ، بزعامة ملك دمشق بر حدد ، في معركة قرقر(٢٥) كان معهم ملكا سيانو وأوشناتو. وذكر شلمانصر الثالث أن أدونو بعلي (ملك سيانو قدم للمعركة ٣٠ عربة وألف جندي(٢٦) وان الاوشناتيين قدموا ٢٠٠ جندي(٢٧)

ويذكر ابنه تغلات فلاصر الثالث (٨٤٥ — ٨٢٨ق.م) في حولية السنة الثالثة من حكمه انه الحق بآشور مدنا عديدة منها مدينتا أوسنو (أوشناتو) وسيانو(٢٨) . ويذكر في نص آخر انه ضم هاتين المدينتين مع غيرهما ووضع ضباطه حكاما عليها(٢٩) . وكان ابنه شلمنصر الخامس واليا على الساحل الكنعاني قبل أن يصير ملكا بين ٧٢٨ — ٧٢٢ ق.م .

خلف شلمنصر الخامس سرجون الثاني (٧٢٢—٧٠٥ق.م) وعند انشغاله بالحروب مع بابل استعادت مصر نفوذها في بلاد كنعان، وتجمعت الممالك السورية ساحلا وداخلا بزعامة حماة ضد الاشوريين ، وخاضت ضد سرجون الثاني معركة قرقر الثانية عام ٧٢٢ ، وكانت الغلبة فيها للاشوريين . وليس لدينا ما يدل على ان مدينتي سيانو واوشناتو كانتا بين المدن التي شاركت في هذه المعركة . ومن الساحل قام سرجون الثاني بحملة على قبرص ، فعبر البحر في سبعة ايام ، ونزل في قبرص عام ٧١٣ق.م وذكر أنه اصطادها كما يصطاد السمك وأقام فيها تمثالا له على الطريقة الاشورية(٣٠) ثم استعادها ملك صور (لولي) ، وبتشجيع من مصر سيطر هذا الملك على المدن الكنعانية في الساحل ، لكن سنحريب (٧٠٤—٦٨١ ق.م) استعادها .

ونظرا لاهمية سيانو واشتراكها بشكل فعال في احداث الالف الاول ، اثرت في محرري التوراة اليهودية . فقد جاء في سفر التكوين(٣١) ان اهل سيانوهم من نسل السيني سابع ابناء كنعان . وقلد التوراة يوسيفوس اليهودي الذي يضع سينايوس

بين ابناء كنعان(٢٢) ، وتبعهما في ذلك القديس جيروم(٢٣) . وفي الواقع ان أكثر هذه العروق المزعومة هي أسماء مدائن مثل صيدا وعرقة وسيانو وأرواد وصمور (تـل الكزل) وحماة .

وفي أواخر القرن الثامن اختفى اسما سيانو واوشناتو اللتين ذابتا في مملكـة ارواد الناهضة . هذا وان عدداً من اسماء ملوك سيانو وارد في النصوص ، فمن أيام أوغاريت هناك سياسيا مؤسس السلالـة على الغالـب وباسـمه الختـم السلالي للمملكة(٢٤) ، وعبد عنات المعاصر لنقماد ملك أوغاريـت ، وآري تيشـوب المعاصـر لامشتمرو الثاني ملك اوغاريت . ومن أيام معركة قرقر الاولى (٨٥٣) نعرف اسم الملك ادونو يعني (٢٥) .

أما المدن أو بالاحرى البلدات التي كانت تابعة لسيانو في أيام اوغاريت، وبعـد انفصالهما فقد ورد عدد منها في احد الرقم الاوغاريتية الذي يتعلق بمواطني مدينـة اسمها قاراتو مقيمين في مختلف بلدات مملكة سيانو(٢٦) ، وفيما يلي أسماؤها وقـد وضعنا أمامها ما يقابلها حاليا في رأي م.استور(٢٧) .

جي	ـ	مـا	ـ ني	....
لا	ـ	شا	ـ بي	....
سي	ـ	ال	لا	أو (سيلايا) لعلها عين سيلو
دو	ـ	مـا	ـ تي ـ في (ادـ شي)	....
مـو	ـ	اور	ـشاـ آ	ولعلها مارشته
جا	ـ	لي ـ لي تو ـ كي ـ يا		وقد يكون تل جلال
او	ـرا		ـ آ	....
قي	ـ	ام	ـ صي	قمصو على الراجح
شابا	ـ	ال		....
صا	ـ	.		صايا على الراجح
مـار	ـ	دو	ـ شي	مرداش
ام	ـ	مي	ـشاـبي	....
آر	ـ	مي	ـلي	بيت الارملة
مـا	ـ	را	ـال	بعمرائيل احتمالا

موجز نتائج التنقيب في المواسم الثلاثة الماضية (١٩٩٠ – ١٩٩١ – ١٩٩٢):

خلال المواسم الثلاثة الماضية اظهرنا في السوية الرابعة من التل(٢٨) جزءا اساسيا من منشأة حصينة تراوح سماكة جدرانها بين ٢.١٠ و ٢.٥٠م ، كانت بداية انشائها في مطلع عصر الحديد الثاني (نحو القرن الثامن ق.م) ووسعت بمرور الزمن ، واخر تعديلات احد اضافات لها جاءت في عصر الحديد الثالث (نحو القرن الخامس قبل الميلاد) . وبدلالة نماذج الفخار المكتشف حتى الان نعتقد أن هذه المنشأة قد هجرت حوالي القرن الرابع قبل الميلاد . وذلك يوافق زمن احتلال الاسكندر المكدوني للمنطقة (٣٣٣ ق.م) واخذت تنهار واستلبت حجارتها في ايام الرومان ، وفي أواخر العصر البيزنطي ،وخلال فترات من العصر العربي الاسلامي ، كانت اطلالها تستخدم للسكن من جديد ولكن لم يبق من تلك الفترة الا ثلاثة تنانير وارضية سطحية بعد ان اجتثت الاعمال الزراعية المتاخرة كل الجدران . وقد المحنا لذلك من قبل .

اما السوية السادية فهي حتى الان السوية الاهم في القطاع الذي جرى التنقيب فيه من التل . وهي تعود لعصر البرونز القديم الثالث والرابع ، وفي الفترة الاخيرة منها مرحلتان آ و ب . تشكل الجدران في هذه السوية مجموعة سكنية تكاد تلامس سطح التل في وضعه الراهن وتتكون الجدران من الحجر النهري (الغشيم)المستدير أو الحجارة الكلسية نصف المشذبة ، وهي منفرسة أو مغلقة بطبقة من الغضار الاصفر يصل سمكها الى نحو نصف المتر . وكل ما في هذه الطبقة أو فوقها أوان شبه كاملة من الفخار المشط الجيد الشي،ذي الرنين المعدني تقريبا ، واللون الزهري والرمادي والسكري الفاتح عموما ، وقد استخدم الرمل الابيض في تقوية عجينتها . وهذا الفخار الجميل يصاحبه اكواب واقداح أكثرها من الفخار السكري لها كعب حقيقي أو قرصي من النماذج المعروفة في سهل العمق وابلا وحماه . وفي هذه السوية ايضا فخار رقيق جميل مائل للحمرة ملمع ، واخر مزين بشرائط سوداء . ونحن بصدد دراسة الفخار واللقي والصور بشكل معمق حتى نصل الى استنتاجات اكثر وضوحا.

ان السويات التي وقعنا عليها وحاولنا تحديدها مبدئيا قد تقل او تكثر مع تقدم العمل ولكن خطوطها الكبرى حاليا لا توائم بعض المعروف من تاريخ سيانو . اذ أننا في هذا القطاع من التل لم نعثرعلى سوية من عصر البرونز الحديث (الرابع عشر والثالث عشر ق.م) وهي فترة علاقة سيانو بأوغاريت والحثيين والمصريين ، فهي اما ان تكون قد زالت بالانتكال في هذه الجهة وسنجدها في مكان اخر من التل ، او انها في مكان ما قريبا منه .

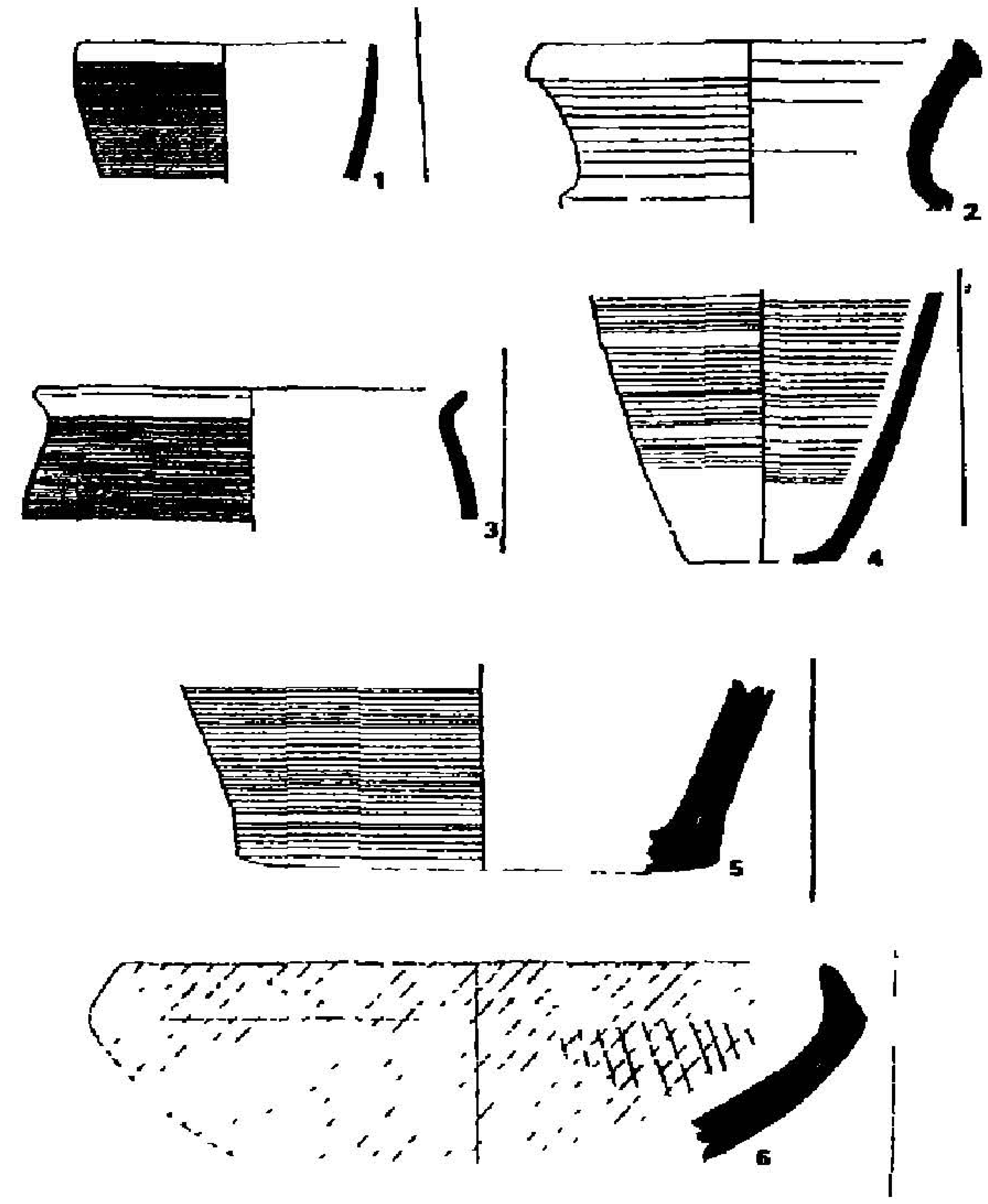

نماذج من فخار عصر البرونز القديم الثالث في سيانو

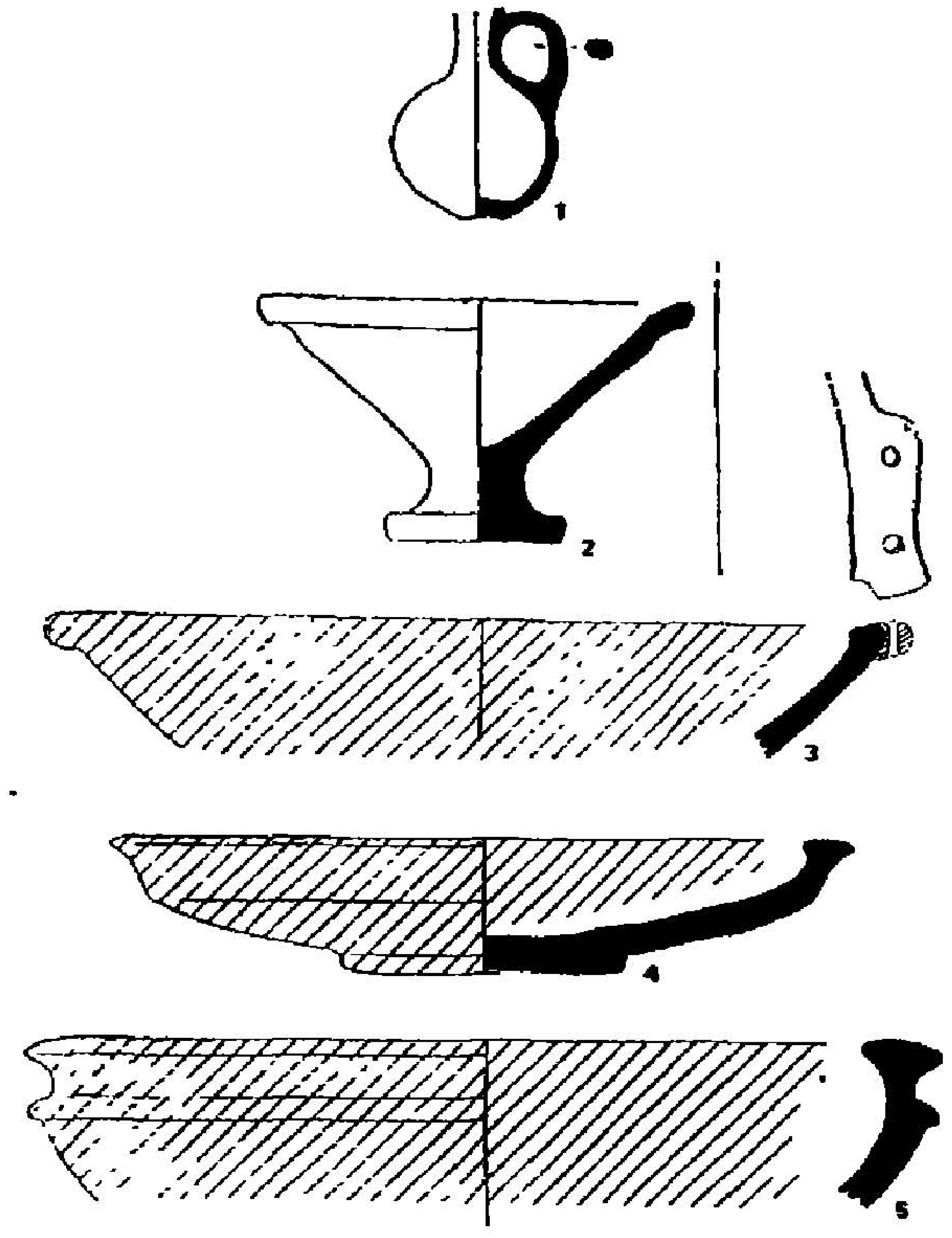

نماذج من فخار عصر الحديد الثاني في سيانو

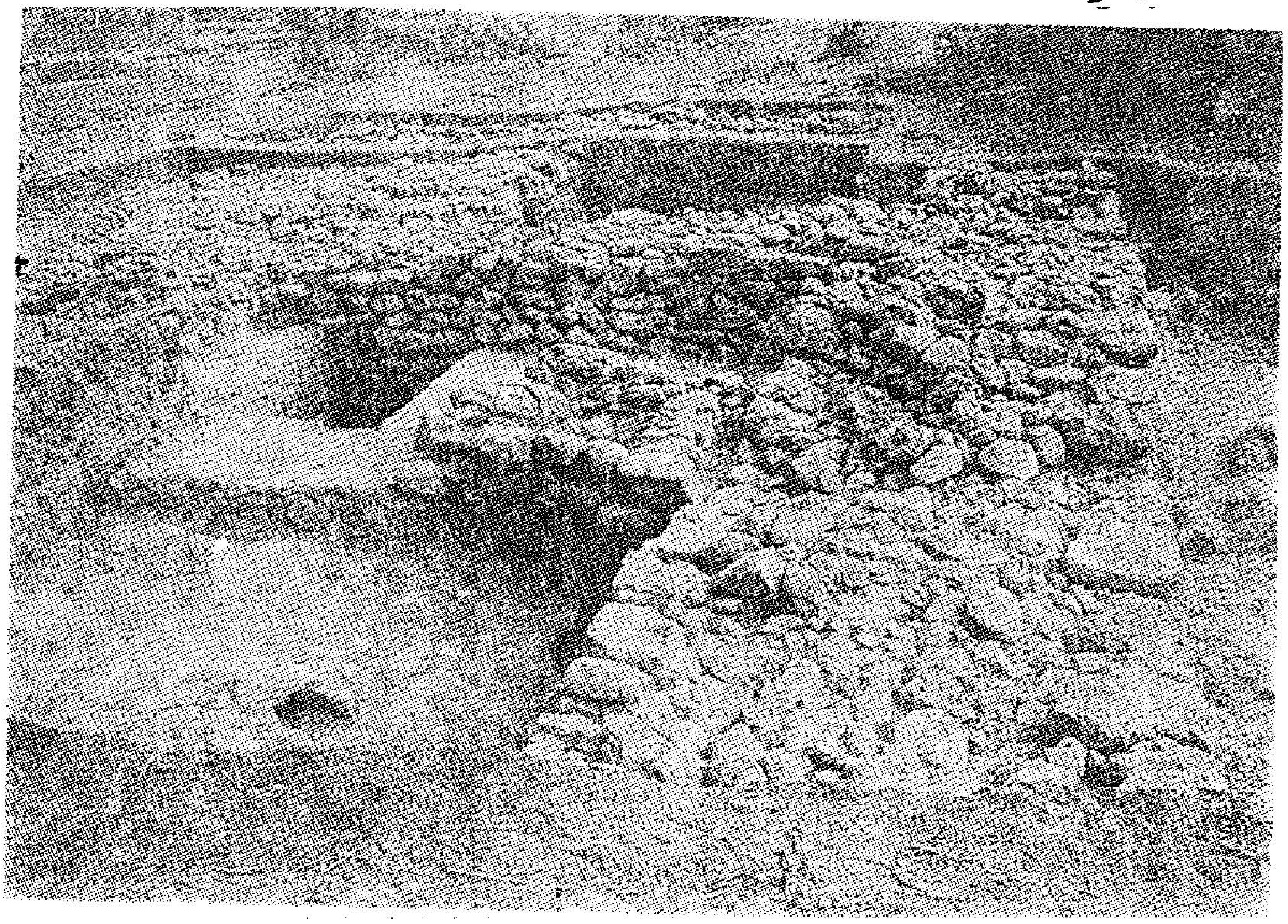

جزء من حصن يعود لعصر الحديد الثاني (تل سيانو)

جانب من معصرة زيت من القرون الميلادية الاولى

ومن جهة ثانية ، أن غزارة فخار عصر البرونز القديم الثالث ، وبخاصة التنوع الكبير والبديع في الفخار المشط ، يفوق كل ما نعرفه في أوغاريت (السوية الثالثة) وفي كل الساحل السوري . وانأول استنتاج يمكن أن نستخلصه هو اهمية سيانو الزراعية والتجارية في عصر ابلا . فسيانو كانت ، في تلك الفترة تستخرج كميات ضخمة من الزيت ومشتقات العنب والمجففات تضعها في مثل هذه الجرار الصلبة وتصدرها الى مصر وبقية اجزاء الساحل .

واخيرا ، وبخلاف بعض مناطق سورية كالجزيرة والسهول الداخلية التينهضت مدائنها في الالف الثالث بسبب رزاعات الحبوب البعلية ، فان الساحل السوري الشمالي لضيق السهول فيه وكثافة الاحراش في هضابه وجباله اعتمد آنئذ، بخاصة، على الزراعات عالية الانتاجية التي لا تحتاج الى مساحات كبيرة ، كالزيتون والكرمة والاشجار المثمرة الاخرى ، وجعلها موضوعا للتبادل والتجارة . فكان يصدر فضلا عن الخشب والانسجة المصبوغة بالارجوان،الزيت والخمر والثمار ، وله تجارة منظمة ناشطة مع مصر وقبرص ، وحتى كريت منذ الالف الثالثعلى الاقل، فضلا عن عمليات الترانزيت من الرافدين واليها . ولا نجد صدى ذلك في النصوص فحسب بل اثبتها البرهان الاثري ، وعدد التلال الاثرية الكثيرة في سهل جبلةلوغنى سوية عصر البرونز في تل سيانو دليل واضح على ما قدمنا.

الحواشـــي :

(١) فورير (١٩٣٩) نوغايرول ، قصر اوغاريت الملكي ، ج٤ ، ص ١٦ — ١٧ وان ورود اسم سيانو في النصوص القديمة على شكل سيانا او ثيانا لا يبدل من الامر شيئا ، فمنشيء النص قد يسمع خطأ أو ينسخ وفق اللغة التي يتكلمها . وقد وردت سيانو فيالقطعية المسمارية الاشورية الحديثة بشكل شياني بقلب السين الى شين كالعادة لدى الاشوريين استور (١٩٧٥) .

(٢) مرب الملك ، دوسو (١٩٢٧ ص ١٣٣) ،أما فورير (امريخ ١٩٣٩ ص ١١٣) فيضعها في تل حصين (ويسمى تل بصيرة ايضا) ، وريس (١٩٦٠ ص ١١٦) يقترح لها تل دروك . ويؤثر استور (١٩٧٩ ص ١٩) تصور فورير ويقول انه محتمل تماما .

(٣) ذكر فورير (١٩٣٩) أنها على بعد ٣ كم، ويذكر ريس انها على بعد ٧ كم .والحقيقة انها على بعد ٨ كم وذلك مثبت في المصنف الهجائي للقصبات والقرى والمزارع المنشور عام ١٩٣٩ .

(٤) نهر صغير يروي عدة قرى قبل ان يصب في البحر ، ويشح بدءا من شهر حزيران ، اقامت الدولة عليه سدا يطلق عليه اسم سد كفر دبيل .

(٥) راجع سعادة (١٩٦٤ ص ٩٦).

(٦) المرجع السابق ص ٩٧.

(٧) كان الدكتور علي ابو عساف انئذ مديرا للمباني الاثرية وقام بمسح مواقع الساحل واقترح تسجيل التل .

(٨) مماثلة لما اكتشف في رأس ابن هاني ، راجع د. عدنان البني ، التنقيب في رأس ابن هاني ، الحوليات الاثرية العربية السورية (١٩٨٣) ص ٤٤ .

(٩) في النصوص المصرية وبخاصة نصب امنحوتب الثاني الذي نشره أ.م. بدوي في حوليات دائرة الآثار المصرية (العدد ٤٢ ، ١٩٤٣، ص١ وما تلاها) ، وفي نسخة عنها وجدت في ممفيس ، اطلق على أوغاريت لقب قلعة الملك ، وكان فيها انئذ على ما يبدو قوات مصرية حدثت انتفاضة ضدها جعلت الفرعون يأتي الى أوغاريت ويذكر « أنه روض كل اعدائه فيها ثم عاد بقلب فرح اذ جعل كل هذه البلاد في ممتلكاته » عن كلود شيفر (١٩٥١ صفحة ٩) .

(١٠) نوغايرول ، اوغاريتيكا ، ج٥ ، ٤٤ .

(١١) المرجع السابق ، ص ١٢٤–١٢٦ .

(١٢) المقصود المدينة الاوغاريتكية في رأس ابن هاني على الراجح . راجع ادنو (١٩٨٤) وفي جميع الاحوال لابد ان تكون مدينة قريبة من سيانو واوغاريت ، وليس بيروت البعيدة عاصمة لبنان ، (وبئروت أو بئروني تعني الابار أو مدينة الابار) .

(١٣) موران (١٩٨٧ ، رقم ٢٩٨ ورقم ٣٠٦).

(١٤) استور (١٩٧٩ ص ١٤).

(١٥) راجع عن انفصال سيانو واشناتو عن أوغاريت: قصر أوغاريت الملكي ج٤ ، ص٦ وما بعدها ، وص ٧١ – ٨٣ .

(١٦) من هذه المراكز الحديثة ايمار (مسكنة) وشغرى (تل الفرى) وكركميش (جرابلس).

(١٧) استور (١٩٧٩ ص ١٤) .

(١٨) نوغايروك ، قصر أرغاريت الملكي ، ج٤،ص٨٠

(١٩) المرجع السابق ، ص ٧١ وما بعدها .

(٢٠) استور (١٩٧٩ ص ١٤ حاشية ١٥) .

(٢١) نوغايرون ، قصر أوغاريت الملكي، ج٤ص٢٩١

(٢٢) ان اعمال التنقيب في ابن هاني اخذت تلقى بعض الضوء على تلك الفترة ، لكن النصوص المكتوبة معدومة تماما .

(٢٣) مصدرها من كلح وهي في المتحف البريطاني.

(٢٤) موقع مدينة اشورية كان اسمها امكر انليل .

(٢٥) يقدر عادة أن قرقر موقعها في تل كركور شمالي الغاب حيث تنقب بعثة امريكية لم تصل الى يقين في هذا المجال حتى الان .

(٢٦) هيلين صادر (١٩٨٧ ص ١٨٨) .

(٢٧) هذا الفارق في الحشد بين سيانو واوشناتو قد قد يدل على صعود نجم سيانو بالنسبة لشقيقتها .

(٢٨) هيلين صادر (١٩٨٧ ص ٢٠٤).

(٢٩) هيلين صادر (١٩٨٧ ص ٢٠٥–٢٠٦).

(٣٠) في متحف برلين .

(٣١) الاصحاح العاشر (١٥–١٨) : وكنعان ولد صيرون بكره وحثا واليبوسي والاموري والجرجاشي والحوي والعرقي والسيني والاروادي والصماوي والحماتي ، وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني .

(٣٢) يوسيفوس ، الاثار اليهودية ، الجزء الاول ص ١٣٨ .

(٣٣) دي كوكيه (١٩٧٤ ص ٣٢) .

(٣٤) راجع الحاشية ٢٠ من هذا البحث .

(٣٥) راجع ما ذكر عن معركة قرقر الاولى في هذا البحث .

(٣٦) نوغايرول ، قصر أوغاريت الملكي ، ج٦ ص٧٥ وما يليها .

(٣٧) استور (١٩٧٩) ص ١٩ وما يليها ، ولمة بلدان اخرى في نصوص غيرها .

(٣٨) هذه التسمية مبدئية قابلة للتعديل مع تقدم العمل .

المختصرات للمراجع الاجنبية

D. Arnaud: La Lettre Hani 81/4, l'identification du site de Ras Ib n Hani = ارنو ١٩٨٤
Syria, LXI (1984), pp. 15-23

M. Astour: Place Names; Ras Shamra Parallels, II = استور ١٩٧٥
The Texts from Ugarit and the Hebrew Bible, éd. L. R. Fishter, Rome, (1975), pp. 249-369

M. Astour: The Kingdom of Siyannu-Ušnatu; UF, 11, (1979), pp. 13-28. = استور ١٩٧٩

R. Dussaud : Topographie historique de la Syrie antique et médiévale. = دوسو ١٩٢٧
BAH IV, Paris, (1927)

E. O. Forrer : Appendix II publié dans Ehrich (1939) : pp. 113-125. = فورير ١٩٣٩

W. L. Morin : Les Lettres d'El-Amarna, correspondance diplomatique du pharaon (traduction française de D. Collon et H. Cazelles), Paris, (1987). = مورين ١٩٨٧

J. P. Ray-Coquais : Arados et sa Pérée aux époques grecques, romaine et byzantine, BAH, XCVII, Paris, (1974) = ري كوكة ١٩٧٤

P. J. Riis : L'activité de la mission archéologique danoise sur la côte syrienne en 1959; AAAS, X, (1960), pp. 111-132. = ريس ١٩٦٠

J Nougayrol : Textes accadiens des Archives Sud (Archives Internationales), PRU, IV, Paris, (1956) = نوغايرول ١٩٥٦

J. Nougayrol : Textes suméro-accadiens des Archives et Bibliothèques privées d'Ugarit; Ug, V, (1968), pp. 1-446 = نوغايرول ١٩٦٨

G. Saadé : Histoire de Lattaquié I, Ramitha problèmes des origines, Damas, (1964) = سعادة ١٩٦٤

C. Schaeffer Découverte d'un sceau Royal Hittite à Ras Shamra-Ugarit = شيفر ١٩٥١
(Campagne 1950), AAAS- I/2, (1951), pp. 165-170

H. Sader : Les états araméens de Syrie, Beyrouth, (1987) = صادر ١٩٨٧

هجـرة القبيســات الاولى مــن ابو ظبــي الى العديــد والدور البريطاني (١٨٣٥ ــ ١٨٣٧)
((دراسة وثائقية))

د. محمد حسن العيدروس
ج. الامارات العربية المتحدة

مقدمــــة :

نتناول في هذا البحث هجرة القبيسات الاولى الى العديد من عــام (١٨٣٥ ــ ١٨٣٧) والموقف البريطاني تجاهها ، ودوره المزدوج في البداية بعدم معارضة سياسة التجزئة التي مارستها في المنطقة وتمشيا معها ، وخاصة تجاه القواسم وبني ياس ، وتفتيت وحدة ساحل عمان بعد انفصاله عن عمان الام ، في نهاية الدولة اليعربية ، وصولا الى اعترافها بانفصال دبي عن أبو ظبي عام ١٨٣٣ .

ثم محاولة بريطانيا الاعتراف بانفصال القبيسات عن أبو ظبي (١٨٣٥–١٨٣٧). لقد فشلت عملية الانفصال بسبب ضعف القبيلة وصغر حجمها وعدم مقدرتهــا على حفظ المصالح البريطانية . اضافة الى التخوف البريطاني من تحول منطقة العديد الى مصدر ازعاج وتهديدها للامن البريطاني . لذلك فان بريطانيا تراجعت عــن مواقفها السابقة بتشجيع الانفصال وقيــام امارات جديدة ، الى السـماح لحاكم أبو ظبــي باسترجاع قبيلة القبيسات بشن حملة عسكرية .

وتقوم هذه الدراسة أساسا على الوثائق التي تنشـر لأول مرة ، والتي تلقــي الضوء على ما كان يجري من مراسلات بين حاكم أبو ظبي ، وشيخ القبيسات المنشق، والوكلاء البريطانيين في الشارقة والبحرين ، والمقيم السياسي البريطاني في الخليـج العربي ، وحكومة بومباي في الهند .

قبيلة القبيسات : القبيسات عشـيرة تعمل في صيد الاسـماك واللؤلؤ وبنـاء السفن ، من قبيلة بني ياس في امارة أبو ظبي ، يعيش غالبية افرادها فصل الشــتاء بمنطقة ليوا ، على أطراف الربع الخالي في الظفرة ، ويملكون اشجار نخيل واغنـام

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ــ حزيران ١٩٩٣ .

وماعز . وهم الذين قاموا ببناء مدينة على الساحل الجنوبي لخور العديد في مستهل القرن التاسع عشر ، عرفت بمدينة « العديد » ، التي اكتسبت اهمية استراتيجية عندما جاء العثمانيون الى الاحساء وقطر ، اذ كانت الحد الفاصل بين النفوذ العثماني والبريطاني في شرق الجزيرة العربية ، اضافة الى حكم قبيلة القبيسات واقامتها هناك في تلك الفترة . وتحظى حاليا المنطقة بأهمية كبيرة ، لوجود احتياطي من البترول فيها ، ولكونها الحد الفاصل بين امارة ابو ظبي وقطر والسعودية . كما ان السعودية تسعى لايجاد منفذ بحري لتصدير النفط في المستقبل القريب .

اسباب هجرة القبيسات من ابو ظبي الى العديد : عندما قامت السلطات البريطانيةبجمع الغرامةالتي فرضتها على حاكم ابو ظبي خليفة بن‌شخبوط ، لتعديه وتعرضه للسفن البريطانية في الخليج العربي ، هرب رعاياه في كل الاتجاهات ليتفادوا دفع انصبتهم ، الى درجة ان بريطانية طلبت من بقية حكام امارات ساحل عمان عدم استقبال الهاربين من ابو ظبي . ومن هؤلاء الهاربين كان القبيسات ، الذين تركوا ديارهم وديونهم دون سداد وانتقلوا الى « العديد » في المنطقة الساحلية الجنوبية الغربية غير الاهلة بالسكان ، بزعامة خادم بن نهيمان القبيسي ، واسسوا لانفسهم موطنا جديدا هناك .

واضافة الى الضرائب كان هناك سبب اخر وراء خروج قبيلة القبيسات من أبو ظبي،وهو الامل في تكون امارة مستقلة أسوة بامارة دبي التي انشقت وانفصلت عن ابو ظبي عام ١٨٣٥ بعدما شجعتها بريطانيا لاضعاف قوة ابو ظبي والقواسم وتجزئة أملاكهما الى امارات صغيرة ، حتى تستطيع مواجهتهم بأسطولها في الخليج العربي. وبذلك كانت بعض القيادات والزعامات المحلية من القبيسات وراء قيام امارة مستقلة عن امارة أبو ظبي دون أن تدرك الدوافع البريطانية وراء ذلك، وتكون بذلك قد وضعت مصلحتها الخاصة ونظرتها الضيقة فوق مصلحة بني ياس او امارة ابو ظبي الوطنية العليا .

ولكننا نلاحظ توجه شيخ القبيسات الى البحرين بعدما أسكن افراد قبيلته في العديد ، وقد يرجع ذلك لطلب الحصول على مساعدات مالية ومعنوية من بعض رعاياه المقيمين في البحرين والذين لا يتجاوزن العشرين شخصا(١) . ويبدو انه حاول الحصول على دعم من حاكم البحرين ، الا انه لم يوفق في ذلك نظرا للعلاقة القوية بين حاكم البحرين وحاكم أبو ظبي ، وخاصة أن الاخير كان دائما يبعث بقواته لمساعدة حاكم البحرين كلما حاولت قطر الانفصال عنها .

اعلان استقلال العديد وموقف حاكم ابو ظبي : اعلن خادم بن نهيمان شيخ القبيسات انفصاله واستقلاله عن ابو ظبي وعزمه على اقامة امارة خاصة به في العديد، وقام بحفر ابار المياه العذبة وأسكن جماعته هناك . وأول رد فعل كان من قبل خليفة بن شخبوط ، انه كتب الى الوكيل البريطاني في الشارقة الملا حسين يبلغه بأمر الانفصال ، وبأنه لن يسكت هذه المرة على اقتطاع جزء من امارته أو قبول انفصاله عنها ، علما بان « البوفلاسة » كانوا قد انفصلوا عن ابو ظبي وأقاموا لهم امارة خاصة بهم في عهد خليفة نفسه عندما هاجروا الى دبي وأعلنوا الاستقلال عام ١٨٣٣ . وقد اعترفت بريطانيا بذلك ومنعت ابو ظبي من استعادة دبي .

وخاطب حاكم ابو ظبي المقيم السياسي البريطاني في (١٨٣٥/١١/١٥) بقوله :

ان القبيسات هي جزء من قبيلته وان مساكن أفرادها وأسرها موجودة ، ولكنهم غادروا ابو ظبي باختيارهم الى مدينة الدوحة ، وطلب منهم شراء عدد كبير من املاكهم ، وبما أنهم خرجوا عن طاعته وسيادته فانه غير مسؤول عن تصرفاتهم التي قد تلحق ضررا بالغا بالامن في المياه الاقليمية مما قد يشكل خطرا ومصدر ازعاج وقلق للسلطات البريطانية(٢) . وانه يهدف الى أعادتهم الى منازلهم ، وبالتالي الى سلطته وسيادته . وانه يعلم المقيم السياسي البريطاني اولا باول . حتى لا يتخذ المقيم عدم اخباره بتصرفاته المستقبلية ذريعة ضده .

وبناء على ذلك فانه طلب من المقيم السياسي البريطاني السماح له باعادة أفراد قبيلة القبيسات ، أو أن يطلب منهم العودة طوعا الى ابو ظبي ، وانه ينتظر استلام الرد سريعا قبل ان يتحالفوا مع القبائل الاخرى وخاصة قبائل شرق الجزيرةالعربية مثل « الهواجر » و « بني مرة » ، مما يعني حدوث شغب وفوضى ، علما ان القبيسات حتى تلك اللحظة لم يكونوا قد انضموا الى اية قبيلة .

واختتم شخبوط بن خليفة طلبه بقوله :

انت موقن انهم من رعايانا ومن المهم ان تأمرهم بالعودة ، ونأمل اما أن تسمح بأن نرجعهم أو أن تأمرهم انت بالعودة . يتضح من ذلك مدى التزام حاكم ابو ظبي باتفاقيات الهدنة البحرية التي فرضتها بريطانيا على حكام امارات ساحل عمان ، اضافة الى طلبه الموافقة البريطانية لنقل قواته عبر البحر الى العديد ، لاعادة المنشقين الى سيادته .

وقد حذر المقيم السياسي البريطاني حكومته من مغبة تجاهل طلب حاكم ابو ظبي ، الامر الذي قد يثير هؤلاء القبيسات المنشقين ويدفعهم الى أعمال مخلة

بالامن في المنطقة والى تجاوز اتفاقيات الهدنة البحرية في مياه الخليج . ولم تشأ بريطانيا التدخل آنذاك الا في اطار مصلحتها ، وأرسلت عام ١٨٣٦ أسطولا صغيرا مؤلفا من ثلاث سفن حربية الى « البدع والوكرة والعديد » وأخذت تعهدا كتابيا من حكام تلك المناطق بعدم التعرض للسفن والمصالح البريطانية في الخليج العربي ، ومراقبة الساحل وبذل أقصى طاقة ممكنة للحيلولة دون التعرض لسفنها ، ولضمان تنفيذ المطالب البريطانية .

كما طلبت من خادم بن نهيمان القبيسي تقديم كفالة تقدر بقدر معين من المال او الممتلكات العينية ترد اليه عندما يظهر سلوكا متجاوبا ، ويظهر ان العهد الذيقطعه على نفسه غير كاف لان بريطانيا كانت تخشى أن تتحول العديد الى قاعدة لضرب السفن والمصالح البريطانية في الخليج العربي من المقيمين في تلك المنطقة أو المناطق المجاورة لها . وهذا يعني انها لم تكن تمانع في انفصال العديد ، بشرط الالتزام بالامن البريطاني والتعهد بذلك ، وفي الوقت نفسه تتخلى عن التزاماتها تجاه حاكم ابو ظبي الذي وقع أيضا تلك التعهدات ، كما تحاول تجزئة امارته الكبيرة الى امارات صغيرة.

وقد اثنى « ويلوغبي » وزير الدولة في حكومة بومباي على تصرفات المقيم السياسي البريطاني تجاه القبيسات بتسوية خلافاتهم مع حاكم أبو ظبي في ١٨٢٦/٧/٩(٣) : أمرني حاكم المجلس ان اعلمك أنك تصرفت بحكمة عندما بعثت برسالة الى شيخ القبيسات توصيه فيها بتسوية خلافاته مع خليفة بن شخبوط وتعلمه فيها عن مغبة عدم الالتزام بهذه التوصية .

ولكن يبدو أن هذه المحاولات لم تنجح في اقناع القبيسات في التوصل الى حل مرض ، وذلك واضح من خلال الرسالة التي بعثها « ويلوغبي » وزير الدولة في حكومة بومباي الى المقيم السياسي البريطاني بتاريخ ١٨٣٦/٩/٩ ، وجاءفيها(٤) : انني أعبر عن أسف الحكومة لفشل محاولاتك التوصل الى صلح بين رعايا خليفة بن شخبوط وشيخ القبيسات .

وبرغم هذا الفشل فقد كان الاتجاه السائد لدى السلطات البريطانية هو المحافظة على كيان الامارة الجديدة والاعتراف غير المباشر بها في هذه المرحلة . فقد جاء في رسالة من مكتب الاشراف في بومباي الى الكابتن هنيل مساعد المقيم السياسي البريطاني بتاريخ ١٨٣٦/١٢/١٧(٥) : نامل أن تتمكن من الاحتفاظ بأكواخ الخشب الخاصة (ويقصد فيها منازل العشيش والقصب) بقبائل القراصنة الذين توطدوا بالقرب من العديد .

وهنا نلاحظ استمرارية حكومة الهند البريطانية في اطلاق اسم « القراصنة » على أفراد قبيلة القبيسات الذين استوطنوا في العديد ، اما قوله بالقرب من العديد فيقصد به السكن بالقرب من مياه خور العديد .

ويتضح من هذه الرسالة رغبة بريطانيا في تقديم الحماية غير المباشرة للقبيسات مع عدم التورط باعطاء اية تعهدات مكتوبة لهم ، فقد كان « و.هـ. وولترس » رئيس الحكومة في بومباي قد كتب الى المقيم السياسي البريطاني بتاريخ ١٨٣٦/١٠/٢٩(٦) :
أود اعلامك أن حاكم المجلس قد أقر باجراءاتك المؤقتة والمتعلقة بنقل مدفعين و ١٤ قذيفة مع توابعها اللازمة الى السفن الحربية التي هي على وشك التوجه الى العديد.

يتضح من رسائل المسؤولين البريطانيين في الخليج الى حكومة الهند البريطانية التناقض في السياسة البريطانية مع القبيسات ، ففي حين لا تمانع في المصالحة بين القبيسات وحاكم ابو ظبي ، فانها تشجع الانفصال ، وهذا يعني أن بريطانيا كانت تجس نبض القبيسات وخاصة اذا ما أثبتوا قدرتهم على حماية أنفسهم ونجحوا في الاستقلال عن ابو ظبي، كما فعل البوفلاسة في امارة دبي عندما انفصلوا وحافظوا على استقلالهم . ولا شك ان بريطانيا سوف تدعم استقلال القبيسات. ولكنها، في حال فشلهم، سوف تعمد الى تشجيع حاكم أبو ظبي لاعادتهم الى سيادته ولو بالقوة العسكرية ، وهذا ما حدث فيما بعد ، ونلاحظ هذا من الرسائل المتبادلة بين بريطانيا من جهة وحاكم ابو ظبي والقبيسات من الجهة الاخرى .

لقد وجدت بريطانيا فيما بعد ان التكوين القبلي للقبيسات صغير لا يستطيع حماية العديد ، أو يحول دون استخدامه كمركز لتهديد السفن والمصالح البريطانية والاخلال بالامن ، اضافة الى ترك القبيسات يحكمون تلك المنطقة دون تقديم المساعدات اللازمة لهم لجعل وجودهم في خطر بمواجهة القبائل القوية المجاورة . في حين ان عدم السماح لخليفة بن شخبوط – المرتبط مع بريطانيا بمعاهدات الهدنة البحرية – باستعادة العديد ، ومنعه من حرية الحركة في البحر ، كان من الممكن ان يشجع شيوخ القبائل الاخرى على تأسيس امارات صغيرة في مناطق يصعب تقديم الحماية اللازمة لها لارتباطها بعمق الجزيرة العربية وقبائلها الكبيرة . مما يعني بأنها ستكون بادرة مشجعة في المستقبل لظهور كيانات ضعيفة لا تستطيع حماية نفسها مما يترتب عليه جهد مضاعف من الاسطول البريطاني لمراقبة تحركاتها وحفظ أمنها .

المشكلات البحرية : وحدث ما كان متوقعا ،وبدات المنطقة تشهد عدة اعمال سلب ونهب . ورد في الرسالة بعث بها « و.هـ.وولترس » رئيس الحكومة في بومباي

الى المقيم السياسي البريطاني بتاريخ ١٨٣٦/١٠/٢٠(٧) : وردت رسالة من الوكيل البريطاني في الشارقة بأعمال السلب والنهب التي ارتكبها أفراد لهم علاقة بالعديد ، وأود اعلامك أن حاكم المجلس راض عن نهج السياسة التي تتبعها في اعتبار « شيخ البدع »* و « الوكرة »** و « العديد » وأبو ظبي مسؤولين عن تلك الاعمال ، وكذلك جاسم بن جابر ورفاقه*** . ولو لم تكن هناك مساعدة من تلك الاماكن لما حصل المذكور على المنصب الرفيع الذي يتمتع به .

ويبدو من تلك الرسالة استياء السلطات البريطانية وتخوفها من الاعمال التي تهدد امن المنطقة ، ولذا قدمت حكومة بومباي المعلومات الكاملة الى المقيم السياسي البريطاني عن البدع والوكرة وهما من أهم المدن القطرية ، في حين أن العديد من المناطق التابعة لامارة ابو ظبي ، وزاد من التخوف على المصالح البريطانية ، وخاصة من قبل جاسم بن جابر ، كما كان من قبل ذلك رحمة جابر الجلاهمة ، وتحدث عن اهمية الموقع الجغرافي للبدع والوكرة والعديد ومميزاتها للسفن الحربية(٨) ، حتى يأخذ المقيم السياسي البريطاني بعين الاعتبار تلك التوجهات .

وأمام هذه الاتهامات ، وخاصة الموجهة الى شيخ العديد ، فان زعيم القبيسات بادر الى شرح وجهة نظره للمقيم السياسي البريطاني في رسالة بتاريخ ١٨٣٧/١/٧ يقول فيها(٩) :

---

* البدع : تعتبر البدع حاليا أحد الاحياء المهمة في مدينة الدوحة عاصمة قطر ، وقد لعبت مدينة البدع في القرن التاسع عشر دورا مهما في تاريخ قطر بصفة خاصة : اذا كانت من أهم المدن لكونها مقر الحكم لفترة طويلة ، وذلك قبل آن نتوسع مدينة الدوحة وتضم البدع الىأحيائها. وقد أسس مدينة البدع افراد من قبيلة « السودان » ومفردها « السويدي » والتي هاجرت من ساحل عمان ، كما توجد بعض افرادها في العراق ، ومن أهم شخصياتها « توفيقالسويدي » الذي كان وزيرا للخارجية في العهد الملكي في العراق .

** الوكرة : تعد مدينة الوكرة من المدن المهمة في شبه جزيرة قطر ، وقد لعبت دورا بارزا في تاريخها ، ولا سيما أنها كانت تربط الطريق القادم من ساحل عمان الى مدينة البدع والدوحة في الشمال ، وكثيرا ما تمتعت بحكم ذاتي ولفترات طويلة .

*** جاسم بن جابر : كان من الزعماء البارزين في الخليج العربي، وهو الذي تصدي للاستعمار البريطاني وقام بعدة عمليات ناجحة ضد سفن الاسطول البريطاني، وكان جاسم بن جابر قد اتخذ من قطر والعديد مقرا لعملياته العسكرية ضد الوجود البريطاني في الخليجالعربي، وضد كل من يتعامل مع الاستعمار البريطاني ، ولهذا كانت بريطانيا تحذر زعماء المنطقة كشيخالبدع وشيخ الوكرة وغيرهم من التعامل مع جاسم بن جابر .

اذكرك بما كنت قد ذكرته فيما يتعلق بالعهود التي قطعتها على نفسك أمامنا ، القائلة بانه سيتم تجديد هذه العهود لدى الاستيلاء على قوارب (القرصنـــة) . فليكن معلوما لديك أنه لا سلطة لنا عليهم نظرا لانهم تحت أمرة خليفة بن شخبوط .

انت تعلم اننا أعداء هذا الشيخ وان العرب القراصنة وضعوا انفسهم تحت حمايته ولن نسمح لهذا الشرير ان يدخل الى اراضينا .

لقد اعتقل الشيخ خليفة بن شخبوط أحد افراد قبيلتنا وقمنا بالمقابل في اعتقال أهالي أبو ظبي ، وكنت قد طلبت ان نتركهم وشأنهم ، وقد نفذنا ما طلبته الا انــك لم تأخذ بعين الاعتبار حرية جماعتنا .

ارسل الينا ردا على ذلك مرفقا بمسدسين وبعض مسحوق البارود. .

ويبدو من رسالة شيخ القبيسات بأنه غير قادر على تحقيق الامن ومنع حوادث السلب والنهب التي تنطلق من منطقته ، كما انــه يلقي اللوم على حاكم أبو ظبي ويطلب من المقيم السياسي البريطاني ارسال مسدسين وبعض مسحوق البارود ، ونعتقـد أنه لو لم يكن شيخ القبيسات موقنا باستجابة المقيم السياسي البريطاني لما كتب يطلب ذلك .

وبعث ملا حسين الوكيل البريطاني في الشارقة بتاريخ ١٨٣٧/٣/٢٣ برسالة الى المقيم السياسي البريطاني يبلغ فيها عن الاحوال في الساحل العربي ، وانه حدث نزاع بين حاكم ابو ظبي وشيخ قبيلة المزاريع ، بسبب مقتل اثنين من أقرباء جاسم ابن جابر في ابو ظبي ، ويقول أيضا بان جاسم بن جابر من قبيلة المزاريع وليس من قبيلة القبيسات كما ذكر في سجلات بومباي(١٠) . كما بعث الوكيل البريطاني في البحرين برسالة الى المقيم السياســي البريطاني بتاريــخ ١٨٣٧/٤/٥ جاء فيها(١١) : ظهــر العداء علنا بين قبيلتي بني ياس والقبيسات ، وكتبت الي خادم بن نهيمــان شيــخ القبيسات رسالة تهديد ، ويساورني الشك أن يكون خادم بن نهيمان شخصية سيئة.

لقد وجد شيخ القبيسات تعاطفا ملحوظا من الموظفين البريطانيين ، سواء مــن الوكيل البريطاني في الشارقة أو البحرين أو المقيم السياسي البريطاني في الخليــج العربي . ولكن عدم مقدرته على فرض الامن والاستقرار كان من أهم أسباب تخلي السلطات البريطانية عنه ، خوفا من أن الحماية البريطانية للقبيسات تكلفهم الكثير .

وقد بعث « س. هينل » المقيم السياســي البريطاني رسالــة الى « ج.ب. ويلوغبي » رئيس حكومة بومباي بتاريخ ١٨٣٧/٤/٩ يقول فيها(١٢) : ارفق لحاكــم

المجلس الرسالة الواردة من ملا حسين الوكيل في الشارقة يعلمنا فيها عن بداية العداء السحيق والذي يهدد العلاقة بين خليفة بن شخبوط حاكم أبو ظبي وخادم بن نهيمان شيخ العديد ، أحد رعاياه المتمردين . ومن المحتمل ان ينشأ العنف بين الطرفين المتنافسين خارج مسار السفن التجارية التي تبحر شمال وجنوب الخليج العربي، واني لا اتوقع حدوث أمور وخيمة العواقب والتي ربما نتجنبها باستمرار المراقبة الصارمة لاعمال المتحاربين .

أما عن التخوف من حدوث مشكلات أثناء موسم الغوص فيقول المقيم السياسي البريطاني في رسالته الى « ج.ب. ويلوغبي » رئيس حكومة بومباي بتاريخ ١٨٣٧/٤/٢٩ : « أعتقد أنه من المحتمل أن يحل هدوء في موسم صيد اللؤلؤ على الرغم من وجود خطر ضئيل بأن يتوقف هذا الهدوء بسبب حالة الحرب المستمرة بين العديد وأبو ظبي ، فقد لاحظت حاليا واستنادا لمعلوماتي السابقة بأنه لا يتوقع أن ينشأ أي ضرر منهم (يقصد أبو ظبي والعديد) أو من غير المحتمل أن يكبح أو يبطل هذا الضرر عن طريق مراقبة هذه الاطراف المتورطة مراقبة صارمة وقوية(١٣) .

وبرغم ذلك فقد حدثت بعض المشكلات ففي الرسالة التي بعثها الوكيل البريطاني في البحرين الى المقيم السياسي البريطاني بتاريخ ١٨٣٧/٥/٦(١٤) قال : أفاد خادم ابن نهيمان في رسالته الموجهة الي بقوله : « ذهبت جماعتنا الى ابو ظبي للحصول على مؤن فألقوا القبض على ستة رجال وقتلوهم وقاموا بنهب سفينة « بقارة واحدة » (وهي نوع من السفن الكبيرة التي كانت وما زالت بعضها تستخدم مع اضافة الاجهزة الملاحية والميكانيكية الحديثة) ومارسوا طغيانهم ، فالرجاء اعلام المقيم بهذا الامر ». ويقول الوكيل البريطاني في البحرين : « أنا موقن أن اللوم يقع على عاتق خادم ابن نهيمان »(١٥) .

ولهذا فان الموقف البريطاني تغير وبدات بريطانيا تشعر بأن تشجيعها للقبيسات أو على الاقل سكوتها عنها من شأنه ان ينعكس سلبا على علاقاتها مع حاكم أبو ظبي، الذي سيفقد الثقة في الموقف البريطاني ويجعله يشك في نوايا البريطانيين ، مما قد يدفع به الى البحث عن دعم خارجي لموقفه . وهذا ما جعل الادارة البريطانية تعيد تقييم سياسته بهذا الشأن ، ولذا فانها وافقت على طلب حاكم ابو ظبي لاسترجاع رعاياه من العديد .

إعادة العديد الى ابو ظبي :

كان خليفة بن شخبوط قد طلب من سلطان عمان امداده بقذائف مدفع ومسحوق البارود للقيام بهجوم على العديد ، الا انه لم يستجب لطلبه(١٦) . وأثناء

لقاء حاكم ابو ظبي بالمقيم السياسي البريطاني الذي زاره في ابو ظبي وبحث معه الاعمال العدوانية التي حدثت بين ابو ظبي والعديد ، سأل خليفة بن شخبوط عما اذا كان الصراع مع قبيلة القبيسات يمكن ان يتوقف حتى نهاية موسم صيد اللؤلؤ ، فأجاب بأن دماء كثيرة قد هدرت من الطرفين ، ومن المستحيل أن يتوقف العداء . واضاف بأنه في انتظار ورود الاذن مني لارسال قوة لمحاصرة العديد ، وتمنى في الوقت نفسه بأنه ينبغي منع الزعماء المجاورين من مساعدة القبيسات أثناء اقتحام العديد(١٧) . فأجاب المقيم السياسي البريطاني بقوله : بأنه سيكون هناك حصار حقيقي مميز، ولكنه ضئيل ، وعليه فقد وافق خليفة بن شخبوط .

اما الوكيل البريطاني في البحرين فقد بعث بتاريخ ١٨٣٧/٥/٢٤ برسالة الى المقيم السياسي البريطاني يقول فيها (١٨) : وصلت أخبار تفيد بأن خليفة بن شخبوط قد وصل في(١٢) مايو الى جزيرة « صير بني ياس » ومعه ثلاثمائة سفينة وسفينة القيادة « بتيل » ، وأرسل من ذلك المكان ولده « شخبوط » و « ابن سلمى » الى شيخ القبيسات لمحاولة اقناعه بالعودة بهدوء الى ابو ظبي والاقامة فيها ، وفي حالة رفضهم لذلك فانه (أي خليفة) سيستولي على العديد بالقوة .

هجوم خليفة بن شخبوط : بما ان موافقة بريطانيا على هجوم خليفة بن شخبوط على العديد يعني أنها أرادت وضع نهاية للمشكلة ، كما أن الوكيل البريطاني فيالشارقة والمقيم السياسي البريطاني عدّ حاكم دبي متورطا في إثارة المشكلة ، سواء بمساعدة القبيسات أو باخبارهم عن الحملة العسكرية لابو ظبي ، أو بايوائهم بعد استعادة العديد ، ومحاولته مساعدة الهجمات على ابو ظبي، ولولا التحذير البريطاني لحاكمي دبي ورأس الخيمة لتطورت المشكلة ، في الوقت الذي يجد فيه خليفة بن شخبوط مبررا لاستعادة دبي أيضا من المنشقين البو فلاسة .

حاول حاكم أبو ظبي بوسائل سلمية مختلفة استعادة العديد ، وطلب من رعاياه المنشقين بشتى الوسائل العودة الى ابو ظبي، ولكنهم أصروا علىالبقاء كامارة مستقلة، املا في الحصول على مساعدة من حكام دبي ورأس الخيمة والبريمي ، ولاعتقادهم بأن بريطانيا لن تسمح لحاكم ابو ظبي بالهجوم على العديد ، فيما هم يطلبون الحماية البريطانية .

كل هذه العوامل جعلت القبيسات يتشددون في عدم العودة الى ابو ظبي ، والرغبة في اقامة امارة مستقلة ، وكان الاعتقاد السائد لديهم انه في حالة الهجوم عليهم فانهم سوف يستطيعون الصمود والمقاومة ، وان حكام دبي والبريمي ورأس

الخيمة سوف يقومون بهجوم مضاد من الخلف على ابو ظبي مما قد يجعل خليفة ابن شخبوط يسحب قواته لمواجهة الخطر القادم على امارته من الخلف . ولذلك لم يكترثوا لرسائل التحذير التي وجهت اليهم من ابو ظبي أو الرسائل التي أرسلها حاكم دبي عن الحملة العسكرية لأبو ظبي .

اما عن هجوم خليفة بن شخبوط على العديد، فسوف نورده كما جاء في التقريرين التاليين ، الاول من الوكيل البريطاني في الشارقة ، والثاني من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي ، نظرا لان التقريرين يمثلان واقع الحال من وجهات النظر الرسمية :

١ ـ تقرير الوكيل البريطاني في الشارقة : نظرا لما يمثله الوكيل البريطاني في الشارقة من مكانة ادارية وسياسية في امارات ساحل عمان ، وباعتباره شاهد عيان ، فان تقريره ذو أهمية في معرفة الاحداث التي جرت والملابسات التي صاحبتها، وفيما يلي نص التقرير(١٩) :

غادر خليفة بن شخبوط أبو ظبي ومعه أربع مائة وخمسون مركبا من جميع الاحجام بغرض شن هجوم على العديد ، وكان قد وصل الى هناك في الرابع عشر من شهر مايو / ايار ، مما اثار الرعب والهلع بين سكان العديد ، الذين لم يصدقوا من قبل انه كان جادا في نواياه القتالية .

وبالرغم من أن أهالي دبي كانوا قد بعثوا بمركب لتحذيرهم ، الا أنه مكث لبعض الوقت في عرض البحر ، حيث كان يقوم بصيد اللؤلؤ ، الا أنه وصل قبل وصول خليفة بن شخبوط بخمسة أيام ، واوصل الرسائل التي كان يحملها ولكن القبيسات أصروا على رفضهم الوثوق بالمعلومات التي وصلتهم ، وذلك لان واحدا من قبيلة البوفلاسة الذي كان قد وصل مؤخرا من الشارقة ، أكد لهم أنه لا أساس لصحة هذه المعلومات ، وأن حاكم أبو ظبي لن يجرؤ على بدء القتال ضدهم لانه يعرف تمام المعرفة أن الشيخ مكتوم حاكم دبي والشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة سوف يقومان بشن هجوم عليه من الخلف . واعتمادا منهم على هذا الاعتقاد لم يقوموا باية استعدادات ، وفوجئوا بوصول حاكم ابو ظبي على رأس قواته ، ولم يكن لديهم اكثر من مئة وخمسين عبدا وخادما في المدينة ، ولكن كان هناك مركبان « بقارة » تابعان لدبي ، وعلى متن أحدهما عبد الله ابن بدر وابن أخ أو ابن اخت الشيخ مكتوم .

وبغض النظر عما سبق ، فقد أقيمت الاستعدادات للدفاع ، وتم ارسال عشرة

تحت قيادة غايب بن هامل لاحتلال البرج الذي يشرف على المياهالاقليمية ، بينما اقام الباقون التحصينات في المراكز الدفاعية الاخرى .

وبعد أن وصل الشيخ خليفة الى العديد بفترة قصيرة ، وكان قد ترك خمسة عشر مركبا مقابل المدينة ، توجه نحو البر ، مقابل الابار حيث كان هو نفسه أول رجل يطأ الشاطىء بقدمه ، وما لبث ان اكتشف أمر الذين كانوا في المياه ، علما بأنهم لم يكونوا مزودين بالمدفعية . وقد شجعتهم هذه الظروف للقيام بهجوم عام تحت قيادة الشيخ نفسه ، كما تمت اقامة سلالم بالاضافة الى الرماح التي بحوزتهم .

وقد أمطر الحصن بنبالهم من جميع الجهات ، وتم قتل جميع أفراد الحامية بالسيف ، وعندما رأى أهالي العديد ذلك ، فقدوا الامل من المقاومة اذ انهم فقدوا البرج البحري ، ولم يفكروا الا بالفرار ، فامتطى كل من خادم بن نهيمان وشقيقه جواديهما ولاذا بالفرار ، أما محمد بن علي وعبده وبعض أصدقائه فقد نجحوا في ركوب البقارة الخاصة به في البحر ، وتبعتهم أربعة مراكب تابعة لابو ظبي ، ولم يعرف ما اذا كانت قد لحقت به ام لا . أما بالنسبة للمركبين الخاصين بدبي في العديد ، فقد وصل أحدهما بسلام الى مينائه في دبي ومعه بقارة صغيرة تابعة لدبي ، وعلى متنه اثنان وعشرون من السكان ، الا أن الحظ لم يحالف المركب الاخر ، والذي كان على متنه ابن اخ أو ابن أخت الشيخ المكتوم وقريبه الذي يدعى عبد الله بن بدر ، فيقال أن ملاحي المركب كانوا قد اشتركوا في القتال ، وعندما فقد الجميع ، حاولوا الفرار حاملين معهم عشرين شخصا من السكان ، الا أنهم وقعوا في أيدي قوات ابو ظبي ، فقتلوا مع خمسة من ملاحي المركب ، ومن بينهم قريب لحاكم دبي ، وقد صرح بعض أفراد قوات ابو ظبي أن قريبي الحاكم قد قتلا وهما يقاتلان على البر . وبعد أن تم الاستيلاء على المكان بعد حصاره ، نقل الشيخ خليفة بن شخبوط جميع النساء والاطفال مع متاعهم ، ودمر جميع الابراج والمنازل ، ورمى في الابار اثنتي عشرة جثة من القتلى ، ثم قام برمي بقية الج ثث في الابار ثم ملأها ببقايا الابراج المدمرة مزيلا كل أثر لهم .

وكان من بين السكان تاجر بحريني كان قد جاء الى العديد لشراء بعض اللالىء ، ويقال بأنه كان يحمل اشياء كثيرة ذات قيمة ، منها بعض الاموال النقدية والارز والاقمشة .

ويذكر البعض من قوات ابو ظبي أن خمسين شخصا من الاعداء قد قتلوا كما تم اسر خمسين آخرين ، واحتجاز ثلاثين مركبا بالاضافة الى بقارة وبغلة كان الشيخ سلطان قد أعطاها الى محمد بن عتيق .

ولقد علمت ان الشيخ خليفة بن شخبوط كان قد بعث بسبعة مراكب الى الوكرة لكي يطلب تسليم خمسة وعشرين رجلا من القبيسات الذين كانوا قد التجأوا اليه ، بالاضافة الى مركبين من مراكبهم كانا قد استعملا لهذا الغرض ، وهو يخشى من أن يبدأوا عمليات سلب وما الى ذلك .

وكان الشيخ خليفة بن شخبوط ينوي العودة الى أهالي دبي الذين تنتفخ صدورهم بالكبرياء ويميلون دائما الى اثارة الفوضى والشغب . فعند معرفتهم بأن الشيخ خليفة بن شخبوط قد تلقى إذنا بالتوجه الى العديد ، سارعوا الى اعلام أهل العديد بدلا من التزامهم الصمت كباقي القبائل ، كما أنهم بعثوا برسلهم الى الشيخ سلطان بن صقر ، ويتهمونني بأنني كنت الوسيط الذي استطاع الشيخ خليفة بواسطته الحصول على اذن للقتال .

ومنذ ذلك الحين بعثوا بمركبين الى جميع أفراد قبيلتهم الذين كانوا على مغاصات اللؤلؤ . ويقول البعض ان الغرض من ارسال هذه المراكب كان لتحذيرهم من اي هجوم قد يحصل من جهة ابو ظبي ، ويقول البعض الاخر أنهم قد أدلوا بارشاداتهم اليهم لكي ينتهزوا أقرب فرصة للانتقام من أهالي أبو ظبي لموت أقرباء شيخهم .

ولو أن الامر كان كذلك فان أهالي أبو ظبي لن يصبوا انتقامهم على رعايا الشيخ مكتوم فقط ، بل انهم سوف يقومون على الارجح بالهجوم على حلفائه أيضا ، كالشيخ سلطان بن صقر ، وبذلك يكون قد تم وضع حد لموسم الصيد بأكمله .

ولدى وصول الاثنين وعشرين هاربا من العديد الى دبي بعث بهم الشيخ على متن مركب الى رأس الخيمة ، وقد طلب من الشيخ سلطان بن صقر أن يزودهم بمركب وبعض الرجال للتوجه الى البحر سرا والبدء بشن الهجمات على أبو ظبي . وعندما وصلوا الى عاصمة القواسم وأعربوا للشيخ سلطان بن صقر عن رغباتهم ، عبر الشيخ عن أسفه الشديد لسماع أنباء محاصرة العديد ، وأخبرهم أنه من المستحيل الان وفي ظل هذه الظروف أن يزودهم بالمساعدة التي طلبوها ، لان جميع المراكب الان في مغاصات اللؤلؤ . ولكنه وعدهم بتنفيذ رغباتهم عند انتهاء موسم الصيد وعودة المراكب والرجال .

وتابع الشيخ قائلا : انه عندما جاء المقيم السياسي لزيارة الساحل الغربي من اجل اقامة الصلح ، فانه لم يكن لديه (أي الشيخ سلطان) أية فكرة عن أنه قد سمح لخليفة بن شخبوط بشن الحرب على العديد .

وعندما منحهم طلبا على الشارقة بمبلغ مئة كرون ، أرسل بهم الى ذلك المكان، وعندما استلموا المبلغ عادوا الى دبي ، وأخشى الان أن يقوم سكان دبي بتزويدهم سرا بوسائل الهجوم على أبو ظبي .

ولقد مضى وقت منذ أن زارت آخر سفينة حربية الساحل ، ولا حاجة للتكرار بأن لا شيء يمنع ارتكاب الاعمال غير القانونية مثل زيارة الطرادات الحربية المستمرة للموانىء العربية .

٢ ـ تقرير المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي :

بعث (س.هينل) المقيم البريطاني في الخليج العربي بمذكرة في تاريخ ١٨٣٧/٦/١٧ الى (ج.ب. ويلوغبي) وزير الدولة في حكومة بومباي بعد استيلاء ابو ظبي على العديد مباشرة ، جاء فيها(٢٠) : لي الشرف أن أبلغ حاكم المجلس الموقر عن الاستيلاء على العديد في ١٤ من الشهر الجاري من قبل شيخ ابوظبي خليفة ابن شخبوط . وقد تم نقل التفاصيل التامة لهذا الهجوم في الرسالة المرفقة للوكيل من الشارقة ، غير أنني لا ارى ضرورة الدخول في دقائق هذا الهجوم .

يبدو من هذا التقرير أن قبيلة القبيسات قد سمحت لنفسها أن تباغت على حين غرة ، اذ فقدت خمسين رجلا لدى مقاومة قوات ابو ظبي ، وذلك عندما وجدوا أن المدخل الى المياه العذبة قد عزل الباقين منه فاستسلموا . ومع ذلك استطاع بعض زعماء القبيلة الهروب الى الداخل ، ونجح آخرون في الافلات من سفن أبو ظبي والوصول الى عرض البحر في قواربهم .

وتوجه الشيخ خليفة بن شخبوط لجعل هذه المنطقة غير مأهولة وذلك بهدم جميع الحصون والمباني ، وجعل الابار عديمة الفائدة بقذف جثث المذبوحين فيها ، وملئها بعد ذلك الى القمة بأنقاض الحصون وما جاورها . وبالرغم من ذلك ، فهناك بعض الاسباب التي يخشى أن تؤدي الى جر شيخ ابو ظبي الى الحرب مع زعيمي دبي ورأس الخيمة بسبب عمله البطولي ، فما زلت أنظر الى أمر ترحيل قبيلة القبيسات من العديد على أنه أمر مفيد ، اذ لم يعد للشيخ خليفة عذر في أن يقلل من مسؤولية خط الساحل بأكمله ، وهو الخط الواقع بين العديد وأبو ظبي والمشتمل على منطقة « حيزان » .

لقد تردد على جزيرة « بني ياس » في السنة الماضية الرجل الشرير جاسم ابن جابر وأصحابه الخارجون عن القانون .

وحول حجز قارب دبي في العديد وفقدان بعض أفراد طاقمه الذين نوه عنهم الوكيل ، فاني لا اشك أن يثير الشيخ مكتوم هذا الحادث ليبرر قيامه بأية محاولة للمعاقبة ، اما علناً بواسطة قبيلته ، أو سرا عن طريق دعم القبيسات الذين لجأوا الى مينائه بهدف ارتكاب عدوان على أبو ظبي .

ومع هذا فانني ارى ان التدخل غير ملائم ، ومخالف للاصول والقواعد البحرية لقاربي زعيم دبي في العداءات القائمة بين الشيخ خليفة ورعاياه المتمردين ، ولقد ثبت هذا تماما بواسطة نقل أحد القاربين عشرين من السكان ، ومحاولة القارب الثاني القيام بنفس العمل .

كما ارى أن يرفع اللوم في انتهاك الهدنة عن كاهل حاكم ابو ظبي ويوضع على عاتق شيخ دبي .

وواضح من فحوى رد الشيخ سلطان بن صقر على أسرى العديد ، والذين طلبوا منه الوسائل التي تمكنهم من مهاجمة قوارب ابو ظبي ، التحريض من زعيم قبيلة البوفلاسة وحكام دبي . كما انه من الواضح أنه على الرغم من كونه ما زال يكره الاستيلاء على العديد ،الا أنه لا يميل الى سحب رعاياه من مغاصات اللؤلؤ ليكون نصيرا للقبيلة المهزومة . ولقد تأكدت من هذا الامر لدى تسلمي رسالة من شقيقه صالح شيخ الشارقة ، وبعد الاشارة الى نجاح شيخ ابو ظبي ، أعرب عن امله أن لا يسمح له بأن ينقض الهدنة اذا تمت السيطرة على الروح المخادعة والمضطربة لشيخ دبي . ولدي أمل بأن تبقى الامور هادئة على الاقل في فترة صيد اللؤلؤ .

ولقد أرسلت الآن رسائل الى شيخ دبي أحذره فيها من انه سيكون مسؤولا عن اي عمل عدواني يرتكبه اللاجئون من العديد الى منطقته ، وسأرسل سفينة الشركة المبجلة الحربية (مكيف) بأقرب وقت لدى عودتها الى هذا الميناء ، واعلن فيها عدم السماح له بانتهاك الهدنة أو اتخاذ أي اجراءات لها طبيعة عدائية حيال أبو ظبي على الاقل قبل انتهاء الفترة المحددة له .

وبالنسبة لقسم من تقرير الوكيل ذكر فيه أن الشيخ خليفة قد ارسل قوارب الى الوكرة والبدع طالبا أن يسلم اليه أفراد معنيون ينتمون الى العديد لجأوا الى تلك المناطق . وفي ذلك الوقت وصلتني أخبار ان الشيخ خليفة توجه شخصيا الى ساحل قطر مكتفيا بتحذير الزعماء المجاورين بأنه سيعتبرهم جميعا مسؤولين في حالة انتهاز قبيلة القبيسات فرصة الحماية المقدمة اليهم ليقوموا بازعاج رعاياه أو اتباعه .

ولقد علمت من الجميع أن سلوك الشيخ خليفة بن شخبوط يتميز بالاعتدال ازاء رعاياه المتمردين منذ أن قام باخضاعهم مرة ثانية ، واستعاد جميع الناس الذين تم ترحيلهم الى ابو ظبي قواربهم ، كما أصدر الشيخ عفوا عاما وصفح من اللاجئين الذين ربما يختارون العودة ، ووعد في الوقت نفسه ان يرد لهم سفنهم وممتلكاتهم شريطة ان يسلكوا في المستقبل سلوك الرعايا المطيعين والمسالمين .

ترتبت بعض النتائج على استعادة العديد ، ومن أهمها عودة الاستقرار الى الامارة وعودة القبيسات الى ديارهم . وأهم النتائج :

أولا : توجه القبيسات الى دبي والتخوف من تطور الاوضاع في امارات ساحل عمان : بعد دخول قوات ابو ظبي الى العديد واستعادته ، هرب معظم أفراد القبيسات فالبعض توجه الى قطر ، والبعض الاخر توجه الى الامارات الشمالية في ساحل عمان، وخاصة الى امارة دبي التي كانت تدعم الانفصاليين بغية ممارسة الضغط على ابو ظبي واشغالها باتجاه العديد واضعافها حتى لا تحاول استعادة المنشقين الذين أسسوا لانفسهم امارة دبي ، ونتيجة لفشل شيخ القبيسات في تحقيق الانفصال ، اراد حكام دبي استخدامهم من جديد كورقة ضغط على أبو ظبي ، ولكن المقيم السياسي البريطاني حذرهم من الاخلال بالامن أو تقديم أية مساعدة للقبيسات من أجل القيام بهجمات على أبو ظبي. وطلب « س. هينل» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي من العميد البحري قائد سرية الاسطول البريطاني في الهند اصدار تعليمات الى قائد السفينة الحربية التي كانت راسية في ميناء (باسيدو) بجزيرة (قشم) ، التوجه الى الشارقة ودبي وتحذير الشيخ مكتوم حاكم دبي بأنه سيكون مسؤولا عن أية أعمال يقوم بها أفراد قبيلة القبيسات ، الذين اتخذوا من دبي ملجأ لهم ، وفي حالة ارتكابهم أية أعمال مخلة بالامن ومخالفة للاصول أثناء وجودهم تحت حماية شيخ دبي ضد سكان أبو ظبي أو أفراد آخرين ، فسيكون (مكتوم) مسؤولا عن أعمالهم تلك مسؤولية مباشرة(٢١) .

وأرسلت رسالتان الى سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة ، الاولى من المقيم السياسي البريطاني يقول فيها(٢٢) : بالنسبة لرعايا دبي والذين قدموا لمساعدة القبيسات وقضي عليهم أثناء مهاجمة قوات أبو ظبي للعديد ، فان خرق اتفاقية الهدنة قد تم من حكام دبي وسكانها ، واليك مزيدا من المعلومات بهذا الشأن :

لقد أرسل أكثر من قاربين من قبل الشيخ مكتوم لتحذير قبيلة القبيسات من الشيخ خليفة بن شخبوط على وشك مهاجمتهم ، وعلمنا الان أن القتال قد جرى بين

أفراد طاقم القاربين وقوات أبو ظبي . ولو أنهم ذهبوا بهدف التزود بالماء لكان من الغريب أن القارب الذي احتجزه شيخ أبو ظبي وهرب عائدا الى دبي ، كان مكتظا بأفراد من القبيسات وممتلكاتهم .

وباختصار فان تدخلهم بين الشيخ خليفة بن شخبوط وأعدائه سيؤدي الى وقوع العواقب الوخيمة على رؤوسهم .

وفي الرسالة الثانية من مساعد المقيم السياسي البريطاني الى سلطان بن صقر يقول :

أود اعلامك ردا على ما ذكرته في رسالتك بأن الشيخ خليفة بن شخبوط قد استأذن لمهاجمة دبي ، وأنه قد جرى اعلامك بشكل خاطىء حول هذا الموضوع ، ومع ذلك اذا كان خليفة بن شخبوط قد استأذن ، فليكن معلوما لديك أنه لن يمنح أي اذن للقيام بذلك طالما اتفاقيات الهدنة سارية المفعول ، كما أنه لن يسمح للزعماء الذين وقعوا على وثيقة الهدنة أن يعلنوا الحرب ضد بعضهم البعض في الفترة المحددة في وثيقة الهدنة .

وتأسف الحكومة البريطانية جدا عندما ترى أن التفاهم التام الذي استمر طوال السنوات العشر الماضية بين الزعماء العرب قد تلاشى ، وطالما ان حروبهم مع بعض ظاهرة للعيان ومعترف بها ، فان الحكومة البريطانية لن تتدخل في المنازعات الداخلية. وانا واثق أن خليفة بن شخبوط ليست لديه النية في مهاجمة دبي كما ذكرت ، ولكن تحت أي ظرف من الظروف سيكون لك ولا شك مطلق الحرية في دعم أصدقائك وحلفائك في الساحل العربي في حالة مهاجمتهم من قبل قوى أخرى(٢٣) .

وهذه اشارة واضحة لمساعدة القواسم لحاكم دبي في حال مهاجمتها من ابو ظبي، أي أن السياسة البريطانية لم تكن تهتم بانهاء المنازعات أو فرض الامن الا اذا كان ذلك يشكل تهديدا لمصالحها وليس لمصالح امارات ساحل عمان .

وتأكيدا على هذه السياسة فقد بعث (س. هينل) المقيم البريطاني تقريرا عن ذلك الى (ج.ب. ويلوغبي) رئيس حكومة بومباي بتاريخ ١٨٣٧/٧/١٥ جاء فيه(٢٤) : على الرغم من الازعاج والفزع المستقرين في اذهان زعماء القواسم ودبي بسبب استيلاء وتدمير العديد من قبل خليفة بن شخبوط ، الا أنه لم تجر أعمال عدوانية أو ارتكاب لأي حوادث « قرصنة » سواء من قبل جماعة خادم بن نهيمان او معظم زعماء قبيلة القبيسات الذين هربوا لدى سقوط بلدتهم ، وتم اقناعهم بوضع شروط مرضية عقدها

حاكم ابو ظبي معهم للعودة والاستقرار في ديارهم في أبو ظبي . ومن المحتمل أن يحذو حذوهم بقية الهاربين . وهكذا فان حدوث اضطرابات نتيجة محاولاتهم للثأر من الطرف المعتدي سيتقلص بشكل نسبي .

ولي أمل كبير أن لا يحدث انتهاك للهدنة يستدعي تدخلنا ، ولكن تحت أي ظرف من الظروف سأعتبر انه من واجبي ان ابذل قصارى جهدي للمحافظة على عدم انتهاك هذه الهدنة ، وفيما يتعلق بالاعتقاد بوجهة النظر التي أبداها الشيخ سلطان بن صقر من أن زعيم ابو ظبي قد أضمر نوايا سيئة حيال دبي ، ارى أنه من غيرالمحتمل اطلاقا ان يكون الشيخ خليفة بن شخبوط قد تشجع نتيجة للنجاح الذي لاقته حملته على العديد لان يحاول اعادة دبي تحت سيطرته . ومع ذلك صرحت في رسالتي الموجهة الى شيخ راس الخيمة ، أن الشيخ خليفة بن شخبوط لم يصرح لي عن نوايا كهذه، واذا استأذن فيما بعد لمهاجمة دبي خلال فترة الهدنة فسأرد عليه برفض قاطع . وفي حالة تقديم طلب الاذن بعد انتهاء فصل صيد اللؤلؤ ، فسأخبره بضرورة الرجوع الى الحكومة قبل اعطائه ردا محددا بهذا الخصوص .

في حين بعث مكتوم بن بطي شيخ دبي برسالة الى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة بتاريخ ١٨٣٧/٧/٢٢ ، يحاول فيها تبرئة نفسه من تهمة مساعدة القبيسات التي وجهتها اليه بريطانيا ، ويطلب اعادة بعض ممتلكاته التي فقدت أثناء مهاجمة العديد ، وقد جاء فيها(٢٥) : سبق أن أعلمتنا أن سفينتي (بقرة) العائدتين لنا قد غادرتا (العديد) للمشاركة في الحرب ضد خليفة وانك بعيد النظر ومتفهم للامور أكثر من الاخرين ، واذا تلقيت أنباء تعود الى سفينتي بقرة ، فأرجو ان تسمح لي باعلامك أننا لو كنا ننوي القيام بمساعدة العديد في الحرب لما اتفقنا أن نصبح طرفا في الهدنة . فقد غادرت سفينتا بقرة الى ضفاف شاطىء صيد اللؤلؤ قبل ابرام الهدنة دون أن تعلما بالعمليات التي عزم على القيام بها الشيخ خليفة بن شخبوط ، وبعد أن شاهدتا قوة تقترب منهما هربتا كلتاهما ودخلتا خور العديد ، ولدى وصول خليفة تم احتجازهما . وبعد ان استولى الشيخ خليفة بن شخبوط على العديد حاولت السفينتان الهرب ، الا أنه تمت مطاردتهما وتم الاستيلاء على احداهما وقتل أفراد طاقمها بعد ٢٤ ساعة من الاستيلاء عليها . ولن نقوم بأي عمل يغاير رغباتكم ،ونفيدكم أن رجالنا الذين قتلوا كانوا تحت حمايتكم .

وسبق ان ذكرت ان الاربعة والعشرين رجلا من أهالي العديد هم معنا ، واننا بالتعاون معهم فقد نقضنا الهدنة ، ولكن اذا كان بوسع هؤلاء الرجال أن يقدموا لنا مساعدة فعالة فانهم سيظهرون قوتهم وهم في بلدهم .

ولم نبعث بالرسالة الموجهة الى عبد الله بن احمد التي سبق أن ارسلتها الينا ، وكنت ترغب أن تبعث بها الى البحرين، نظرا لاننا نخاف من الشيخ خليفة بن شخبوط لذا نعيدها اليك راجين ان تقوم بارسالها عن طريق أية سفينة من سفن الحكومة التي قد تتوجه الى البحريـن ، فيكون ذلـك كرما منـك ويرجى اعلامنا لـدى استلامك الرد عنها .

ثانيا : فقدان بعض الممتلكات الخاصة والاضرار الناجمة عن الهجوم : لا شـك أن اي هجوم أو معركة لابد ان تخلف وراءها دمارا تبعا لنوع الهجوم وقوته ، وخاصة عندما هاجمت اربعمائة سفينة وما عليها من قوات منطقة العديد ، التي لا تتجـاوز قواتها ثلاثمائة مقاتل ، فانها لابد تخلف دمارا واضرارا ليس للقبيسات فقط . وانما لغيرهم من المقيمين في العديد أو القادمين أو العائدين ، من التجار وغيرهم . ومن هذه الاضرار فقدان بعض الممتلكات لتجار المنطقة . وخاصة تجار البحرين الذين كانـوا في العديد أثناء المعارك ، فقـام حاكم البحرين عبد اللـه بن أحمد بكتابة رسالة عـن سرقة ممتلكات بعض من تجار البحرين وفقدانها . ورد عليه المقيم السياسي البريطاني في ١٨٣٧/٦/٢٨ برسالة يقول فيها(٢٦) : بالنسبة لما ذكرت حول سرقة ممتلكاتالتجار المعنيين والمقيمين في العديد ، والتي قام بها أفراد من قوات ابو ظبي لدى استيلائهم على العديد ، فأود أن اعلمكم ان العداوة المستمرة بين أهالي ابو ظبي والعديد مسألة غير محمودة السمعة ، ومنذ اربعة اشهر قتل في خيران ابو ظبي (جمع اخوار للمياه الاقليمية في ابو ظبي) عدة افرادمن كلا الطرفين .

مضى الان أكثر من عام منذ أن تسلم الشيخ خليفة بن شخبوط اذن الحكومة لاعادة رعاياه المتمردين الى سلطته ، وتحت هذه الظروف فان هؤلاء الافراد الذين استمروا في الاقامة في العديد ، ذلك المكان الذي يجري فيه القتال ، يستحقون اللـوم لانهم عرضوا انفسهم الى خطر النهب مع المقيمين الاخرين عند مهاجمة مكان اقامتهم .

وكما ذكرت فانا لا استطيع أن اطلب من الشيخ خليفة بن شخبوط التخلي عن الممتلكات المحتجزة ، الا انني سأكتب له وأنصحه بطريقة ودية وذلك من أجـل ازالة كل أسباب الفوضى والاضطراب ، لذلك من المستحسن اعادة الحاجيات للافـراد والرعايا التابعين لسلطة شيو خ العديد ، حيث أن الشيخ خليفة على وفاق وديمعهم ولدى وصول رد منه فسأنتهز أول فرصة للاتصال معك مرة اخرى .

وبعدها بعث المقيم السياسي البريطاني برسالة الى خليفة بن شخبوط بتاريخ ١٨٣٧/٧/٦ ، عن الاضرار التي لحقت بتجار البحرين مع نسخة من رسالة حاكمها

يطلب فيها اذا أمكن استعادة تلك البضائع ، وجاء فيها(٢٧) : أود اعلامك أنني تسلمت مؤخرا رسالة من الشيخ عبد الله بن احمد شيخ البحرين من قبل اتباعك حال استيلائهم على العديد . وبما انني متأكد انه لدى جعل رعاياك المتمردين تحت سلطتك مرة ثانية ، لن يكون في نيتك ان تجعل رعايا جيرانكم المحبين والمسالمين وغير المذنبين يعانون من ضيق ، فأنا واثق بأنك ستتخذ اجراءات لاستعادة البضائع المأخوذة من الافراد المذكورين انفا واعادتها الى اصحابها الشرعيين ، وقد ارفقت لك لائحة بالممتلكات المذكورة لاعلامك بها .

ثالثا : عودة القبيسات الى ابو ظبي واستقرارهم فيها : برغم تصرفات القبيسات وخروجهم عن سيادة أبو ظبي ، ومحاولة الاستقلال وعمل كيان خاص بهم ، وبرغم فشلهم واستيلاء خليفة بن شخبوط على العديد ثم هروبهم والتجائهم الى دبي ،وعلى الرغم من اغراءات حاكم دبي للقبيسات لمهاجمة أبو ظبي أو خلق المشكلات ، الا ان خليفة بن شخبوط تصرف بحكمة وسعة صدر عندما أصدر العفو العام عن جميع افراد القبيسات ، ورد اليهم جميع سفنهم وممتلكاتهم التي صودرت أثناء الحرب ، او بعدما تركوا ابو ظبي ، ثم قام بتقديم الاغراءات المادية السخية لتشجيعهم على الاستقرار والعمل من جديد تحت سيادة ابو ظبي.

الخاتمة :

اتمنى ان اكون قد وفقت في اعطاء الصورة الواضحة ، من خلال الوثائق الرسمية لاطراف المشكلة المتمثلة في محاولة شيخ القبيسات اقامة امارة مستقلة أسوة بامارة دبي التي أقيمت قبل ذلك بعامين ، معتمدا على بريطانيا وعارضا عليها الدخول تحت حمايتها ، وذلك باقتطاع الاجزاء الجنوبية الغربية من امارة ابو ظبي التي تعادل مساحة امارة قطر والبحرين والكويت معا .

ولكن بريطانيا رفضت ذلك لارتفاع تكاليف حماية الامن والاستقرار ، اضافة الى قربها من قبائل وسط وشرق الجزيرة العربية ، مما يصعب معه التحكم وتقديم الحماية الكافية .

ولا ننسى أن بريطانيا كانت تشجع الانقسامات والتجزئة اضافة الى حكام امارات الساحل ايضا ، كما حدث لحاكمي دبي ورأس الخيمة ، اللذين شجعا انفصال العديد عن أبو ظبي ، ولكنها عندما وجدت أن ذلك لا يتفق مع أمنها ومصالحها ، مع ارتفاع تكاليف حمايتها ، فانها تخلت عن القبيسات ، وسمحت لحاكم ابو ظبي باسترجاع العديد ، فعاد الاستقرار والامن الى امارات ساحل عمان من جديد .

ولكن المشكلة لم تنته عند هذا الحد ، فقد هاجرت قبيلة القبيسات للمرة الثانية عام ١٨٤٩ ،ولكن حاكم ابو ظبي استطاع اعادتها بالحكمة والدبلوماسية قبل تفاقم الامور ، ثم هاجرت القبيلة للمرة الثالثة عام ١٨٦٩ ، وكادت بذلك ان تخلق مشكلة كبيرة ، فبعد مجيء الحملة العثمانية عام ١٨٧١ ودخول حاكم قطر تحت السيادة العثمانية ، وحدودها تتاخم منطقة العديد وبتشجيع من حاكمها الجديد قاسم بن ثاني، قامت قبيلة القبيسات بالانفصال عن ابو ظبي ، ولكن هذا الانفصال كانت له أبعاد جديدة ، وهذا ما سوف نتناوله في بحث خاص في المستقبل القريب ان شاء الله .

الهامش والمصدر ، هي وثائق تنشر لأول مرة

(١) R/15/1/68 صفحة (١٨٠) : رسالة من الوكيل البريطاني في البحرين الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بتاريخ ١٨٣٥/٩/٢٣ .

(٢) R/15/1/68 صفحة (٢٠٤ ـ ٢٠٥): رسالة من خليفة بن شخبوط الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي ١٨٣٥/١١/١٥ .

(٣) R/15/1/69 صفحة(٧) : من «ويلوغبي» وزير الدولة في حكومة بومباي الى المقيم بالوكالة في الخليج العربي ١٨٣٦/٧/٩ .

(٤) R/15/1/69 صفحة(١١) : من«ويلوغبي» وزير الدولة في حكومة بومباي الى المقيم بالوكالة في الخليج العربي ، رقم (١٦٩٠) ١٨٣٦/٩/٩ .

(٥) R/15/1/69 صفحة (٤٣) : من مكتب الاشراف ـ بومباي الى مكتب الكابتن « س.هنيل » مساعد المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي ، رقم ٢٦٢٢ (١٨٣٦/١٢/١٧).

(٦) R/15/1/69 صفحة (١٣) : من « و.هـ. وولترس » رئيس الحكومة الى المقيم السياسي بالوكالة في الخليج العربي، قلعة بومباي ١٨٣٦/١٠/٢٩ .

(٧) R/15/1/69 من « و. هـ. وولترس» رئيس الحكومة الى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي ، رقم (٢٠٥٥)، ـ قلعة بومباي ـ ١٨٣٦/١٠/٢٠ .

(٨) R/15/1/69 صفحة (٢٦) : من ويلوغبي وزير الدولة في حكومة بومباي الى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي ، رقم (٢١٨٣) ، قلعة بومباي (١٨٣٦/١١/١٩).

(٩) R/15/1/75 صفحة (٢٤) : من خادم بن نهيمان شيخ العديد الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي (١٨٣٧/١/٧).

(١٠) R/15/1/75 صفحة (٨١) : رسالة من ملا حسين الوكيل البريطاني في الشارقة الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي (١٨٣٧/٣/٢٣).

(١١) R/15/1/75 صفحة (٤٩): من الوكيل البريطاني في البحرين الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي (١٨٣٧/٤/٥).

(١٢) R/15/1/75 صفحة (١٧ ـ ١٨) :من « س.هنيل » المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى « ج.ب. ويلوغبي » رئيس حكومة بومباي ، الدائرة السياسية ١٨٣٧/٤/٩ .

(١٣) R/15/1/75 صفحة (١٣ ـ ١٧) : من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى «ج.ب. ويلوغبي » وزير الدولة في

حكومة بومباي ١٨٣٧/٤/٢٩ صفحة التقرير الثانية .

(١٤) R/15/1/75 صفحة (٢١-٢٢) : من الوكيل البريطاني في البحرين الى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي (١٨٣٧/٥/٦).

(١٥) R/15/1/75 من الوكيل البريطاني في البحرين الى المقيم السياسي البريطاني بالوكالة في الخليج العربي (١٨٣٧/٥/٦).

(١٦) R/15/1/75 صفحة (١٢٣) : من الوكيل البريطاني في مسقط الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بالوكالة عام (١٨٣٧).

(١٧) R/15/1/75 صفحة (١٣-١٧) : من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى « ج.ب. ويلوغبي » وزير الدولة في حكومة بومباي (١٨٣٧/٤/٢٩) ، صفحة التقرير رقم (٤) .

(١٨) R/15/1/75 صفحة (٦٤-٦٦) : من الوكيل البريطاني في البحرين الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بالوكالة ١٨٣٧/٥/٢٤ .

(١٩) R/15/1/75 صفحة (٦٩-٧٦) : من ملا حسين الوكيل البريطاني في الشارقة الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي (١٨٣٧/٦/١) .

(٢٠) R/15/1/75 صفحة (٦٦-٧٢) : من « س. هنيل » المقيم البريطاني في الخليج العربي الى « ج.ب. ويلوغبي» وزير الدولة في حكومة بومباي (١٨٣٧/٦/١٧) .

(٢١) R/15/1/72 صفحة (٦٦-٧٢) : من « س.هنيل » المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى العميد البحري قائد سرية الاسطول البحري الهندي (١٤/٦/ ١٨٣٧) .

(٢٢) R/15/1/74 صفحة (٥-٦) من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى الشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة (١٨٣٧/٧/١٤) .

(٢٣) R/15/1/74 صفحة (٥-٦) من المقيم المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بالوكالة الى الشيخ سلطان بن صقر حاكم رأس الخيمة (١٨٣٧/٧/١٤) .

(٢٤) R/15/1/72 صفحة (٨٨-٩٠) : من « سي. هنيل » المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى « ج.ب. ويلوغبي » رئيس حكومة بومباي (١٨٣٧/٧/١٥) .

(٢٥) R/15/1/75 صفحة (١٤١ - ١٤٢) : من مكتوم بن بطي حاكم دبي الى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بالوكالة (١٨٣٧/٧/٢٢) .

(٢٦) R/15/1/74 صفحة (٢-٣) : من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى الشيخ عبد الله بن احمد حاكم البحرين (١٨٣٧/٦/٢٨).

(٢٧) R/15/1/74 صفحة (٤) : من المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الى الشيخ خليفة بن شخبوط حاكم ابو ظبي (١٨٣٧/٧/٦) .

تغير وضعية اليهود في المغرب الأقصى
في القرن التاسع عشر
وموقف الحكومة المغربية منها

د. تركي عجلان الحارثي
جامعة الملك عبد العزيز ـ جدة

تمهيد :

كانت الديانة اليهودية أول ديانة سماوية تصل الى شمال افريقيا ، ليعتنقها بعض السكان من القبائل البربرية الوثنية مثل جراوة ومدينونة وبهلولة وغياثة وبنو بازاز(١) ، وظلت متمسكة بدينها برغم ضغوط الرومان لنشر الدين المسيحي . وكأمة غالبة استطاع الرومان تحويل الكثير من البربر من الوثنية الى النصرانية ووقف انتشار اليهودية بين الوثنيين بوضع القيود على التحول اليها ، وقلصوا من حريات اليهود في ممارسات شعائرهم الدينية . الا أن الوندال الذين كانت لهم الغلبة في شمال افريقيا فيما بعد أعطوا لليهود حرية دينية كاملة (٢) .

ولما ظهر الاسلام انتشر في الجزء الشمالي ـ الغربي من القارة الافريقية ، وهو ما عرف بعد الفتح باسم المغرب(٣) . وقد تركز هدف المسلمين على نشر الدين بين سكانه ، يهودا أو مسيحيين أم وثنيين ، فدخل بعضهم في الاسلام ، وبقي البعض الاخر على دينه ، لان الدين الاسلامي أعطى الخيار لاهل الكتاب(٤) بين الدخول في الاسلام او الدخول في عهد أهل الذمة ، استنادا الى أساس متين من مبادىء الاسلام بأن لا اكراه في الدين(٥) . قال تعالى : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي »(٦) .

عاش يهود المغرب الاقصى تحت عقد أهل الذمة الذي حدد ما لهم وما عليهم(٧)، ودخل بعضهم في الاسلام بعد الفتح العربي الاول برغم تمتعهم بما وفره لهم الدين الاسلامي من ضمانات . وعندما سيطر ادريس الاول زحف على بعض القبائل التي كانت على اليهودية والنصرانية ، مثل تندولاة وبهلوانة ومديونة ومازار ، وادخلها في الاسلام (٨) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

تعاقب على المغرب الاقصى بعد الادارسة على التوالي المرابطون والموحدون والمرينيون . وعلى الرغم من اعتماد سياسة تلك الدول على الرباط والجهاد وتوحيد البلاد تحت مظلة الدين ، الا أن المجتمعات اليهودية نعمت بالامن وممارسة معتقداتها، بضمانات عهد أهل الذمة ، الذي كان الطابع الملازم للعلاقة بين دول المغرب والاقلية اليهودية فيه(٩). وعندما أخذ ميزان القوى العسكرية خلال القرن الخامس عشر يتحول لصالح المسيحيين في الاندلس عانى المسلمون واليهود على السواء ، وأجبروا على مغادرة البلاد أو التنصر(١٠) فغادر نحو مائة وخمسين الفا من اليهود ، استقر الكثير منهم في المغرب الاقصى وتركزوا في كبريات المدن المغربية مثل فاس ومكناس وطنجة وتطوان والرباط وآسفي ، وعاشوا آمنين على أنفسهم وأموالهم، ممارسين لشعائرهم الدينية، وقاموا بدور كبير في تجارة المغرب الداخلية والخارجية وسيطروا على معظمها ، متعاونين مع يهود الواحات الجنوبية ، مما ساعدهم على السيطرة على تجارة جنوب الصحراء (١١) .

وفي عهد الدولتين السعدية والعلوية بقي لليهود مركز الصدارة في تجارة المغرب، وعمل البعض منهم في السلك الدبلوماسي فكان قيمران أحد مستشاري مولاي اسماعيل بن محمد (١٦٧١ - ١٧٢٧ م) ، وعقد ابن عطار معاهدة مع انكلترا نيابة عن السلطان محمد بن عبد الله .وخلال الحكم العلوي بالذات نعم اليهود باهتمام خاص من قبل السلاطين ، فصدرت أوامر سلطانية بتوسيع عدد من أحياء اليهود وترميم أسوارها كي تتوافر لهم الحماية والامن . بل أن السلطان رشيد رفض محاولة فرنسة احتكار تجارة المغرب الخارجية مقابل مبلغ من المال ، لان ذلك يضر بتجارة اليهود ، ولانهم رعايا السلطان ويجب الحفاظ على مصالحهم(١٢) .

يهود المغرب الاقصى في مطلع القرن التاسع عشر :

في بداية القرن التاسع عشر كان اليهود يمثلون ٧٪ من سكان المغرب الذين قدر عددهم في أواخر القرن بين خمسة وتسعة ملايين(١٣) ، وتتركز غالبيتهم في المدن الرئيسة كما مر ، وفي عدد من مناطق الداخل مثل صفرو وتارودانت وسجلماسة وتافيلالت(١٤) ، وأهم الاعمال التي كانوا يمارسونها التجارة الخارجية والداخلية . وقد رفع اسهمهم في التجارة الخارجية علاقتهم بيهود اوربا ، ومعرفتهم للغات الاجنبية وسيطرتهم على القروض البنكية الربوية . ولهذا العامل الاخير دور كبير في استحواذهم على نسبة كبيرة من التجارة الداخلية ، كتجار جملة ، مما قلص من فرص التجار المسلمين ، خاصة وان التجارة عن طريق الربا محرمة في الاسلام(١٥).

حفظ سلاطين الدولة العلوية لليهود حقوقهم التي ضمنها لهم عهد اهل الذمة، ففي فترة حكم السلطان سليمان بن محمد (١٧٩٢ – ١٨٢٢ م) صدر أمر سلطاني بتوسعة مسجد تطوان حتى أصبح متصلا بملاح اليهود . فما كان من السلطان الا أن اقطع اليهود أراضي مخزنية دون مقابل ومنحهم فرصة لبيع دورهم للمسلمين، وأعطاهم الوقت الكافي لبناء دور جديدة بعيدا عن المسجد حتى لا يتضرروا من المسلمين ولا يتضرر المسلمون منهم(١٦) . وعندما ضاق ملاحا الرباط وسلا على أهلهما سمح لهم السلطان سليمان بانشاء ملاح بأطراف مدينة الرباط بعد أن أقطعهم أراضي يقيمون عليها دورهم وحوانيتهم(١٧) .

ومن أهم الاعمال التي أولاها حكام المغرب اهتمامهم توفير الامن والحماية لليهود، والسماح لهم باقامة أسوار حول أحيائهم في كافة المدن حتى انهم خصصوا بعض العسس لحمايتهم أثناء الليل ، ومع ذلك نجد أحياء اليهود مستهدفة اثناء الفتن والثورات . ففي رمضان سنة ١٨٢٠ قام جيش الودايا باعلان العصيان ضد سليمان ابن محمد ونهب ملاح اليهود بفاس وما فيه من الكتان والحرير والنقود كالذهب والفضة، حتى أن أحمد الناصري وصف ذلك بقوله : « .. وضاعت في ذلك أموال لا يحصيها قلم حاسب .. »(١٨) . وتعدى ذلك الى الاعتداء على محارم اليهود وارتكاب بعض المنكرات التي تتعارض مع الدين الاسلامي كالافطار في أيام رمضان . ولم يقتصر اذي الوداايا على اليهود بل شمل المسلمين مما جعل أهل فاس مسلمين ويهودا يقفون في وجه الثوار . واخمدت الفتنة بعد توصل الاطراف الى صلح وأعاد الوداايا بعض ما نهبوه(١٩) .

ويبدو أن اليهود كانوا مستهدفين من الخارجين على السلطان . فعندما قام أهالي فاس والقبائل المحيطة بها بتولية ابراهيم بن يزيد بحجة ان عمه السلطان سليمان غير قادر على حمايتهم من جيش الوداايا ، تعرض اليهود للاعتداء على ملاحهم ونهبت منه أموال كثيرة . واستطاع السلطان هزيمة الثوار بالقنطرة بالقرب من فاس واستولى على أموال طائلة كانت قد نهبت من ملاح تطوان . وعندما قام السلطان سليمان باسترداد تطوان قام على حد قول الناصري« بالصفح عنهم (عن أهلها) واحسن اليهم »(٢٠) ويبدو أن الكاتب يشير الى اعادة ما نهبه الثوار الى اليهود .

وبعد وفاة السلطان سليمان بن محمد سنة ١٨٢٢م/١٢٣٧هـ وتولية ابن أخيه عبد الرحمن بن هشام ظل اليهود في المغرب يلتزمون بعهد أهل الذمة، والحكومة المغربية تقدم لهم الحماية في حدود الامكانيات المتوافرة . ففي ١٢٥٦هـ . على سبيل المثال ، قام الذميون في سلا بدفع جزيتهم المتأخرة ثلاث سنوات (ألف مثقال) لعامل

المدينة احمد عواد الذي ارسلها بدوره للخزينة المغربية(٢١) . وعندما طلب يهود مكناس عام ١٢٧٥هـ من السلطان عبد الرحمن بناء سور جديد للاحهم امر السلطان بذلك(٢٢) ، وعندما قامت بعض العصابات فيما بعد بالهجوم على ملاح مكناس والاضرار بسوره ، وقتل ذمية وجرح ذميين ، غضب السلطان وأمر بترميم السور وزيادة العسس ، وبتتبع تلك العصابات ، التي كان معظم أفرادها من قبائل زمور ومجاط وجران(٢٣) .

وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر شارك اليهود كغيرهم من المواطنين المغاربة في الحياة السياسية والاقتصادية في المغرب ، فقام السلطان عبد الرحمن ابن هشام في ١٨٢٧ بانتداب مير بن مكنين كمبعوث له في لندن ولكن الحكومة البريطانية رفضت شخصية مكنين بحجة انه كان أحد رجال الاعمال المعروفين في المغرب ، وانه لم يقم بتسديد الديون المتراكمة عليه للتجار الانكليز(٢٤) .

وفي الاقتصاد استمر اليهود في الاستحواذ على نسبة كبيرة من التجارة الخارجية ، بل أن الحكومة المغربية عادة ما قدمت لهم تسهيلات كتخفيض الضرائب وامهالهم لتسديد اثمان الغلال التي يقومون بشرائها من المنتجين أو التجار ،وتسويقها فيأوربا مثل القمح والسكر والصوف(٢٥) . ونظرا لعمل الكثير من اليهود في الميدان التجاري فلقد سنحت لهم الفرصة لايجاد روابط اقتصادية واجتماعية بالاوربيين استطاعوا من خلالها أن يكسبوا تعاطف هؤلاء الذين عملوا جاهدين لتغيير وضعيتهم ، من مواطنين مغاربة ذميين الى أفراد لهم وضعيتهم الخاصة والمتميزة ، والتي تفوق وضعية المغاربة المسلمين انفسهم . ذلك التغيير لم يستغرق فترة طويلة كما سنرى في الصفحات القادمة .

التواجد الاجنبي واستغلال اليهود له :

في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر أخذت المصالح الاستعمارية في المغرب الاقصى تنمو يوما بعد اخر، وتمثل ذلك فيعقد المعاهدات وارسال الدبلوماسيين للحفاظ على هذه المصالح وبخاصة السياسية والاقتصادية . وعلى الرغم من أن المغرب في بداية القرن التاسع عشر كان يرتبط بمعاهدات تجارية مع معظم الدول الاوربية الا أن السلطان سليمان بن محمد حاول تقليص التجارة الخارجية للمغرب مع تلك الدول وذلك بمنع سفر التجار المسلمين الى اوربا الا باذن ، ووضع قيودا على سفر اليهود ومتاجرتهم مع الدول الاوربية خوفا من تهريب رؤوس الاموال ، كما انه حاول الغاء الجهاد البحري حتى لا يعطي الفرصة للاوربيين للتدخل في المغرب(٢٦) . الا ان

تلك السياسة ـ التي وصفها الكثير من المؤرخين الاوروبيين بسياسة العزلة والانغلاق ـ لم تستمر طويلا ، فقد توفي السلطان سليمان بن محمد وخلفه ابن اخيه عبد الرحمن بن هشام الذي نهج سياسة مغايرة لسياسة عمه ، فقام باحياء الجهاد البحري وزيادة عدد الاسطول المغربي وترميم الموانى لكي يواكب التطورات السريعة التي طرأت على اساطيل الدول الاوربية . وكان لهذا النهج الجديد أثره السلبي والايجابي على علاقات المغرب الخارجية ، فمن آثاره السلبية ظهور نوع من الاحتكاك المسلح بين الاسطول المغربي والاساطيل الاوربية التي اعتادت ان تجوب الشواطىء المغربية متحدية بذلك المغرب في سيادته على شواطئه ، ومن الناحية الايجابية كان لقرار احياء الاسطول أثره في تنشيط التجارة الخارجية للمغرب اذ كان هناك العديد من الدول الاوربية تحاول زيادة نشاطها التجاري معه(٢٧) . وبالطبع قام اليهود بدور بارز في هذا الميدان .

زاد من النشاط التجاري للمغرب الاقصى مع أوربا ازدياد المصالح الاوربية فيه، بخاصة عند احتلال فرنسا للجزائر . فمع أن المغرب حاول عدم التدخل عسكريا الى جانب الجزائريين ، الا أن السلطان عبد الرحمن استجاب لمطالب اهالي تلمسان بضمهم الى المغرب اداريا . ذلك القرار لم يكتب له النجاح لان فرنسا اجبرت السلطان على سحب الادارة المغربية من تلمسان ، وبذلك تحسنت العلاقة بين البلدين . كذلك قام السلطان بمساعدة الامير عبد القادر الذي اتخذ من التراب المغربي ملجأ له . فساءت العلاقة مع فرنسا لتصل الى صدام مسلح في معركة ايسلي سنة ١٨٤٤م ، التي هزم فيها المغرب(٢٨) ، وبنتيجتها فرضت عليه معاهدة ١٨٤٤م التي استطاعت فرنسا من خلالها ان تحصل على امتيازات تجارية جديدة وأن تعامل معاملة الدولة الاكثر تفضيلا في المغرب(٢٩) .

كانت تلك المعاهدة بداية التنافس بين الدول ذات المصالح الكبيرة في المغرب، واهمها فرنسا وبريطانيا واسبانيا . فبعد المعاهدة الفرنسية ـ المغربية قامت بريطانيا بالضغط على الحكومة المغربية ـ خاصة عندما انخفض التبادل التجاري بين الدولتين الى أقل مستوى في بداية الخمسينات ـ واضطرتها الى توقيع معاهدة ١٨٥٦ التجارية ، التي ضمنت لها امتيازات تفوق امتيازات فرنسا(٣٠) . واشتد التنافس عندما دخلت اسبانيا في حرب ضد المغرب (١٨٥٩) وهزمته واملت شروطها في معاهدة الصلح (١٨٦٠) ، ومن اهمها الشرط الثالث عشر الذي نص على أن يعامل رعايا اسبانيا معاملة رعايا الدولة الاكثر تفضيلا(٣١) .

ادى التنافس الاوربي الى ازديا التبادل التجاري مع الدول الاوربية . وبلغت

المراكب الراسية في موانيء المغرب الاقصى نحو ٤٧٠ مركبا(٢٢) عام ١٨٥١ ، وارتفع هذا العدد الى ١٦٥٠ مركبا(٢٣) عام ١٨٧٣ . ومن احصاءات حجم تجارة المغرب الخارجية ، التي بلغت ٢٦٥٩٠٣ طنا عام ١٨٧٨(٢٤) ، نجد ان بريطانيا وفرنسا واسبانيا كانت تستحوز على معظمها ، اذ بلغ حجم تجارة تلك الدول ٢١٠٦١٦ طنا في تلك السنة ، اي ما يعادل اربعة اخماس تجارة المغرب الخارجية تقريبا .وبازدياد حجم التبادل التجاري ازداد التواجد الاوربي فارتفع عدد الاوربيين في المغرب من ٢٥٠ فردا عام ١٨٣٢ ، الى عشرة آلاف تقريبا عام ١٨٩٤(٢٥) . وكان لازدياد حجم التجارة ونمو الاستيطان الاوربي اثره على تحول وضعية اليهود في ذلك البلد .

ومع سنوات النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازداد التنافس الدولي للحصول على اكبر قدر ممكن من المكاسب السياسية والاقتصادية في المغرب . وتمثل سياسيا في مد يد العون لليهود ومحاولة استغلالهم كأقلية لاضعاف الجبهة الداخلية. اضافة الى ذلك كان للاوربيين الدور الكبير في جعل السلطان محمد بن عبد الرحمن وابنه الحسن من بعده يتبنيان سياسة الاصلاح ، التي من خلالها استطاعوا ان يؤثروا على القرار داخل المغرب . فقد نجح الانكليز منذ بداية ستينات القرن الماضي في اقناع الحكومة المغربية بادخال اصلاحات ادارية واقتصادية وتعليمية وعسكرية(٢٦) . وهدفهم التغلغل داخل المغرب عن طريق تلك الاصلاحات والحفاظ على مصالحهم في المقام الاول وليس انقاذ المغرب مما يعاني منه .

كان للنجاح الذي حققه الانكليز الاثر الكبير في زيادة حدة التنافس ، فاخذت الدول الاوربية الاخرى تحذو حذو بريطانيا . ووصل التنافس ذروته في مؤتمر مدريد، الذي كان يفترض أن يضع حدا للحماية الاجنبية الا أنـه منح الاوربيين امتيازات جديدة(٢٧) . أما من الناحية الاقتصادية فكانت المعاهدات بين المغرب وبعض الدول الاوربية كفيلة بحفظ المصالح الاوربية فيه ، وفتحت أسواقه للمنتجات الاوربية التي اعفيت من أكثر الضرائب داخل المغرب .

كان للمكاسب السياسية والاقتصادية التي حصل عليها الاوربيون الاثر الكبير في زيادة نفوذهم داخل المغرب ، الذي شمل الكثير من مناحي الحياة ، حتى كاد المغرب أن ينهار لولا التنافس الكبير بين الاوربيين انفسهم الذي اطال امد استقلاله حتى بداية العقد الثاني من القرن العشرين .

أما اليهود فقد وجدوا ضالتهم في الاوربيين ، الذين اخذوا في تعيين بعضهم قناصل لدولهم في المدن المغربية . ففي أواسط القرن التاسع عشر اكد القنصل

الامريكي هذه الحقيقة عندما أشار أن جميع نواب قناصل الدول الاوربية ، ما عدا نواب القنصل البريطاني من اليهود(٣٨) . وكان لتلك التعيينات الاثر الكبير في تغير وضعيتهم الاجتماعية والاقتصادية ، وأخذ نواب القناصل اليهود في التحرر من القانون المغربي عندما أصبحوا يتمتعون بحصانة دبلوماسية ، وذلك بصفتهم يمثلون دولا تكفل لمن يعمل في سلكها الدبلوماسي امتيازات وحقوقا كثيرة ، وعينوا بعض أبناء جلدتهم كمخالطين أو ممثلين أو سماسرة لهم ، ومنحت لهم الحماية التي استخدمها القناصل الاجانب ونوابهم أسوأ استخدام(٣٩) . ومن الناحية الاقتصادية ، كان معظم نواب القناصل تجارا ، وبعد توليهم تلك الوظائف رفضوا دفع الضرائب التي كانت تؤخذ منهم ، كالجزية وغيرها من المكوس ، وكان لذلك أثر كبير في اضعاف اقتصاد المغرب لان تلك الضرائب والمكوس تمثل نسبة كبيرة من موارد بيت المال المغربي .

لقد كان للتواجد الاجنبي طرقه الخاصة لتبرير استخدام اليهود فأخذ القناصل والرحالة بل والتجار الغربيون يصورون لشعوبهم أن اليهود يعيشون في بؤس ، وأنهم كانوا يخضعون لعهد أهل الذمة الذي يتدخل في شؤونهم الخاصة كالملابس والسلوك ، ويضيع حقوقهم التي يجب أن تكفل لهم ولو على حساب استقرار المغرب وأمنه ..(٤٠) . ووجدت تلك الضجة اذنا صاغية من الحكومات الاجنبية التي اخذت تتعاطف مع اليهود في المغرب . وهذا ما أشارت اليه الكثير من المراسلات التي كانت تصل الى القناصل الاجانب في طنجة . ففي احدى الرسائل المرسلة من الحكومة الامريكية الى قنصلها في طنجة Jesse Mcmath جسي مكماث ، وردت التعليمات القاضية باستخدام جميع الامكانات لمساعدة يهود المغرب باسم الانسانية(٤١) . وقدم القنصل الامريكي ، كغيره من القناصل المساعدة لليهود ، لا من أجل انتشالهم من الظلم والجور ، وانما من أجل تحقيق مصالح دولته الاقتصادية وأهدافها السياسية . وهذا هو الهدف الحقيقي الذي سعت من أجله جميع الدول الاجنبية واخفي تحت ستار اغاثة اليهود(٤٢) .

ضغوط اليهود الدولية وموقف الحكومة المغربية :

اضافة الى تقارير القناصل الاجانب الى حكوماتهم والمقالات التي تكتب في الصحف الغربية ، تصور بؤس اليهود في المغرب ، أخذت المنظمات اليهودية داخل المغرب في استعطاف الحكومات الغربية عن طريق الهيئات اليهودية في أوربا وامريكا . ففي بداية الستينات من القرن التاسع عشر بدأت بالكتابة الى الهيئات اليهودية في الغرب تطلب منها التدخل لصالح يهود المغرب . ومن أهم النداءات التي وجهها اليهود المغاربة الرسالة التي بعث بها يهود طنجة الى المنظمات اليهودية في كل من لندن وباريس

ونيويورك ، وزودوا القناصل الاجانب في طنجة بنسخة منها ، وتضمنت وصفا للحالة السيئة لليهود في المغرب وانتقدت الحكومة المغربية لتنفيذها حكم الاعدام في بعض اليهود المغاربة الذين ارتكبوا الجرائم ، ووصفت ذلك الاعدام بأنه لا ينبغي أن يحدث على علم من الامم المتحضرة ، وطالب مرسلو تلك الرسالة باسم الانسانية حكومات الدول الاوربية بأن تضع اليهود تحت حمايتها(٤٣) .

كان لتلك التقارير والمقالات والاستفاثات أثر كبير في تعاطف الاوربيين والامريكيين مع يهود المغرب . اضافة الى ذلك قامت المنظمات اليهودية بالضغط على حكوماتها في الغرب لمساعدة يهود المغرب ، فطالبت المنظمة اليهودية البريطانية بتدخل الحكومة البريطانية ، وأرسل وزير الخارجية البريطانية اللورد جون راسل John Rassul الى القنصل البريطاني في المغرب جون هاي John Hay تعليمات تقضي بمساعدة اليهود المغاربة على أن لا تصل تلك المساعدة الى التعدي على سلطة الحكومة المغربية على رعاياها . وازدادت الضغوط لتصل الى طلب رئيس الجالية اليهودية في بريطانيا موسى مونتفيوري من حكومته السماح له بالسفر الى المغرب وترتيب لقاء بينه وبين السلطان . فقام القنصل البريطاني بترتيب هذا اللقاء وكتب الىالوزير الاعظم يخبره بتوجه مونتفيوري الىعاصمة السلطان ويطلب منه أن يستقبل الاستقبال الحسن(٤٤) . وعندما وصلت البعثة البريطانية الى مراكش في ٢٥ يناير ١٨٦٤م أستقبلت الاستقبال الحسن . وبعد عدة أيام عقد اجتماع مع السلطان محمد ابن عبد الرحمن نوقشت فيه أحوال اليهود . وكان من أهم الامور التي توصل الطرفان الى حلها اطلاق سراح يهوديين من السجن اتهما بقتل أحد الاسبان بعد أن أبرهما أصحاب القتيل(٤٥) . واستطاع مونتفيوري أن يستصدر من السلطان ظهيرا (مرسوم) يؤكد معاملة اليهود المعاملة الحسنة ، ومما ورد فيه : « ... من سائر خدامنا وعملنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر ايالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الاحكام حتى لا يلحق احدا منهم مثقال ذرة م نالظلم ولا يضام ، ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام ، وأن لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا في أنفسهم ولا في أموالهم ، وان لا يستعملوا أهل الحرف منهم الا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم لان الظلم ظلمات يوم القيامة ، ونحن لا نوافق عليه لا في حقهم ولا في حق غيرهم ، ولا نرضاه لان الناس عندنا في الحق سواء ، ومن ظلم أحدا منهم أو تعدى عليه فانا نعاقبه بحول الله، وهذا الامر الذي قررناه واوضحناه وبيناه كان مقررا ومعروفا محررا لكن زدنا هذا المسطور تقريرا وتأكيدا .. »(٤٦) .

نلاحظ أن السلطان استطاع كسب الصداقة البريطانية بهذا الظهير ، برغم انه

لم يضف جديدا على ما قرره الاسلام لأهل الذمة . وهذا ما حاول السلطان تأكيده عندما اشار الى أن التعليمات التي أرسلت الى عماله مقررة ومعروفة. واستغل اليهود هذا المرسوم وأخذوا ينسخونه ويوزعون النسخ على يهود المغرب ، ويفسرون ما ورد فيه بما يتفق مع مصلحتهم على حساب مواطنيهم المسلمين ، مما جعل السلطان يستدرك ويلحق ذلك الظهير بكتاب آخر موضحا فيه ما فسر خطأ : « .. فنأمرك أن تستوصي خيرا بضعفاء اليهود ومساكينهم المعروفين بالسكينة المشتغلين بمعاشهم وأما صعاليكهم المعروفون بالفجور والتطاول على الناس والخوض في الامور فعاملهم بما يستحقونه على فعلهم أن فعلوا ما يوجب تربيتهم جزاء وفاقا ... »(٤٧) .

لم تتوقف الهيئات اليهودية في الخارج عن ضغوطها على الحكومة المغربية ، التي عادة ما تكون مقرونة بوصايا من الدول الاوربية . ففي عام ١٨٦٥م تلقى السلطان محمد بن عبد الرحمن خطابا من وزير خارجيته ومعه خطاب من أحد اليهود البريطانيين يوصي بالاهتمام باليهود المغاربة ، فكان رده أيجابيا مواصلا بذلك سياسته الرامية الى عدم الاصطدام مع الانجليز ، وجاء فيه « .. فقد وصلنا كتابك وصحبته كتاب اليهودي موزي افلوري وترجمته الواردة على يد باشدور دولة النكليز (الانكليز) كما وصل كتابه الذي كتب لك عن اذن دولتهم في شأن اليهود وتجديد وصية العمال عليهم، فها نحن أمرنا كاتبنا بأن يجيبه ويوجهه لك لتوجهه له ... »(٤٨) .

لقد اخذ القناصل ونوابهم على عاتقهم الدفاع عن يهود المغرب تنفيذا لتعليمات حكوماتهم ، ولكسب اليهود ــ وبخاصة من يعمل منهم بالتجارة ، الى جانبهم ، ليكونوا موزعين لتجارة بلدانهم من جهة ، وللتدخل في شؤون المغرب الداخلية من جهة أخرى. بل ان أولئك القناصل كانوا يريدون أن يصنعوا لانفسهم شيئا من الهيبة والاحترام عند الجهاز الاداري للحكومة المغربية وفي أعين الناس الذين دخلوا في حماية الدول الاجنبية ، فلقد أرسل نائب القنصل البريطاني في الدار البيضاء خطابا الى السيد الكبير بن المدني أحد قواد السلطان جاء فيه « .. فموجبه الاعلام لديك اننا لنا الاذن من طنجة من عند باشدورنا اذا وقع ظلم من كل احد على اليهود فيكون أمرهم عندي ونتكلم عليهم ونكون بصيرة عليهم أينما كانوا ، كما عندك الامر بذلك من قبل السلطان نصره الله ، وان لا يقع ظلم على اليهود حسبما ورد الامر بذلك لدى جميع القواد لانهم تحت الذمة ، فلا يقع عليهم ظلم من أهل دائرة القواد وغيرهم ... »(٤٩) .

ومع مرور سنوات النصف الثاني من القرن التاسع عشر أخذت المنظمات اليهودية في أوربا والولايات المتحدة في الضغط على الحكومة المغربية وتوجيه أصابع الاتهام اليها في معاملتها لليهود المغاربة ، عن طريق البعثات الدبلوماسية أو بواسطة

قناصل الدول الغربية ففي بداية السبعينات طالبت المنظمة اليهودية في باريس وزير الخارجية الفرنسي بالتدخل لدى السلطان لكي يزيل الظلم والقسوة عن يهود المغرب حسب ادعائها . أما القنصل البريطاني جون هاي John Hay فتحت ضغوط المنظمة اليهودية البريطانية قام بتقديم احتجاج لدى السلطان سنة ١٨٧٣م طالب فيه بمعاملة يهود الرباط ومكناس المعاملة الحسنة ، فأكد السلطان على عاملي المدينتين بأن يعاملا اليهود معاملة خاصة(٥٠) . وفي نيويورك قامت الجمعية اليهودية الامريكية بارسال خطاب الى القنصل الامريكي فليكس ماثيوز Felix Mathews في طنجة مشيرة فيه الى ما يتعرض له اليهود في المغرب من اضطهاد وتمييز عنصري حسب ما ذكرت الرسالة وفي نهاية ذلك الخطاب طالبت الجمعية الامريكية القنصل الامريكي بمساعدة اليهود بعد أن حاولت كسبه ببعض الكلمات المعسولة(٥١) .

على أن المنظمات اليهودية في أوربا والولايات المتحدة لم تهمل طرقا أخرى للضغط عن طريق المراسلات التي تصل من وقت الى اخر الى السلطان ورجال دولته مباشرة تطالبهم بالاهتمام باليهود . فعندما قام الحاج محمد الزبدي بزيارة لبريطانيا في أواسط السبعينات من القرن التاسع عشر تقدمت المنظمة اليهودية البريطانية ببعض المطالب، تمثلت في كف حاكم أزمور عن معاملته غير العادلة لليهود فيها ، والسماح ليهود الصويرة ببناء ملاح جديد نظرا لضيق ملاحهم ، والتأكيد على عمال السلطان بان يعاملوا اليهود بالحسنى . ويبدو أن الزبدي أبدى استعداده لعمل ما يمكن عمله في سبيل تحقيق تلك المطالب . والملفت للنظر أن المنظمة اليهودية البريطانية اعتمدت على اتهاماتها ضد حاكم أزمور على تقارير السواح الذين كانوا يبالغون عادة بقصد أو بغير قصد ، في وصفهم لحالة اليهود في المغرب(٥٢) .

كان للضجة الواسعة والمفتعلة داخل المغرب وخارجه حول أوضاع اليهود المغاربة الاثر الكبير في استعطاف الرأي العام في الدول الغربية وأصبحت المنظمات اليهودية العالمية في الغرب تدافع عن يهود المغرب وكأن لها الوصاية على ذلك . وفي واقع الامر أن تلك الهيئات كانت تطالب بامتيازات ليهود المغرب تتعدى عهد أهل الذمة الذي كان اليهود مقتنعين بعدالته منذ قدوم الاسلام وحتى القرن التاسع عشر . هذا لا يعني أن اليهود المغاربة لم يتعرضوا لأي حوادث تعكر صفو عيشهم ، فالاحداث السياسية التي مرت بها البلاد كان لها الاثر على أمن واستقرار مواطني المغرب مسلمين ويهودا على السواء ، كما ان بعض الاعتداءات التي تعرض لها اليهود من بعض الخارجين عن القانون أو السوقة لم تكن الحكومة راضية عنها . ولكن مطالب اليهود كان الهدف منها اعطاءهم امتيازات تفوق ما يتمتع به غيرهم من المسلمين . اضافة الى ذلك استغلال وجود اليهود كأقلية في المغرب جعل الاوربيين يستغلون ذلك لصالحهم ، فبداوا

يثيرون تلك الاقلية ضد الاكثرية المسلمين وبالفعل نجح الاوربيون في ذلك حيث استخدموا اليهود كممثلين دبلوماسيين وكسماسرة يقومون بتسويق منتجاتهم في المغرب .

اندفاع اليهود نحو الحماية الاجنبية :

تعتبر الحماية الاجنبية لبعض الرعايا المغاربة من أكثر المشاكل التي واجهت الحكومة المغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وكانت تلك الحماية ، التي عرفت بالحماية القنصلية ، مقصورة على القناصل الاجانب أو نوابهم فقط . ومع ازدياد المصالح الاجنبية أخذ القناصل الاجانب في تعيين نواب لهم من المغاربة اليهود الذين كانوا على معرفة ببعض اللغات الاوربية ، ولهم علاقات تجارية مع يهود أوربا ، لكونهم يعملون في السلك الدبلوماسي الاجنبي ، وهذا ما أشارت اليه المعاهدات المبرمة بين المغرب والدول الغربية (٥٣) . فتحول نظام الحماية القنصلية من حماية رعايا الدول الاجنبية الى حماية المغاربة أو ممن يعولونهم ، وبذلك بدأ الشرخ في القانون المغربي ، خاصة عندما أخذت بعض الدول الاوربية تطمح بل وتطالب بالامتيازات التي حصلت عليها بريطانيا في معاهدة ١٨٥٦م (٥٤). وكان للتسابق المحموم بين الدول الاجنبية على تحقيق مصالحها الاقتصادية الاثر المباشر على زيادة الحمايات واضفائها على الكثير من تجار اليهود ، حتى أصبحت الحكومة المغربية غير قادرةعلى السيطرة على رعاياها .

تمثل الدور الذي قام به اليهود العاملين في القنصليات نوابا او تراجمة أو خداما ، في اعطاء الحماية ، اضافة لمن يعولونهم ، لابناء جلدتهم من اليهود . وتغاضت القنصليات الاجنبية عن تلك الممارسات تحت ستار انقاذ اليهود من الوضع المتردي الذي بالغ الاجانب في وصفه حتى جعلوا منه قضيتهم الاولى(٥٥) .

ان الامثلة عن دور اليهود الاجانب في المغرب كثيرة جدا ، فلقد تعاطفوا مع ابناء جلدتهم باستصدار حماية لهم من قناصل دولهم ، وتمادوا في ذلك حتى انهم منحوهم الحماية مباشرة(٥٦) . فعلى سبيل المثال قام أحد القناصل الاسبان والمدعو جوان بلانكو Juan Blanco بمنح الحماية لحوالي ٨٥٣ يهوديا في عام ١٨٥٩م(٥٧) . وكذلك منح قنصل الولايات المتحدة فليكس ماتيوز Felix Matews وهو من أصل يهودي ــ الحماية الامريكية لاهالي قرية من قرى طنجة معظمهم من اليهود ، حتى ان القنصل ويليم لويس William Lewis الذي خلفه عام ١٨٨٧ م وصف تلك القرية بأنها مستعمرة امريكية داخل المغرب(٥٨) .

ومن الامثلة على ذلك أن نائب القنصل الاسباني في أسفي أخذ في اعطاء الحمايات بغير قانون ، ومنحها لاناس تحت حماية دولة اخرى مما جعل عاملها السيد الطيب ابن هيمة يطلب من ممثل السلطان في طنجة محمد برقش التدخل عند القنصل الاسباني لايقاف تلك التصرفات غير القانونية : « وبعد فأعلم أن قونصو (قنصل) الصبنيول الذي بأسفي أكثر علينا من الحمايات في المدينة والقبائل بدون قانون ولا طرقه فان القانون لا يحمى شخص الا بالورقة من طنجة وان الحماية لا بد من بيان وجهها من الاوجه المحصورة فيها الحماية ، وكادت الاحكام أن تتعطل من جهة كثرة من يريد الاحتماء به بلا قانون ، وقد رام أدخال شخص في حمايته مع أنه حماية البرتقيز (البرتغال) »(٥٩) . كما ان نائب القنصل البلجيكي في الدار البيضاء بالغ في منح الحمايات للمغاربة بدون قانون ، وبخاصة وبالطبع شمل عطفه اليهود الذين كانوا أكثر مرونة من المسلمين في ارتباطهم بالاجانب ، مما أقلق الحكومة المغربية التي حاولت الوصول الى مخرج تتمكن من خلاله من وضع حدا للحمايات غير القانونية ، والنص التالي يوضح موقف الحكومة المغربية من هذه الممارسات : « .. وبعد فقد وصلنا كتابك جوابا عما كتبنا به في شأن اشتغال قونص (قنصل) البلجيك بالدار البيضاء بادخال الناس في الحماية وذكر أنك كلمت باشدوره في ذلك وتغير منه وكتب للقونصو (للقنصل) المذكور بالتوبيخ .. »(٦٠) ومن هذه الرسالة يتضح أن القنصل البلجيكي كان غير راض عن سلوك نائبه في الدار البيضاء ، أو أن الامر كان لامتصاص حماسة نائب السلطان ، وسياسة بلجيكيا كانت في حقيقة الامر تقضي بزيادة نفوذها في المغرب عن طريق الحمايات .

اضافة للتعاطف الغربي مع اليهود ، كان من دوافع منح الحمايات التسابق على تحقيق المصالح الغربية داخل المغرب ، وأهمها المصالح الاقتصادية لكل دولة على حساب الدول الاخرى . ومن هنا بدأ السباق بين دبلوماسيي الدول في اعطاء الحمايات بقانون وبغير قانون، ودون اكتراث بالقانون المغربي ، لكثير من السماسرة والمخالطين(٦١) وبينهم بالطبع الكثير من اليهود . وقد أجاب القنصل الاسباني عندما سئل عن سبب اعطائه الحمايات غير القانونية بالقول ان القناصل البريطانيين والفرنسيين منحوا الحمايات بقانون وبغير قانون للكثير من المغاربة فلماذا لا يفعل هو ذلك(٦٢) . وبذلك كان التسابق على تعزيز نفوذ الدول الاجنبية وتحقيق مصالحها على حساب المغرب .

وتحولت الحمايات من طور الى طور ، فأخذ بعض القناصل او نوابهم ، أو رعايا الدول الاجنبية والعاملون في قنصلياتها ، في بيع الحمايات الى المغاربة ، ومن

ضمنهم اليهود الذين تسابقوا الى شرائها لتغيير وضعهم المتمثل في عقد أهل الذمة الى وضع يضمن لهم امتيازات جديدة . وجدت تلك العملية هوى عند القناصل أو نوابهم ، وعند التجار الذي جعلوا من بيع شهادات الحماية مصدر دخل لهم ، فبيعت أوراق الحماية بأزهد الاثمان وتفاوتت أسعارها من شخص الى آخر تبعا للبائع والشاري، ما بين ١٠ و ٢٥ قرشا(٦٣) . وأصبحت بمتناول الكثيرين من سكان المغرب ، وخاصة اليهود حتى عجزت الحكومة المغربية عن السيطرة على الحماية التي نخرت قواعد المخزن ، وحاولت في عهد السلطان الحسن بن محمد ، وضع حد للحمايات غير القانونية، فعقد مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ الذي توصلت فيه الحكومة المغربية الى التزام الدول الاجنبية بايقاف الحمايات غير القانونية . الا أن هذا الالتزام لم ينفذ واستمر الاجانب في ممارستهم غير القانونية مما أتاح الفرصة لكل من فرنسا واسبانيا وضع المغرب تحت الحماية (٦٤) .

تجاوزات اليهود المحميين وموقف الحكومة المغربية .

بعد حصول اليهود على الحماية أصبحوا يتمتعون بالامتيازات التي يتمتع بها الاجانب داخل المغرب التي ضمنتها لهم المعاهدات مع الدول الاوربية ، وهي امتيازات قانونية ومالية تفوق بكثير ما يتمتع بى المواطن المغربي (٦٥) ، ومنها عدم جواز اعتقال المحمي الا بعد اشعار القنصل أو نائبه ، ومنها أن جميع الخصومات التي تتعلق بالمحميين يحكم فيها القناصل الذين يتبع لهم المحمي . أما المالية فهي أن جميع الدبلوماسيين والمحميين مستثنون من دفع الضرائب . ولقد استخدم هذا الشرط أسوأ استخدام عندما دخل الكثير تحت مظلة الحماية تحت مسمى سماسرة أو مخالطين(٦٥) .

وعلى أن اليهود الذين شملتهم الحماية بدافع الشفقة والرحمة ، والحفاظ على المصالح الاجنبية في المغرب ، تمادوا على قوانين بلدهم وعلى مواطنيهم حتى بلغ الامر الى النيل من أفراد الحكومة المغربية . ونمت التجاوزات حتى وصلت الى صدامات فردية بين المحميين اليهود وبين المسلمين ، وتدخل الاجانب في شؤون المغرب بحجة حماية اليهود . وأدى ذلك التدخل الى تعكير علاقة المغرب بالدول الغربية عندما لجأ بعض القناصل الى التهديد باستخدام القوة للوصول الى أهدافهم .

تعددت تجاوزات اليهود المحميين وتلونت بأشكال مختلفة ، وهدفها تقويض عهد أهل الذمة الذي كان الاوربيون يؤكدون أنه مجحف في حق اليهود ، فكان لهم ما أرادوا عندما اخذ اليهود المحميون في ممارسة الكثير من التجاوزات المالية والقانونية

والدينية والسياسية ، التي ساعدت على اضعاف المغرب حتى أصبح فريسة سهلة للاوربيين . فمن الناحية المالية نجد ان المعاهدات التي وقعت بين الدول الاوربية والمغرب استثنت العاملين في القنصليات الاجنبية ، ومعظمهم من اليهود ، من دفع الجزية (٦٦) . وأصبح اليهود المخالطون والسماسرة مستثنين من دفع الجزية ، مما شجع الكثيرين للحصول على الحماية للتحلل من الجزية ، وهذا ما يؤكده الخطاب الذي قام بارساله السلطان الحسن الى نائبه محمد الطريس حيث قال « .. وبعد فقد أمرنا عامل يهود فاس بأن يقبض منهم (أي اليهود) ما بذممهم من قبل الجزية على الكيفية الشرعية فأجاب بأنهم يطلبون التوسعة عليهم في اعطائه ثلاثة أشهر ومرادهم بذلك جعل الفسحة ليكتب المحميون منهم لحمايتهم بالكلام عليهم بعدم قبضها منهم على الكيفية الشرعية مع أن قبضها منهم على تلك الكيفية من جملة الشروط المشروطة عليهم والعهود المأخوذة عنهم ومن القربات عندهم في دينهم لا يسوغ لهم نقضها وأعلمناك لتكون على بال منه اذا وقع الكلام معك فيه ... »(٦٧)

لم يكن عدم دفع الجزية التجاوز المالي الوحيد ، بل ان اليهود تجردوا من دفع الضرائب على الابواب بحجة أنهم محميون ، وكانت الى جانب الجزية ، ذات أهمية كبيرة للخزينة المغربية ، والتجرد منها جعل المالية المغربية تتناقص عاما بعد آخر لازدياد الداخلين في الحماية . كما أن تلك الممارسات وضعت عمال المخزن في حرج لانهم كانوا غير قادرين على اجبار أولئك المحمين على دفع الضريبة ، أو بالالتزام بقوانين البلاد . ويمكن ملاحظة ذلك من رسالة أحد الجباة الى أمين الامناء : « .. وبعد فاعلم أعزك الله وبارك لنا فيك لا يخفى عليك أمر الابواب هنا من الحماية والقرب للثغور ، وغاضتنا النفس من جهة الاسلام والله عالم على قلوبنا على المسلمين من جهة الحماية والمذلة الحاصلة للاسلام ، ترى الذمي لا يساوي فلسا واحدا يدخل ويخرج ولا يؤدي في الابواب ، والمسلم يؤدي شريفا أو مشروفا ... »(٦٨) . من هنا تتضح تلك التجاوزات التي خلقت فجوة بين المحميين وغير المحميين ، كان لها الاثر الكبير في نفوس المغاربة الذين لا يحملون شهادات الحماية مما جعلهم يسعون جاهدين للحصول عليها. وهذا ما أشارت اليه الرسالة فقال مرسلها : « .. والمسلم تراه حين ينظر للذمي لا يؤدي (أي ضرائب الابواب) فيغيضه الحال ويدخل تحت الحماية ... »(٦٩) .

اضافة الى تجرد اليهود المحميين من دفع الجزية وضريبة الابواب أخذوا يرفضون دفع كراء دور المخزن وحوانيته التي كانت الحكومة المغربية تؤجرها لهم ويعود ريعها للخزينة . من ذلك أن أحدهم ، ابن هليل ، قام ببناء حوانيت على أرض مخربة في الدار البيضاء وكان عليه أن يدفع نصف كراء الحوانيت للمخزن مقابل ذلك. الا أن ابن هليل ، المحمي من قبل اسبانيا تنصل من ذلك بحجة أن شروط المعاهدة

الاسبانية المغربية تقضي عدم دفع المحمي اية ضريبة . وردت الحكومة المغربية على هذا التبرير بالرفض ، بعث السلطان محمد بن عبد الرحمن الى نائبه بطنجة رسالة يأمره فيها أن يطلب من القنصل الاسباني اصدار أمر الى ممثل القنصلية الاسبانية في الدار البيضاء يجبر ابن هليل على دفع الديون المخزنية التي رفض دفعها(٧٠) . ويبدو أن مسألة التنصل من دفع اجارات المخزن لم تجد حلا لتعنت القناصل ونوابهم ، وصلفهم تجاه الحكومة المغربية لضعضعة موقفها أمام رعاياها . ويوما بعد يوم غدا القناصل انفسهم يمتنعون عن اداء كراء العقارات المخزنية ، ويتضح ذلك من النص التالي « ..وبعد فان أمين المستفاد .. بثغر آسفي لما وجد بشريف حضرتنا احتساب مدة خدمته.. فتخلف بذمة اليهودي ابن زكر المر كاني عشرة آلاف ريال وثلاثمائة ريال وواحد وعشرون ريالا وخمسة عشر بليونا وخمسة وعشرون سنطيما من قبل كزك هنري للمخزن ثمنا لك (لما) بيده عن مدة تسع سنين وأصدرنا أمرنا الشريف للخديم بن همة بتكليم اليهودي المذكور وغيره من المتقاعدين على كراء أماكن المخزن ثمه في أداء ما بذمتهم لامين المستفاد فأجاب بأنه كان كتب في شأن اليهودي المذكور لقنصل المركان بالصويرة واجابه بانه لم يقع سكوت عنه وانما كان يماطل والكلام يدور مع قنصل جنسهم بآسفي .. فأجاب به عن ذلك ، انه كتب بالقضية لطنجة وسيجيبه بما اجاب به باشدورهم عنها حسبما بنسخه من قوانين طيه وعليه فلنباشر الامر مع نائب المر كان هناك في ذلك ولتعرف بأن التقاعد على الكراء صدر من أناس من حمايتهم منهم اليهودي المذكور وقنصلهم كوب الذي بالدار البيضاء وغيرهم ليلزمهم اداء ما بذمتهم لما هو العدل والانصاف اذ التقاعد على الكراء بدون موجب امر قبيح لا يوافق عليه منصف .. »(٧١) .

واستغل اليهود الامتيازات القانونية التي خولتها لهم المعاهدات مع الدول الاوربية(٧٢) ، حتى أصبحوا يعاملون ، بعد حصولهم على الحماية ، معاملة مواطني الدول التي منحتها لهم .وبلغ الامر ذروته عندما أصبحت السلطات المغربية لا تستطيع القبض على من يرتكب جريمة الا بعد استئذان قنصل الدولة الحامية . وأكدت ذلك شروط مؤتمر مدريد الذي حاول فيه المغرب الحد من الحماية القنصلية(٧٣) ، الا أن محاولته لم يكتب لها النجاح وتنامت الحماية وأخذ القناصل بعد المؤتمر في التشدد في تطبيق الشروط التي صيغت لصالحهم وتحذير الولاة المغاربة من القبض على المحميين التابعين لدولهم الا بعد اخذ الاذن منهم ، مثال ذلك الخطاب الذي ارسله قنصل الولايات المتحدة الى محمد الطريس في هذا الشأن « .. واذا اراد ولاة المغرب في المستقبل القبض على أحد مستخدم رعيتنا أو حمايتنا فيعلمون في الحال بواسطتك بمقتضى الشروط ... »(٧٤) .

اضافة الى ذلك ، انه في حال ارتكاب أحد المحميين جريمة ما كان الدبلوماسيون الاجانب يتدخلون لرفع الحكم عنه أو تخفيفه . فعندما قام احد المحميين اليهود ، اسحاق بن عمار ، بالتسبب في قتل أحد مواطنيه المغاربة غير المحميين لم تستطع السلطات المغربية القبض عليه الا بعد رفع نائب القنصل الاسباني في الدار البيضاء الحماية عنه . وعندما علم القنصل الاسباني في طنجة بالمستجدات التي طرات على قضية ابن عمار بعد رفع الحماية عنه طلب من محمد برقش تأكيدات بأن يحاكم محاكمة (نزيهة) بحضور نائب القنصل الاسباني في الدار البيضاء(٧٥) ، فأكد محمد برقش للقنصل الاسباني في طنجة بأن دفع بن عمار مبلغا من المال لاهل المقتول كفيل بتسوية القضية .

ان هذه الامتيازات القانونية التي أعطيت لليهود المحميين جعلتهم يتمادون في غيهم ضد الولاة المغاربة وضد مواطنيهم المسلمين واليهود الذين لا يحملون شهادات الحماية . ومن ممارساتهم ضد ولاة المغرب اتهامهم بالفجور . اغتاظ السلطان من تلك الاتهامات وأنكر ترامي اليهود على الحمايات وتجريحهم عماله وولاته ، وطلب من محمد برقش وضع حد لذلك . واخبر برقش السلطان بمساعيه في هذا السبيل : « .. وذكر سيدنا ايده الله ، انه كيف يدخل الغير فيهم (أي اليهود) ويحسن لهم افعالهم حتى صار فجارهم يرمون العمال الذين هم في محل الامانة والصدق بالفجور، وليس ذلك بقانون ولا بمعروف عند أحد من قديم .. »(٧٦) واستمر برقش في توضيح مساعيه للسلطان محمد والتي تقضي بمحاولة اقناع القنصل الانجليزي ونواب الدول الاجنبية بعدم منح الحماية القنصلية لليهود لان ذلك سوف يزيدهم طيشا وتجاسرا على عمال المخزن خاصة وان القناصل ونوابهم عادة ما يقومون بمساعدة اليهود والتدخل في مصالحهم حتى ولو كانوا على غير صواب(٧٧) .

وعلى الرغم من محاولات الحكومة المغربية اخذت تجاوزات اليهود تزداد يوما بعد آخر ، تاركة اثارها السلبية على الراعي والرعية . ففي عهد السلطان الحسن بن محمد قام يهودي يدعى مير بن موسى كوهين ، من الحماية الفرنسية ، بالتهجم على محتسب مكناس وسبه وهدده بالضرب . وعندما ابلغ السلطان بذلك أصدر تعليماته الى نائبه في طنجة ليبحث في القضية مع القنصل الفرنسي : « .. وبعد فان يهوديا من يهود مكنساس الزيتون اسمه مير بن موسى كوهين تعدى طوره وجده ، واستعمل في الترامي على الناس والجسارة عليهم جهده ، وصدرت منه أفعال شنيعة ، وأمور فظيعة ، وصار يتهدد على الناس بالحديد . ويبدي في الهجوم عليهم ، ويعيد ، ومن جملة ذلك انه هجم على محتسب مكناس ودخل عليه للمحل المعد للاحكام المخزنية هو ويهودي آخر ، وتهدد عليه واغلظ له في القول وسبه وسب اصحابه بمرای ومسمع من جماعة

الناس حسبما تراه في الشهادة طيه ، فانظر هذه الافعال الصادرة من اليهود ، ومع ذلك يتظلمون ويتشكون بعدم وقوع الحق لهم ..»(٧٨) وفي حقيقة الامر ان الحكومة المغربية حاولت الضغط على قناصل الدول الذين يقدمون الحماية لليهود لكفهم عن التعدي على ولاة المخزن ، بل وتأديب كوهين على ما اقترفه لكي لا يجرؤ هو أو غيره على تكرار تلك الممارسات ، وابدت عزمها الاكيد على معاقبة من يقوم بالتعدي على الولاة بالسب أو التهديد وان الاستمرار في ذلك سوف يعرض عرى القانون المغربي الى الحل عروة بعد أخرى(٧٩). وبالفعل كانت تلك العرى تنقض واحدة بعد الاخرى حتى أصبح القانون المغربي في نظر الاجانب ومحميهم عبارة عن حبر على ورق .

اضافة الى ولاة المخزن ، شملت التجاوزات اليهودية المواطنين المسلمين فلقد قام أحد اليهود المحميين من فرنسا والمدعو مردوخ بن يسوعي . بالهجوم على امراة مسلمة كي ينال من شرفها بالقرب من فاس ، ولما حاول زوج المراة نجدتها أطلق اليهودي النار عليه واصابه بجروح . وعندما اخذ الجاني والمجنى عليه الى عامل المدينة ، وفي الطريق تجمهر الناس وكان بينهم أحد اليهود المدعو ابراهيم بن يعقوب العلوف ، فأشهر سلاحه ضد المسلمين وأخذ في سب الدين والحكومة فما كان من العامة الا أن هجموا على العلوف وقتلوه وأحرقوه . وكادت الامور تتطور الى مذبحة بين المسلمين واليهود لولا تدخل السلطات المغربية . ولما علم السلطان بذلك أمر بعزل حاكم فاس وطلب من العامل الجديد التحقيق في الحادث والقبض على الجناة . وبعد أيام توفي زوج المراة متأثرا بجراحه(٨٠) .

وبرغم محاولات الحكومة المغربية استمر ممثلو الدول الاجنبية في السعي الى اثارة المشاكل للحكومة المغربية كي يتسنى لهم التدخل في شؤون المغرب تحت مظلة الحفاظ على مصالح محمييهم . ونفذ اليهود بقصد أو بغير قصد ما كان يسعى اليه ممثلو هؤلاء . فعلى سبيل المثال ، قام أحد اليهود المحميين المدعو مركوس بمزاحمة أحد المسلمين عند أحد أبواب مدينة فاس وهو راكب فرسا ولابس ملابس الاجانب(٨١) فعاتبه المسلم وتطور الامر الى شجار قتل فيه اليهودي المسلم باطلاق النار عليه من بندقية كان يحملها . وتجمع الناس حول اليهودي مستنكرين ، واخذ هذا يسب المسلمين فحدث شجار انتهم بقتل اليهودي حرقا . وهرع عامل المدينة الى مكان الحادث مع معاونيه ، وفرقوا الناس وقاموا بحماية اليهود حتى لا تتطور الامور الى اشتباك بين الطائفتين . وباشر العامل بالتحقيق في الحادث وكتب الى السلطان بما حدث(٨٢) . وتبين هذه الحادثة ، مع حادثة العلوف ، مدى التوتر الذي كان يحصل بين اليهود والمسلمين بين فترة واخرى نتيجة لتصرفات اليهود ومن ورائهم الاجانب.

شملت تجاوزات اليهود أبناء جلدتهم غير المحميين والذين عانوا بعضهم من تسلط المحميين . فلقد قام أحد اليهود المدعو زاك بن الرومية المحمي من قبل الانكليز، بالتعدي على ذمي آخر يدعم حييم بن بخاش وضربه على رأسه والحق به جروحا بليغة . وحاول عامل مراكش الوصول الى حل حول ذلك التعدي مع نائب القنصل الانكليزي في أسفي بصفته أقرب ممثل للقنصلية الانكليزية ، ولما لم يصل الى حل مرض اضطر ان يكتب للسلطان الحسن بن محمد والذي أصدر تعليماته الى محمد برقش : « .. وعليه فنأمرك أن تتكلم مع الباشدور هناك وتعرفه بأن هذا اليهودي بلغ به الطيش والخيال وعدم المبالاة بالولاة والحكام الى أن صار يتصرف لنفسه ويتعدى بما لا يقره عليه أحد ، فلابد من زجر هذا اليهودي بما ينزجر به أمثاله ، والا اتسع الخرق ، ويتجرأ أهل الحماية أكثر من ذلك ويتمالئون على هذا الفعل القبيح الشنيع الذي لا توافق عليه ملة من الملل ، ولا يقر عليه جنس من الاجناس في وطنه وقد عيل الصبر .. »(٨٣) . من هذا المقتطف يمكن ادراك معانات المواطنين المغاربة ممن لا يحملون الحماية ، الذين اصبحوا لا حول لهم ولا قوة .

اما التجاوزات الدينية فلقد تمثلت في تطاول اليهود على الدين الاسلامي وسبه علانية في الاماكن العامة ، بل وأمام القضاة . وهذا ما حدث في أسفي عندما امتنع العدول من قبول توكيل من أحد المسلمين ليهودي ليقوم باستيفاء ديونه ، لعدم مطابقته للشرع فقام اليهودي بسب الاسلام والمسلمين مما جعل عامل اسفي يكتب للسلطان يطلب منه ايقاف تلك التجاوزات . وبالطبع أمر السلطان نائبه في طنجة بوضع حد لتلك التجاوزات . وكتب هذا بدوره الى القنصل الامريكي : « .. وبعد فقد وصلنا كتاب شريف في شكاية رفعها عامل أسفي للحضرة الشريفة بكون اليهودي المسمى اسحاق عمار المراكشي أتى لعند العدول بأسفي ومعه مسلم وبيدهما دين بقصد أن يشهد المسلم أن اليهودي المذكور نائب في ذلك الرسم فامتنع العدول من الاشهاد على الدين المذكور بالنيابة لعدم موافقة ذلك لقانون الشرع فأطلق اليهودي اسحاق عمار المذكور لسانه بسبب العدول وسب دين الاسلام والمسلمون يسمعون ذلك ... وهذا اليهودي بلغنا أن له تعلق بجنس المركان ... فنرجوكم أن تقضوا في زجره بما تقتضيه قوانينكم حتى تسكن نفوس المسلمين بأسفي الذين سمعوه يسب دينهم ... »(٨٤) .

لم تكن التجاوزات المالية والقانونية والدينية نهاية المطاف ، بل تعدت ذلك لتصل الى تجاوزات سياسية كان الهدف من ورائها محاولة بعض الجماعات اليهودية الاستقلال سياسيا عن المخزن ، أو اثارة البلبلة باشاعاتهم الكاذبة التي تحط من سمعة الحكومة المغربية داخليا وخارجيا . ووراءها طبعا بعض المحميين الذين كان هدفهم

الاول التمرد على قوانين بلادهم والتجرد من عهد أهل الذمة الذي حفظ لهم حقوقهم قرونا طويلة . من ذلك ما قام به يهود تطوان عندما طردوا العسس المعينين من قبل المخزن ونصبوا حكاما عليهم . وقد تعاملت الحكومة المغربية مع هذه المحاولة بحزم وقررت القضاء عليها في مهدها . يتضح ذلك من رسالة السلطان محمد : « ... فقد أخبرنا وصيفنا القائد محمد بن منصور المهدوي أن يهود تطوان دفعوا علي المقدم الذي كان ملازما لباب حارتهم لحراستها ، وقالوا له انا لا نحتاج اليك ولا الى غيرك ، وامتنعوا من دفع مشاهرته ، ونصبوا جماعة منهم حكاما عليهم افتياتا منهم وتحديا على جانب المخزن ، وقد أمرناه ان يقبض على الذين دفعوا علي البواب وعلى الذين نصبوهم حكاما ويضرب عليهم أكبالا ويوجههم لحضرتنا العالية بالله ، ويقول لجماعتهم انا لا نحب لهم الظلم ولا نوافق على ظلمهم ولا على من يصلهم بمكروه ، كما انا لا نسكت لهم على الافتيات وخرق القوانين والتمرد على الاحكام ، وأمرناه أن يبحث عمن يغريهم على ذلك ويزين لهم فعلهم ويزيد فيهم من اليهود ، وحين تحقق أمره يطرده من المدينة ان كان من أهل الحماية لانه انما (لا) يليق أن يسكن بها الا المسكين المشتغل بمعاشه لا الخائض في الفتنة والفساد ، وان كان ليس من أهل الحماية فيقبضه ... »(٨٥)

تعددت محاولات المحميين اليهود لزعزعة أمن المغرب واستقراره ، واظهار الحكومة المغربية بمظهر العاجز عن حمايتهم ، لتتلقفهم أيدي العطف الاجنبية وتمنحهم الحماية . من ذلك على سبيل المثال ادعاء يهود مراكش بأن ثلاثة يهود فقدوا بمدينتهم وعندما قامت السلطات المغربية بتحري الحقيقة وجدت ان الادعاء ليس له أساس من الصحة . وبعد ذلك قام يهود مراكش بادعاء اخر مفاده أن أحد المخزنية قد قتل في مدينتهم ، وانعامل مراكش أمر العسس بقتله . وكان ذلك افتراء من اليهود لسوء تفاهم بينهم وبين عامل المدينة اذ اتضح فيما بعد ان المخزني لم يصب بأذى، واعترف بأنه اخذ مالا من اليهود ليغادر المدينة ويختفي ، ليكون عامل المدينة مسؤولا عن قتله(٨٦) .

موقف الحكومة المغربية من اليهود الذميين :

لقد كان للحكومة المغربية موقفها الحازم من اليهود الذين دخلوا تحت الحماية وحاولت الحد من تجاوزاتهم التي خلفت اثارا سيئة على البلاد . أما الذين بقوا على عهد أهل الذمة فلقد حاولت الحكومة المغربية احتوائهم كي لا ينزلقوا في مكامن الحماية. وظهر ذلك في ظهائر السلاطين العلويين وفي توجيهاتهم لعمالهم من وقت لآخر ، بالاهتمام بحماية اليهود وتوفير الامن لهم ، ومعاقبة من تهاون في ذلك ، ومنها ظهير السلطان محمد بن عبد الرحمن الذي اكد على معاملة اليهود المعاملة الحسنة(٨٧) .

واهتم السلاطين بحماية اليهود وممتلكاتهم اهتماما مباشرا فعندما شب حريق

في ملاح اليهود في مدينة مراكش كتب السلطان الى ابنه الحسن يشكره على ما قام به المسؤولون من حماية اليهود ويأمره بتعميد المتسبب باصلاح ما أتلف من حوانيت ، بقوله . . «وبعد فقد وصلنا كتابك مخبرا بالحريق الواقع بالملاح ببعض حوانيت الفندق، وذكرت ان وصيفنا القائد ابراهيم الجراوي وقف في ذلك على ساق الحزم ، واغلق باب الملاح ، ومنع المسلمين من الدخول لـه حتى لا يجد أحـد منهم ما يقول ، ولم يتوصلوا لاغراضهم الفاسدة ووصل الرسم المتضمن لذلك أصلحك الله ورضي عنك، وقد احسن وصيفنا القائد ابراهيم فيما فعله في ذلك ، وهو الواجب ، أصلحه الله ، وبوصول كتابنا هذا اليك مر ناظر الفندق المذكور الطالب عمر اود باصلاح الحوانيت التي احرقت منه . .»(٨٨) .

حاولت الشائعات اليهودية اظهار الحكومة المغربية بانها غير قادرة على حماية اليهود والحفاظ على حقوقهم . ولكن التعليمات لعمال المخزن التي تحث على اعطاء اليهود حقوقهم كاملة غير منقوصة(٨٩) تدحض ذلك . ففي احدى الرسائل الحسنية يأمر السلطان أحد عماله بالاهتمام بايفاء احد اليهود دينه من بعض المدينيين الذيـن ماطلوه . الا أن العامل لم يتخذ اجراءات صارمة ، مما جعل السلطان يرسل تعليماته لتحصيل الدين أو ارسال المدينين الى مقر السلطان ليبت في أمرهم . « . . وبعد فقد اشتكى على حضرتنا العالية بالله اليهودي يعقوب الليبي أنك ما زلت لم تنصفه ممـن تقاعد له من ايلتك على ما بذمتهم من الدين ، مع أن أمرنا الشريف كان صدر لك أولا وثانيا على يد أخينا مولاي اسماعيل بفصاله معهم ، فاذا به لم يظهر منك أثر ، وعليه فنأمرك أن تنصفه منهم بتمكينه مما له عليهم من الدين عـن آخره أو توجهه لحضرتنا العالية بالله (مع) جميع غرمائه . .» (٩٠) . .

اضافة الى التعليمات السلطانية للعمال ، وجدت اجراءات أخرى لتأكد احترام العهد الذي كان السلطان ملتزما به في المقام الاول . فالسلطان هو المسؤول أمام الله عن اي تقصير تجاه الرعية ، بصفته الراعي الاول لشؤون مواطنيه ، اسـتنادا الى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « . . كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته الامام راع ومسؤول عن رعيته . .» (الحديث) (٩١) . فاذا مست حقوق اليهود ، نتيجـة اهمال أو تقصير من العمال ، اتخذت اجراءات ، منها ، على سبيل المثال ، رسالـة السلطان الحسن الى أحد عماله : « . . وبعد فقد اشتكى على حضرتنا ابراهيم احنـا المكناسي ان حقوقهم ضاعت وتجارتهم تعطلت بأعراضك عن فصال دعاويهـم التي يرفعونها لك ، وعدم التفاتك اليها ، وقد استغربنا صدور هذا منك واستبعدناه ، لكونه من شأن من لا ينظر في عواقب الامور ، ولا يعرف أن ثمرة الولاة وفائدتهم هـي ايصال ذوي الحقوق بحقوقهم وأن المسلم والذمي في الحق سواء وعليه فنأمرك ان تكون على بال من دعاويهم . .»(٩٢) .

بلغ اهتمام السلاطين بحقوق اليهود الى حد عزل الولاة المتهاونين . فعندما فشل عامل فاس في حفظ الامن بحيث تعرض بعض اليهود للاعتداء وحرق أحدهم ، أمر السلطان بعزله : « . . ولما بلغنا ذلك عزلنا في الحين حاكم فاس الجديد لما توسمنا فيه من البرودة وعدم النجدة وولينا في محلة خالنا القائد العربي ولد اب محمد الشركي وامرناه بالبحث عمن فعلوا ذلك باليهود ، والقبض عليهم ، وقد قبض على أهل السوق المذكور ، ومازال جادا في البحث عن الفعال . . »(٩٣) .

لم تقتصر اهتمامات السلاطين على حقوق اليهود الذميين ، بل عاملوا بعضهم معاملة خاصة واعطوهم امتيازات يفتقدها كثيرون من مواطنيهم ، وبعض السلاطين أوكل اليهم مهاما تتعلق بأمورهم الشخصية . من تلك الامتيازات ما أنعم به السلطان الحسن على أحد التجار الذميين « . . يعلم من كتابنا هذا اننا بقوة الله وحوله ، ومنته وطوله ، أسدلنا جلباب الامن والامان ، والسكينة والاطمئنان، على ذمينا العاقل التاجر شلوم عمار المكناسي ، وبوأناه مهاد الوقار ، والعناية والاعتبار ، فلا يضام ولا يهان ، ولا تمد له يد بحيف ولا بعدوان ، نائما في ظلال الامان ، مراعاة لاشتغاله بين أمثاله بما يلحق من امور تجارته وماله ، فنأمر الواقف عليه من العمال أو ممن ولي شيئا من الاعمال ، أن يعمل بمقتضاه . . (٩٤) ذلك الظهير كان دعما معنويا لذلك التاجر الذمي ولغيره من التجار اليهود الذين كانوا يسيطرون تقريبا على معظم التجارة الداخلية والخارجية المغربية ، ولبعضهم علاقات تجارية مع الكثير من أفراد الحكومة المغربية .

أما السلطان الحسن بن محمد فقد أوكل أمور قصره التموينية في مكناس لاحد اليهود ، الذي كان مكلفا باحضار الفواكه والخضار وأنواع اللحوم يوميا . وبلغ أمر السلطان الى عامل مكناس ومحتسبها وأمنائها ليكونوا على علم بذلك ، لان اليهودي كان يزود بالمال من أولئك العمال.(٩٥) . وهذا يؤكد الثقة المتبادلة بين السلطان ورعاياه اليهود الملتزمين بعهد أهل الذمة ، الذين يكنون الاحترام لسلاطينهم ولقانون بلادهم، وينتقدون اليهود المحميين الذين احدثوا بتجاوزاتهم المتعددة أضرارا كبيرة تركت أثارا واضحة على أمن واستقرار بلدهم . وعندما تفشت الحماية الاجنبية وشملت الكثير من اليهود الذين تطاولوا على المسلمين كان هناك ردة فعل من السلطات المغربية التي حاولت أن تتعرف على موقف اليهود الذين لم يدخلوا في الحماية . فلقد قام عامل فاس عبد الكريم ولد اب بجمع اساقفة اليهود واعيانهم في مدينته والذين عددهم سبعة عشر ، وناقشهم في تجاوزات اليهود المحميين ، فاستنكروها سواء كانت ضد المسلمين او اليهود ، وطالبوا بوقف التعديات وجددوا ولائهم لحكومتهم واكدوا احترامهم لعهد الذمة الذين نظم العلاقة بين اليهود وبين المسلمين خلال قرون عديدة (٩٦) .

الحواشـــي :

(١) عبد الرحمن بن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، ج٦ ، بيروت ، دار الفكر ١٩٨١ ، ص ١٤٠ . أيضا انظر : محمـد الحبيب بن الخوجة ، يهود المغـرب العربي ، القاهرة ، معهـد البحوث والدراسات العربية١٩٨٢ ،ص١١-١٢

(٢) Michael Menchem Laskier,The Jewish Communities of Morocco and the alliance Israelite Universelle 1860 - 1956, Ph.D. Thesis, University of California 1979. pp. 3 - 5 .

(٣) من تسمية اقسام المغرب انظر : عبد العزيز سـالم ، المغرب الكبير (العصر الاسـلامي) دراسـة عمرانيـة وتاريخية وأثرية ، ج٢ ، بيروت ، دار النهضة ١٩٨١، ص ١٢٥-١٢٧.

(٤) عن الاختلاف فيمن يطلق عليهم أهل الكتاب انظر : عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ١٣٩٦هـ ، ص ١١ .

(٥) د. علي حسن الخربوطلي ، الاسلام وأهل الذمة ، القاهرة ١٣٨٩ ، ص ٩٦ .

(٦) البقرة ، آيـة ٢٥٦ .

(٧) من أجل الواجبات التي ضمنت لاهل الذمة، انظر : أبي الحسن علي بن محمد الماوردي . الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط٢، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٤٥ .

(٨) عبد الرحمن بن خلدون ، ج٤ ، ص ١٧ .

(٩) محمد الحبيب بن الخوجة ، ص ٢٢-٢٥.

(١٠) أحمد بن قاسم الحجري الاندلسي ، ناصـر الدين على القوم الكافرين (مختصر رحلـة الشهاب الى لقاء الاحباب) تحقيق الدكتور محمـد رزوق ، الدار البيضـاء ، كليـة الاداب ، ١٩٨٧ ، ص ١٧-١٨ .

(١١) محمد الحبيب الخوجة ، ص ٣٣-٣٥ صلاح العقاد : « اليهود في المغرب العربي » مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، العدد ٣ (١٩٧٢) ص ٣٨ . ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، ج٢ الدار البيضاء، دارالرشاد، ١٩٨٤ص١٩٠-١٩٢

(١٢) نفس المصدر السابق . ج٣ ص٤٨٢-٤٨٣.

(١٣) Margaret Landenberger, United States Diplomatic Efforts on Bihalf of Maroccam Jews 1880 - 1906 , N. Y. : St. John's University, 1980 , p 3.

هناك تقديرات من المؤرخ الفرنسي ميـج في الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، بتقدير عددهم بـ ٣٠٠ ألف فقط وهذه في اعتقادي نسبة ضئيلة . انظر :

Joan - Louis Miege, LE Maroc Et L'Europe (1830 - 1894) Tom 111 Paris, Presses Universitaries De France 1962, p. 24-26 .

(١٤) شمعون ليفي وآخرون ، التاريخ الحديث والمعاصر ليهـود المغـرب ، الربـاط ، دار الستوكي ، د.ت ، ص ٢٨-٢٩ .

(١٥) نفس المصدر السابق ونفس الصفحات .

(١٦) محمد داود ، تاريخ تطوان ، ج٣ ، تطوان ، المطبعة المهدية ، د.ت ، ص ٢٣٧-٢٣٩ .

(١٧) محمد الضعيف الرباطي ، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة) ، الرباط ، دار المأثورات ١٩٨٦ ص ٣٤٤ .

(١٨) أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا في أخبار المغرب الاقصى ، ج٨ ، الـدار البيضاء ، دار الكتاب ١٩٥٦ ص ١٤٣ . ذكر الناصري ان جيش الودايا أعلن العصيان في رمضـان سنة ١٢٣٥ وهي توافق سنة ١٨٢٠ ، حيث ان سنة ١٢٣٦ تبدأ في ٩ أكتوبر .

(١٩) المصدر السابق ص ١٤٣ - ١٤٤ . ذلك العمل الذي قام به الودايـا استنكره الكثير من المسلمين ونظـم بعضهم قصائـد يستنكرون فيها عظم المعصية التـي ارتكبت

ضد أهل الذمة ، وقال أحدهم ويدعى عبد محمد الفاسي في قصيدة طويلة ومنها هذه الابيات :

نهبوا حارة اليهود وهدوا
دورهم وعرى النساء سباء
لو تراهم بين الرعايا
يحتذيهم رجالهم والنساء
خفروا ذمة النبي قدموا
كعماء فلا سقاهم عماء
يا امام الهدى عليك يقوم
ملأ الغرب بغيهم والبغضاء

(٢٠) المصدر السابق ص ١٥٠-١٥٤ ،ص ١٥٩ .

(٢١) عبد الرحمن بن زيدان ، اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ، ج٥ ،الرباط، المطبعة الملكية ١٩٣٣ ص ٤١-٤٢ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

(٢٣) المصدر السابق ص ٢٣٣-٢٣٤ .
محمد حبيب بن الخوجة ص ٥٨ .

(٢٤) ب٠ج روجر. تاريخ العلاقات الانجليزية حتى عام ١٩٠٠ ، ترجمة يونان لبيب رزق ، الدار البيضاء ، دار الثقافة ١٩٨١ ص ١٨٤ .

(٢٥) جلال يحيي ، المغرب الكبير ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، ج٣ ، بيروت دار النهضة العربية ١٩٨١ ص ٣٤٣ — ٣٥١، ٣٥٥ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

(٢٧) شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا ، تونس، الجزائر، المغرب) القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٧ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٢٨) صلاح العقاد ، المغرب العربي ، دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة (الجزائر تونس ، المغرب الاقصى) القاهرة (د٠ت) ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٢٩) لمزيد من المعلومات عن المعاهدة انظر : ابراهيم حركات ، ج٣ ص ٢٠٤ — ٢٠٩ .

(٣١) عن المعاهدة الاسبانية المغربية لعام ١٨٦٠ انظر : محمد داود ، مج ٤ ص ٢٨١-٢٩٢ .

(٣٢) انظر : التقرير المرسل من القنصل الامريكي جورج براون George Brown الى حكومته ٢٧ نوفمبر ١٨٥٢ (١٤ صفر ١٢٩٦)، الرسائل المرسلة من القناصل الامريكيين في طنجة ، فيلم رقم ٤٧ مجموعة ٥٩، الارشيف القومي ، واشنطن .

(٣٣) رسالة من القنصل الامريكي فليكس ماثيوز Felix Mathews الى وزير الخارجية الامريكي فرديرك فرلنفيسين Frederick Ferlinfissin ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ (١٤ شعبان ١٣٠٠) فيلم رقم ١٢ ، المرجع السابق .

(٣٤) المصدر السابق .

(٣٥) مصطفى بوشعراء ، الاستيطان والحماية بالمغرب ، ١٢٨٠ — ١٣١٩ (١٨٦٣ — ١٨٩٤) ج١ ، الرباط ، المطبعة الملكية ١٩٨٤ ، ص ١٨٤ .

(٣٦) ب٠ج٠ روجرز ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٥ — ٢٣٦ .

(٣٧) لمزيد من المعلومات انظر : عبد الوهاب بن منصور ص ١٠٤ — ١٠٧ .

(٣٨) رسالة من جورج براون George Brown الى وبستر Webster يوليو ٩ — ١٨٥٢ (٢٠ رمضان ١٢٦٨) الرسائل المرسلة من القناصل الامريكيين في طنجة ، فيلم رقم ٧ ، مجموعة ٥٩ ، الارشيف القومي ، واشنطن. لقد أورد القنصل الامريكي ذلك بقوله :
« With the exception of the British Vice - Consuls in Morocco, of other nations. are Berbery Jews ».

وفي واقع الامر ان بريطانيا كانت تقوم بتوظيف اليهود كقناصل لها في المغرب ، ويبدو أن احتجاج المغرب على بريطانيا على ذلك والمؤرخ في ٨ صفر ١٢٣٥ (١٤ مايو ١٨٣٧) جعل الحكومة المغربية تتفهم وجهة النظر المغربية خاصة عندما ذكر السلطان بقوله « ... ان شغل اليهود لهذه الوظائف يدفعهم الى الفطرسة على المسلمين وتعدي الحدود ...»

هذا التفهم البريطاني لم يدم طويلا فانساقت بريطانيا مع الدول الاوربية الاخرى خاصة بعد اتفاقية ١٨٥٦ للتعليق الاخير انظر : ب.ج روجرز ص ١٩٦ .

(٣٩) لمزيد من المعلومات انظر عبد الوهاب بن منصور ، الحماية القنصلية من نشأتها الى مؤتمر مدريد ١٨٨٠ ، ط ٢ ، الرباط ، المطبعة الملكية، ١٩٨٥، ص٤٨ وكلمة مخالطين تعني المشاركة بالمال مع بعض المغاربة الذين أصبحوا بمشاركتهم مع نواب القناصل أو الاجانب ، يتمتعون بالحماية ، والتي عادة ما تعطى لهم من قبل شركائهم .

(٤٠) لا زال بعض الكتاب المعاصرين يحاولون تهويل حالة اليهود في المغرب قبل التدخل الاجنبي وفي نفس الوقت ينسون أو يتناسون ما قدمه المغرب لليهود بعد طردهم من اسبانيا للتعرف على بعض آراء بعض أولئك الكتاب . انظر:

Margaret Landenberger, p. 12.

(٤١) T. A. Al-Harithi, Moroccan Policy Towards the United Stetes : A Study in Moroccan Society under the Impact of Western Penetration 1830 - 1912. Ph. thesis, Exeter University, 1987, pp, 110-111.

(٤٢) عبد الوهاب بن منصور ، ص ٣٠ .

(٤٣) رسالة من موسى برينت الى ممثلي الدول الاجنبية في طنجة ٢٧ اكتوبر ١٨٦٣ (١٤ جمادى الاول ١٢٨٠) ، وثائق العلاقات الخارجية الامريكية ١٨٦٣ ، ص ٤١٥-٤١٦. تلك الرسالة استخدمت في بحثي المقدم لنيل الدكتوراه كشاهد على العلاقات بين يهود المغرب ويهود الولايات المتحدة ، بينما هنا يتضح ان الرسالة ارسلت ايضا الى المنظمات اليهودية في اوربا وهذا ما اشار اليه القنصل الامريكي عندما قال :

«.. Equal representation has been made to all the representatives for foreign nations in this country..».

أنظر ص ٤١٦ في نفس الهامش ، أيضا لمزيد من المعلومات انظر :

T. A Al-Harithi, p. 110.

(٤٤) ب.ج روجرز ، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٤٥) محمد بن داود ، ص٦٢.

(٤٦) احمد بن خالد الناصري ، ج٦ ، ص ١١٣، صدر الظهير بتاريخ ٢٦ شعبان ١٢٨٠ هـ (٥ فبراير ١٨٦٤م) . أيضا ورد نص المرسوم في **الوثائق** ، ج٣، الرباط ، المطبعة الملكية ، ١٩٧٠ ،ص٢٩١. تتكون الوثائق من ستة مجلدات (مجموعات) قام باختيارها الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور مؤرخ المملكة المغربية من الاف الوثائق الموجودة في مديرية الوثائق الملكية في الرباط ونشر بعضها في اواخر السبعينات والبعض الاخر خلال الثمانينات .

(٤٧) ظهير السلطان محمد بن عبد الرحمن الى عماله في جميع انحاء المغرب ٢ رمضان ١٢٨٠، **الوثائق** ، ج٤ ، ص ٢٩٤ . لقد ورد نص الظهير في الاستقصاء ولكن هناك تحريف في بعض الالفاظ ، انظر ابو العباس احمد بن خالد الناصري ، ج٦ ، ص ١١٤ .

(٤٨) رسالة من محمد بن عبد الرحمن الى محمد برقش ١٥ صفر ١٢٨٢ (١٠ يوليو ١٨٦٥) **الوثائق** ، ج٤ ، ص ٣٢٦ .

(٤٩) رسالة من نائب القنصل البريطاني في الدار البيضاء الى السيد الكبير بن المدني ٢٣صفر ١٢٨٣ (٧ يوليو ١٨٦٦) **الوثائق** ، ج٤ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٥٠) ب.ج. روجرز ، ص ٢٣٧ .

(٥١) رسالة من الجمعية الاسرائيلية الامريكية تحت توقيع M. J. Isaac الى فليكس ماثيوز Felix Mathews ٣٠ ديسمبر ١٨٧٧ (٢٤ ذي الحجة ١٢٩٤) الرسائل المرسلة من القناصل الامريكيين في طنجة . فيلم ١١ مجموعة ٥٩ ، الارشيف القومي، واشنطن.

(٥٢) عبد الرحمن بن زيدان ، ج٢ ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .
أيضا انظر : **الوثائق** ، **ج٥** ، ص ١٨—٢٤ .

(٥٣) معظم المعاهدات التي عقدت بين المغرب والدول الغربية ضمنت حقوق رعايا تلك الدول من دبلوماسيين وغيرهم .ولكن المعاهدة البريطانية— المغربية سنة ١٨٥٦ أعطت للعاملين المغاربة ومن يعيشون معهم تحت سقف واحد بعض الاعفاءات الضريبية والقانونية كعدم دفع الجزية مثلا . لمزيد من المعلومات انظر الشرط الثالث من المعاهدة المذكورة . الوثائق ج٢ ص ١٥٨—١٥٩ .

(٥٤) لقد توصلت الحكومة الاسبانية في المعاهدة مع المغرب في نوفمبر ١٨٦١ الى موافقة الحكومة المغربية بان يعامل رعايا الاسبان معاملة الاجناس الاخرين في جميع المعاهدات التي عقدت بين المغرب والدول الاجنبية الاخرى ، وبالطبع حصل الاسبان على ما حصل عليه الانكليز في معاهدة ١٨٥٦ .
انظر : عبد الرحمن بن زيدان . ج٣ ، ص ٤٩٦ .

(٥٥) جلال يحيى ، ج٣ ، ص ٤١٦ .

(٥٦) انظر :
T.A. Al-Harithi, pp. 108-112, 164 - 168.
ايضا انظر :
Margaret Landerberger, p. 245.

(٥٧) Leland Lowis Bowie, The Portage System in Morocco 1880 - 1904 , Ph. D. thesis, Michigan, The University of Michigan , 1970, pp. 10-11 .

(٥٨) T. A. Al-Harithi, p. 185
أيضا انظر : الوثيقة التي تثبت تمادي القنصل الامريكي وابنه الذي اخذ يعطي الحمايات للمغاربة بدون قانون ، نص الوثيقة مثبت في المصدر السابق ، ج٢ ، ص٣٦٠ .

(٥٩) رسالة من الطيب ابن هيمة الى محمدبرقش ١٣ صفر ١٢٩٦ (٦ فبراير ١٨٧٩م)**الوثائق**، ج٤ . ص ٤٤٢—٤٤٣ .

(٦٠) رسالة من الحسن بن محمد الى محمد برقش ٧جمادي الاولى ١٢٩٦ (٢٩ ابريل ١٨٧٩) المصدر السابق ص ٥٤ — ٤٥٥ .

(٦١) السماسرة تعني الوسطاء ، أما المخالطون فهم الشركاء الذين كانوا على علاقة مع القناصل الاجانب او نوابهم أو مع التجار الاجانب ، وعادة ما تكون المخالطة في التجارة او الزراعة أو الرعي .

(٦٢) في الواقع أن الحماية منحت لليهود والمسلمين على السواء ونجد بعض المسلمين الى جانب اليهود انساقوا وراء تلك الحمايات في سبيل تحقيق مصالح شخصية على حساب مصلحة بلادهم .

(٦٣) عبد الوهاب بن منصور ، ص ٥٢.

(٦٤) لمزيد من المعلومات حول موقف الحكومة المغربية من الحماية الغير قانونية انظر عبد الوهاب بن منصور ، ص ٦٠ وما بعدها .

(٦٥) لمعرفة المزيد من تلك الامتيازات انظر المعاهدات التي عقدت بين المغرب وكل من بريطانيا عام ١٨٥٦ واسبانيا في ١٨٦١ ، بخصوص المعاهدة الاولى انظر **الوثائق** ج٢، ص١٥٧—١٧٤، أما بخصوص المعاهدة الثانية انظر عبد الرحمن بن زيدان ، ج٣ ، ص٤٩٠— ٥١٧ .

(٦٦) انظر على سبيل المثال الشرط الثالث من المعاهدة المغربية الانكليزية ١٨٥٦ ، حيثذكر ان العاملين في القنصلية البريطانية لايكلفون بجزية ولا غرامة ، وهذا يعني ان معظم العاملين كانوا من اليهود ، ولو كان بينهم مسلمون لذكر لفظ الزكاة مع الجزية ،انظر عبد الرحمن بن زيدان ، ج٥ ، ص١٩٣ .

(٦٧) رسالة من الحسن بن محمد (الطابع غير واضح) الى محمد بن العربي الطريس ٢٨ جمادى الاولى ١٣٠٢ (١٥ مارس ١٨٨٥)،

رسائل خاصة بالعلاقة المغربية الامريكية ، محفظة ٢ ٥، رقم الوثيقة ٦٢ ، خزانة تطوان ، تطوان .

(٦٨) رسالة من محمد بن يحي الى أمين الامناء محمد بن المدني بنيس ٢٥ جمادى الاخر ١٢٨٠ (٧ ديسمبر ١٨٦٣) **الوثائق** ، ج٤، ص ٣٠٣ .

(٦٩) المصدر السابق والصفحة .

(٧٠) رسالة من السلطان محمد بن عبد الرحمن الى محمد برقش ٢٦ ربيع الثاني ١٢٨٠ (١٠ أكتوبر ١٨٦٣) **الوثائق** ، ج٤ ، ص٢٩٨ – ٢٩٩ .

(٧١) رسالة من السلطان الحسن بن محمد الى محمد الطريس ١٧ محرم ١٣١٩ (٦ مايو ١٩٠) وثائق خاصة بالعلاقات المغربية المغربية الامريكية ، المحفظة ٩ مديرية الوثائق الملكية ، الرباط .

(٧٢) انظر الشرط الحادي عشر من المعاهدة بين المغرب واسبانيا عام ١٨٦١ حيث اشير الى ذلك من المقتطف التالي « .. ان كل دعوة كبيرة أو خصومة أو أسباب الشكايات التي تصدر بين رعية الصينول أو رعية الاجناس لا يدخل ولا يبحث في دعواهم قواد ولا قضاة ولا غيرهم .. » وبالطبع اصبح المحميون المغاربة من رعايا الاسبان واستفادوا من تلك الامتيازات. انظر عبد الرحمن بن زيدان ، ج٣، ص٤٩٦.

(٧٣) لقد ذكر في الشرط التاسع ما نصه « .. لكن فولاة المسلمين لا يقبضون متعلما أو خادما لاحد في خدمة اللكيون أو القنصلات (القنصليات) أو رعية الاجناس ، أو محمي دون أعلام لحاكم جنسه .. » . أنظر عبد الوهاب بن منصور ، ص ١٩٧ .

(٧٤) رسالة من وليم ريدلويس William Read Lowis الى محمد الطريس ٢٠ مايو ١٨٨٩ (٢٠ رمضان ١٣٠٦) رسائل خاصة بالعلاقات المغربية الامريكية ، المحفظة الخاصة ، مديرية الوثائق الملكية ، الرباط .

(٧٥) تلك الحادثة وردت في رسالة من ج. دريموند هي J. Drummond Hay الى مركيز ساليزبوري Marquis Salisbury ٣١ اكتوبر ١٨٧٩ (١٥ ذي القعدة ١٢٩٦) **الوثائق** ، ج٥ ، ص ٣٧٣–٣٧٤ .

(٧٦) رسالة من محمد برقش الى السلطان محمد بن عبد الرحمن ٢٣ محرم ١٢٨١ (٢٨ يونيو ١٨٦٤) **الوثائق** ، ج٤ . ص٣١١ – ٣١٢ .
أيضا انظر : محمد بن داود ، ج٦ ، ص٦٥.

(٧٧) المصدر والصفحات نفسها .

(٧٨) رسالة من السلطان الحسن بن محمد الى محمد برقش ٢٦ جمادى الثانية ١٢٩٧ (٥ يونيو ١٨٨٠) **الوثائق** ، ج٤، ص ٥٠٥–٥٠٦.
عبد الرحمن بن زيدان ، ج٢ ص ٣٦٨–٣٦٩.

(٧٩) انظر المصدرين السابقين والصفحات نفسها.

(٨٠) تفاصيل تلك الحادثة في الرسالة التي أرسلها السلطان الحسن بن محمد الى محمد برقش ١٣ صفر ١٢٩٧ (٢٦ يناير ١٨٨٠) **الوثائق**، ج٤ ، ص ٥٠٢ – ٥٠٣ .

(٨١) أشير في بداية البحث ان هناك أمورا مستحبة تلزم أهل الذمة ومنها أن يكون لديهم زيهم الخاص وأن لا يركبوا الخيل النجاب .انظر هامش رقم ٧.

(٨٢) رسالة من عبد الجليل بن شقرون الىمحمد الطريس ٣٠ صفر ١٣١٨ (٢٨ يونيو ١٩٠٠) رسائل خاصة بالعلاقات المغربية الامريكية، المحفظة ٨ ، الوثائق الملكية ، الرباط .
ايضا انظر :
T.A. Al-Harithi, Vol. p. 346 .
الرسالة ارسلت الى محمد الطريس .

(٨٣) رسالة من السلطان الحسن بن محمد الى محمد برقش ٢٩ شوال ١٢٩٧ (٤ اكتوبر ١٨٨٠) الوثائق ، ج٤ ، ص ٥١٢ – ٥١٣.

(٨٤) رسالة من نائب السلطان في طنجة (محمد الطريس) الى وليم لويس (William Lowis) ٢٢ محرم١٣٠٦هـ (٢٩ سبتمبر ١٨٨٨) رسائل خاصة بالعلاقات

المغربية الامريكية المحفظـــة الخامسة ، الوثائق الملكية ، الرباط .

(٨٥) رسالة من محمد بن عبد الرحمن الى محمد برقش ٢٦ شوال ١٢٨١ (٢٤ مارس ١٨٦٥) **الوثائق** ، ج٤ ، ص ٢٢١ .

(٨٦) رسالة من موظف مغربي مجهول الى جون باركلي June Barcaly ٨ ذي القعـدة ١٣١١ (١٣ مايو ١٨٩٤) رسائل خاصـــة بالعلاقات المغربية الامريكية ، المحفظة ٧ ، الوثائق الملكية ، الرباط .

(٨٧) اصدر السلطان محمد ذلك المرسوم فيمحاولة لارضاء أفراد البعثة البريطانية التي كانـت تضم بعض اليهود الا أن السلطان لم يضـف جديدا على ما أكده لهم عهد أهـل الذمة ، حيث ورد ذلك في الظهير وهـــذا يعني أن السلطان نجح في تحقيق هدفين من أصداره. مقتطفات من ذلك الظهير ، في الصفحـات السابقة .

(٨٨) رسالة من السلطان محمد الى ابنه الحسن ٢٨ ربيع الاول ١٢٨١ (٣١ أغسطس ١٨٦٤) مقتبسة من عبد الرحمن بن زيدان ــ العز والصولة في معالم نظم الدولة ج٢ ، الرباط، مط الحكومية الملكية ١٣٨٢ ، ص ١٣٤ ــ ١٣٥ .

(٨٩) هذا لا يعني ان اليهود الذميين لم يصابـوا بأذى ، فهم كغيرهم من سكان المغرب المسلمين تعرضوا في بعض الفترات لبعض المضايقات سواء على المستوى الفردي أو الجماعيخاصة عند وفاة السلطان أو انتفاض بعض القبائل.

(٩٠) رسالة من السلطان الحسن بن محمد الى عبد الله بن أحمد ١٣ شوال ١٢٩٦ (٣٠ سبتمبر ١٨٧٩) عن عبد الرحمن بنزيدان، ج٢ ، ص ١٣٦ .

(٩١) أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، رياض الصالحين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩١ ، ص ٣٠٩ .

(٩٢) رسالة من السلطان الحسن بن محمد الى حم بن الجيلاني ٢٩ صفر ١٣٠٢ هـ (٢٩ نوفمبر ١٨٨٤) عن عبد الرحمن بن زيدان ج٢ ، ص ١٣٨ .

(٩٣) رسالة من السلطان الحسن بن محمد الى محمد برقش ١٣ صفر ١٢٩٧ (٢٦ يناير ١٨٨٠) **الوثائق** ، ج٤ ، ص ٥٠٣-٥٠٤.

(٩٤) ظهير من الحسن بن محمد الى من يهمهالامر بتاريخ ١ رمضان ١٣٠٢ (١٤يونيو ١٨٨٥) عن عبد الرحمن بن زيدان ، معالم نظم الدولة ، ص ١٣٨ .

(٩٥) ظهير من الحسن بن محمد الى عماله بفاس بتاريخ ١٥ شوال ١٣٠٨ (٤ يونيـو ١٨٩٠) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٩٦) محضر عقد بين عامل فاس وبعض أعيانهـا المسلمين من جانب ، وأساقفة اليهـــود وأعيانهم ، بتاريخ ١٠ ربيع الثاني ١٣١٨ (٧ أغسطس ١٩٠٠) رسائل تتعلق بالعلاقـات المغربية الامريكيــة ، المحفظة ٩ ، الوثائـق الملكية ، الرباط .

* * *

صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام
اللجنة الوطنية العليا في دمشق
(ايلول ١٩١٩ ـ تموز ١٩٢٠)

د. سهيلة الريماوي
الجامعة الاردنية

اللجنة الوطنية العليا شكل متميز من أشكال التنظيم السياسي ، ظهر في ايلول ١٩١٩ وانتهى في تموز ١٩٢٠ . وهو شكل جدير بوقفة قصيرة ، لانه لم يكن في الواقع حزبا جديدا على شاكلة الاحزاب التي كانت قائمة في بلاد الشام في تلك الفترة ، أو جبهة من نوع الجبهات التي تكونت قبل الحرب العالمية الاولى وفي أثنائها . لقد كانت اللجنة الوطنية العليا ، من حيث ظهورها وتكوينها وأهدافها وأساليبها ، صيغة جديدة من صيغ التنظيمات السياسية ، يمكن أن تقارن ـ دون تعسف ـ بصيغة الاتحاد القومي من أكثر من زاوية ، كما يتبين من نظامها ، ومن نشاطها وفعالياتها ، ومن تكوينها الطبقي بقيادتها وقواعدها .

نشاة اللجنة وظروف تأسيسها :

ثمة روايات عدة تروي قصة تأسيس هذه اللجنة ، استقينا بعضها من مذكرات بعض المؤسسين والبعض الاخر من أدبيات هذه الفترة ، أو من خلال صحفها .

يقول محب الدين الخطيب الكاتب العام لهذه اللجنة في التأسيس ما يلي :لما ذهب الامير فيصل الى أوربا ليطالب بحقوق الاستقلال العربي والسوري في ١٩١٩ في مؤتمر الصلح في باريس ، كان لا يزال مخلصا للاستقلال الذي ثار مع والده ثم حارب مع الحلفاء للحصول عليه ، فالتفت الى الشيخ كامل القصاب ـ وكان من مودعيه ـ قائلا له : اني انتظرت منك ومن اخوانك الوطنيين ، أن تقوموا بحركة شعبية واسعة لتحويل الامة الى امة مسلحة ، والى أن يتحول الوطن كله الى ثكنة عسكرية .. وكان ان قام الشيخ كامل القصاب ومحب الدين الخطيب فعلا بتأسيس اللجنة الوطنية العليا ، واللجان الوطنية الفرعية التي تحولت بها دمشق وسائر المدن السورية الى ثكنات عسكرية والامة الى امة مسلحة(١) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

ويروي محمد عزت دروزة : أن اللجنة الوطنية العليا ، قد تأسست رسميا أثر أزمة استبدال الجيوش الانكليزية بالجيوش الفرنسية في شهر تشرين ثاني نوفمبر ۱۹۱۹ (الاتفاق الثنائي بين فرنسا وبريطانيا) حيث قررت الحكومة اعداد ما يمكن اعداده من وسائل الدفاع فكان من ذلك أن قررت التجنيد الاجباري ، وأن أنشأت اللجنة الوطنية العليا : حيث أخذ وجهاء الاحياء الدمشقية وشبابها يتجمعون بتوجيه رجال العهد (الفيصلي) للاستعداد للدفاع ، وأمكن تأليف لجنة عامة مؤلفة من مندوبي الاحياء ، ثم اشتركت الهيئات والاحزاب في هذه اللجنة ، ولم تلبث أن أصبحت مظهرا شعبيا على شيء من الخطورة بالنسبة للحركة الوطنية والدفاعية(۲) .

وعلى اختلاف رواية الخطيب التي تعزو فكرة انشاء هذه الحركة الشعبية الى توجيه فيصل في لحظة وداع ، عن رواية دروزة التي تعزوها الى قرار من الحكومة، فان الروايتين غير متناقضتين تماما ، وان كان موقف (فيصل) من هذه الحركة ، فيما بعد ، يدعو للشك في دقة رواية الخطيب ، أو يشير الى تغيير جذري طرأ على موقف الامير من الحركة ومن مبررات قيامها .

اما مقدمة « نظام اللجنة الوطنية العليا » فتوضح ظروف نشوء هذا التنظيم السياسي الشعبي وطريقة نشوئه بان اللجنة الوطنية وفروعها ، هي مجموع الكيان الفخيم الذي تكون من مجموع أعمال الشعب الذي هب أبناؤه في كل حي من أحيائه، يقومون بانفسهم بلا تواطؤ مع غيرهم ، ليبرزوا الى الوجود مايصيبهم من حصة في العمل الوطني الذي كانت تلقيه المرحلة عليهم حينذاك مندفعين بحس الواجب الوطني(۳) .

معنى هذا ، أن نشوء هذا التنظيم جاء وليد ظروف معركة شهدتها البلاد، وتغيرات سياسية عسكرية دفعت الاحياء الشعبية لتنظيم نفسها بعفوية ، فألفت لجانا تقود النضال الشعبي في كل حي ، ثم وحدت عملها في لجنة عليا لقيادة هذا النضال . على أن يتولى هذه القيادة ــ حتى انتخاب اللجنة العليا ــ ثمانية أشخاص من أهل الوجاهة والغيرة الوطنية . وحددت المادة الاولى من « نظام اللجنة الوطنية العليا » طريقة انتخاب هذه اللجنة . وعلى ذلك ، فالسمتان البارزتان في نشوء هذه الحركة هما :

آ ــ ان هذا التنظيم نشأ في ظروف المعركة ومن خلالها .

ب ــ انه تنظيم جماهيري تكونت وحداته على مستوى القواعد ، ثم اقامت قيادته العليا ، خلافا لما يحدث عادة في نشوء الاحزاب . وهذا مؤشر على درجة الوعي

الذي تفتح عند المواطنين في بلاد الشام بنتيجة ممارستهم العمل الجماعي فيالجمعيات العلمية والادبية ، والحلقات السياسية ، التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، ونمت خلال الحرب العالمية الاولى وتطورت ابان الحكم العربي الفيصلي ، وما تثيره هذه الجمعيات والحلقات من قضايا فكرية وسياسية واجتماعية تدرس وتناقش من جميع جوانبها . كما أسهمت الجمعيات الخيرية في تكوين المسؤولية الاجتماعية تجاه المجتمع والمواطن ، وبالتالي في خلق المسؤولية السياسية والتطلع لايجاد التنظيمات السياسية اللازمة لممارستها .

وكانت عملية الانتساب للجمعيات ــ بصرف النظر عن أهدافها ــ وما تتطلبه من اجراءات ومن التزام بواجبات العضوية ، عاملا مهما في ادراك اهمية العمل الجماعي المنظم وفائدته ، وفي توفير الخبرات اللازمة للعمل السياسي وتنظيماته .

اهداف اللجنة الوطنية العليا ومبادؤها :

نجد أهداف التنظيم الذي تقوده اللجنة الوطنية العليا ، واللجان الفرعية التابعة لها ومبادئه ، محددة بصورة واضحة وموجزة في المادة الثانية من نظام اللجنة ، وهي بنصها حرفيا المادة الثانية أيضا من نظام اللجان الوطنية الفرعية ، وهذه الاهداف والمبادىء هي :

١ ــ اتخاذ كل الوسائل لحفظ وحدة البلاد السورية والذود عن استقلالها التام، ومقاومة كل مبدأ يرمي الى تأسيس قومية غريبة تهدد كيان البلاد السياسي والوحدة السورية .

٢ ــ تنمية كل قوى البلاد المادية والمعنوية وتنظيم تلك القوى ، وحسن الاستفادة منها في سبيل الغاية المشار اليها .

٣ ــ انعاش الروح القومية العربية .

٤ ــ توثيق روابط التضامن والتعاون بين الافراد والجماعات والطوائف .

٥ــ تعضيد المساعي العلمية والفكرية والاقتصادية .

٦ ــ وبالجملة التوسل بكل ما من شأنه ايصال هذه الامة الى مصاف الامم المتمدنة.

وهذا الايجاز والوضوح في صياغة الاهداف والمبادىء يجعلها في متناول جميع المواطنين متحاشية التطرق الى التفصيلات والمسائل النظرية ، التي قد تؤدي الى

الخلاف والانشقاق . ومع ذلك ، كان واضعو النظام حريصين على تأكيد مبدأ القومية العربية ومقاومة الحركة الصهيونية ، فنصت المادة الثالثة على انعاش الروح القومية العربية . واكدت المادة الرابعة ضرورة تقوية الرابطة القومية فأشارت الى : « توثيق روابط التضامن والتعاون بين الافراد والجماعات والطوائـف » ، كما نصت المـادة الاولى على : « مقاومة كل مبدأ يرمي الى تأسيس قومية غريبة ، تهدد كيان البـلاد السياسي والوحدة السورية » وهذه اشارة صريحة الى مقاومة الحركة الصهيونية ، تدل على ادراك أهدافها ومراميها ، وتهديدها لكيـان البـلاد السياسي والوحـدة السـورية .

تكوين اللجنة الوطنية العليا :

١ ـ **العضوية** : تبدو السمة المميزة والبارزة لهذا التنظيم من مفهوم «العضوية» فيه وشروطها ، إذ نص « نظام اللجنة الوطنية العليا في العاصمة السورية ونظام اللجان الوطنية الفرعية في البلاد السورية » على ان « كل فرد من أفراد الامة مرتبط باللجنة الوطنية العليا ارتباطا قانونيا بمقتضى المصلحة الوطنية » .. ومن نتائج هذا الارتباط القانوني ، ان كل فرد من أفراد الامة هو ناخب من ناخبي اللجنة العليا ومؤيد لها ضمن دائرة غاياتها المعينة في المادة الثانية والمادة الثالثة من نظـام اللجنة العليا ، واللجـان الفرعية .. وأن تتألف في كل حي من أحياء العاصمة السورية الثمانية والاربعين ، وفي كل بلد من البلاد السورية التابعة لها ، لجنة وطنية مرتبطة باللجنة الوطنية العليا المنتخبة من قبل الاعضاء وقوام كل لجنة من اللجان الفرعية من ٦ الى ١٢ عضوا ، ينتخبون انتخابا قانونيا من أفراد الحي الذي تنتسب اللجنة اليه (المادة الاولى من نظام اللجان الفرعية) .

وأن : « يتجدد انتخاب نصف الاعضاء كل ٦ شهور . ويكون تجديد انتخابهم كتابة بصورة سرية في اجتماع عام يحضره كل أهل الحي أو البلد ، واذا تعذر الاجتماع في مكان واحد يجتمعون في أماكن مختلفة ولكن في وقت واحد ».. (مادة ١٢ من نظام اللجان الفرعية). وتنعقد جلسـات ممثلي الاحياء الثمانية والاربعين مرة كل اسبوع في الظروف الحاضرة ، فتعرض عليهم اللجنة العليا ما ترى عرضـه من الامور المهمة ، وتأخذ رأيهم فيها وتسمع اقتراحاتهم التي لها مساس بغاية الجمعية (المادة ١٣ من نظام اللجنة العليا).

وتنعقد جلسـات الاربعات المندوبة عن الاحياء مرة كل اسبوعـين في الظروف الحاضرة ويتداول فيها بما ذكر في المادة السابقة (م ١٤ من نظام اللجنة العليا) .

وتدعو اللجنة الفرعية جميع أهـل الحي أو البلد الى اجتماع عام مرة في كـل شهر ، واذا تعذر اجتماعهم في مكان واحد تجمعهم على مرتين أو أكثر ، وتطلعهم على ما يجب ان تطلعهم عليه وتنتدب خطباء يلقون عليهم الخطب بالمواضيع التي تقتضيها الحال ، بشرط أن تكون الخطب منطبقة على ما ورد في المادتين الثانية والثالثة ، واذا خطب أحد بما يخالف ذلك توجه المسؤولية على الخطيب أولا وعلى اللجنة الفرعية ثانيا . وان اللجنة الفرعية تهتم في هذه الاجتماعات بما يعرض عليها من اقتراحات الاهالي وتبلغ المهم منها الى اللجنة العليا (م١٥ من نظام اللجان الفرعيـة) . ونرى في هذه النصوص :

آ ـ أن كل مواطن عضو قانوني في التنظيم .

ب ـ أن كل مواطن ، عضو كامل العضوية ، يمارس حقوقها في عمليات انتخاب اللجان وفي مناقشة نشاطها ومراقبته .

جـ ـ أن كل حي أو قرية هو وحدة محلية للتنظيم تضم جميع المواطنين فيه .

فاذا اضفنا الى هذا ان النظام لا يفرض على المواطن أو العضو واجب دفـع اشتراك مالي محدد ، لان مالية التنظيم على كافة مستوياته تعتمد على التبرعات ، يتبين بجلاء الصفة الجماهيرية الشاملة التي يتصف بها هذا التنظيم .

٢ ـ **طريقة تشكيل اللجان ومسؤولياتها** : اذا كان مفهوم العضوية وشروطهـا يعطي لهذا التنظيم صـفة الشعبية الشاملة ، فان طريقة تكوين اللجـان على كافـة مستوياتها وتحديد مسؤولياتها ، والعلاقة فيما بينها ، يبرز سمة الديمقراطية التي يتصف بها أيضا :

أولا : جميع أعضاء اللجنة الوطنية العليا منتخبون ، ويتم انتخابهم بطريقة خاصة تبتدىء من جميع المواطنين في الاحياء على الصورة التالية :

آ ـ تنتخب كل وحدة محلية ، اي كل حي في العاصمة ، أربعـة مندوبين في اجتماعات محلية عامة يشترك فيها جميع سكان الاحياء بصورة علنية .

ب ـ ينتخب هؤلاء الاربعة ممثلا لهم .

جـ ـ يجتمع الممثلون (لاحياء العاصمة) في هيئة تنتخب اللجنة الوطنية العليا (م١ من النظام المركزي) .

يتجدد في كل ٦ اشهر انتخاب اعضاء اللجنة العليا المنسوبين الى أربعة فقط من

اثمان العاصمة ، ويكون تجديد انتخابهم من جانب ممثلي الاحياء الداخلة في اثمانهم، كما جرى في انتخاب مساء الاربعاء (٥ تشرين الثاني ١٩١٩) وتتعين هذه الاثمان الاربعة بالقرعة لاول مرة فقط ، ثم يكون تجديد النصف الاخر بالتناوب ، ويجوز أن ينتخب العضو القديم مرة أخرى (م ١٠ من نظام اللجنة العليا).

ثانيا :

آ ـ جميع اللجان الفرعية في الاحياء والقرى منتخبة من قبل جميع المواطنين في الحي أو البلد بطريقة الاقتراع السرى .

ب ـ يتجدد انتخاب نصف الاعضاء في كل ستة أشهر ويكون الانتخاب بالطريقة المذكورة سابقا ، ويتعين بالقرعة لاول مرة ، النصف المراد تجديد انتخاب بدلا عنه ، ثم يكون تجديد النصف الاخر بالتناوب .

ثالثا :

آ ـ ليس للجنة (العليا والفرعية) رئيس دائم ، بل ينتخب لكل جلسة رئيس بأكثرية أصوات الاعضاء الموجودين في تلك الجلسة (م٥ مركزي ، ٧ فروع) .

ب ـ تملأ المراكز في جميع اللجان المحلية والعليا بطريق الانتخاب من قبل اللجنة ذاتها فتنتخب الكاتب ، وأمين السر ، والخازن ، وأمين الصندوق .

رابعا : توفر امكانيات المناقشة والمحاسبة بين القواعد ولجانها من جهة ، وبين هذه القواعد واللجنة العليا كذلك عن طريق اجتماعات دورية توضحها (المواد ١٣و١٤ من النظام المركزي والمواد ١٤و١٥و١٦ من النظام الفرعي).

الى جانب هذا التنظيم الديمقراطي ، نجد اجراأين يلفتان النظر يتيحان للجنة العليا تجاه اللجان الفرعية ، وللجان الفرعية تجاه القواعد ، نوعا من أنواع الرقابة الموجهة :

آ ـ ان اللجنة العليا تستنسب ضم (أي تعيين) أحد الواقفين على مجرى الامور ، الى كل لجنة من اللجان الفرعية ، ليعرض عليها دائما كل ما يحدث مما يهم وقوفها عليه . ويجوز للجنة الفرعية أن تنتخب هذا الشخص كاتبا لها .

ب ـ تنتخب كل لجنة فرعية بضعة اشخاص يسمون لجنة تفتيشية لمراقبة اهل الحي أو البلد المنتسبة اليه وارشادهم الى ما تقتضيه المصلحة العامة والاحوال

الحاضرة وتنصح من يشذ منهم عن مقاصد اللجنة الوطنية ، وتبث فيهم روح التآلف والنظـام .

خامسا : الترتيبات الخاصة : اخذ هذا التنظيم بترتيبات خاصة ناشئة عـن أن غايات اللجنة الوطنية العليا واسعة الاطراف ، تستدعي جهدا عظيما وعملا جسيما ، وتقتضي أشـتراك كـل العاملين مـن رجال الامة للوصـول اليها ، فمـن المناسب الاستعانة بـ :

١ ـ انضمام مندوبين اثنين من كل حزب مـن الاحزاب السياسية السـورية المتفقة غايتها مع غاية الامة المبينة في المادة الثانية .

٢ ـ تأليف لجنة استشارية من أعيان البلاد وأهل الزعامة فيها ومن الافاضل المشهود لهم بالعلم وسعة المدارك .

٣ ـ تأليف لجنة عاملة مـن الشـباب المتعلمين النشيطين ، يستعان بها في تنفيـذ ما تودعه اليها اللجنة العليا من القرارات .

٤ ـ للجنـة العليـا أن تسـتعين في تنفيـذ قراراتهـا بلجان مؤقتـة تؤلف حسب الاحتياج (م١١) .

يتبين من هذه الترتيبات رغبة اللجنة الوطنيـة العليا استيعاب كل الطاقـات وتعبئتها وتوجيهها بصورة واقعية تدرك ، كما يبـدو ، ضرورة ايجاد مواقع خاصـة لرجال الاحزاب ، ولأعيان البلاد وأهل الزعامة فيها .

ولكن هذه المعاني التي نجدها في نصوص نظـام اللجنة الوطنية العليا ، ونظـام اللجان الوطنية الفرعية ، تشير الى مفاهيم متميزة صيغت عند وضـع ذلك النظـام : « ليكون موافقا من جهـة للدواعي التي أوجبت ايجاد هـذه التشكيلات الوطنية ، وملائما من جهة ثانية ، للحاجات الاجتماعية العامة بعد أن يستتب للامة استقلالها ، وللبلاد وحدتها . » (المقدمـة) .

انها معانٍ تنظيمية ، أريد بها حين وضعها مواجهة « ظروف المعركة » القائمة ، والاستجابة لحاجات البلاد الاجتماعية العامة ، فيما بعد .

وضع سـير الاحداث حدا لهذه المحاولـة التنظيمية المتميزة ، قبل أن يبلـغ عمرها السنة بانتهاء العهد العربي الفيصلي . ولكن هذا لا يقلل من قيمتها وأهميتها، « كمفاهيم » تكون أسس محاولة تنظيمية تبدو ، في عصرها ، محاولة لتخطي الصيغ

التنظيمية الحزبية المتعددة ، الى صيغة التنظيم الشعبي الشامل ... أثرت في أحداث ذلك العهد بالرغم من انها لم تأخذ مداها في الممارسة .

اقطاب اللجنة الوطنية العليا : نعرف رئيسها الشيخ كامل القصاب ، والشـيخ محب الدين الخطيب ـ الكاتب العام ، وأعضاء هيئتها الادارية : سامي مردم ،ونسيب حمزة ، وعبد القادر الخطيب ، وعوني القضماني ، والشيخ عيـد الحلبي ، واسـعد المالكي ، وشكري الطباع ، وعبـد القادر سكر ، وجميـل مردم ، واسـعد المهايني ومحمد النحاس(٤) .

فعاليات اللجنة الوطنية العليا وفروعها :

بدأت فعاليات اللجنة الوطنية العليا في مواجهة الاتفاق الانكلو-فرنسي ، الذي عدل في بنود سايكس بيكو بحيث تحصل بريطانيا على الموصل مقابل سحب قواتهـا من سورية . فاجتمع رجال الاحزاب والجمعيات والنقابات ، وفتيان الاحياء الوطنية بتاريخ ٩/١٤ وساروا في أحياء العاصمة بالاهازيج ، متجهين نحـو ساحة الشـهداء فضفاف بردى فالنادي العربي ، وانضم اليهم أعضاء النادي حزبيين وغير حزبيين ، وانتظم الجميع في مظاهرة وطنية انقسمت الى قسمين ، دار كل منهما حول مدينـة دمشق من جهة ، ليتقابلا أمام قصر الامير(٥) الذي أطـل على المتظاهرين . وتوالـى الخطباء يلحون على مطلب واحد هو الاستقلال والحرية ، مؤكدين :

أولا : ان ابناء الشعب الذين وهبـوا دماءهم متطوعين في الجيوش الهاشمية ، ما كانوا يفعلوا ذلك ويقاتلوا مع الحلفاء جنبا لجنب ، من أجل أن يرفعوا من أعناقنا نيرا ويضعوا نيرا آخر مكانه ...

ثانيا : انما كان الشرط من الاول ، أن تكون لنا حريتنا واستقلالنا ونحن لا نزال على هذا الشرط (٦) .

ظلت المظاهرات الشعبيـة تجـوب ارجاء البلاد عدة أيـام فارسلت بريطانيـا تهديـدا للامير فيصل لم يستجب له واجاب : ان المظاهرات التي يقـوم بها الشعب ما هي الا تعبيرا عن خوف العرب من أن تهضم حقوقهم ، وان الامة غـير مطمئنة على مصيرها ، وأعلن التطوع في البلاد ، ولبس الجميع اللباس العسكري ، وفتح النادي العربي أبوابه لاستقبال المتطوعين واجراء التمرينات العسكرية(٧) .

في اليوم التالي ، الخامس عشر من أيلول ، توجه فيصل الى فرنسا ووجه نداء الى الشعب يطلب منه تأييده في مهمته(٨) . وعندما بدأت الجيوش الفرنسية تحتل

بعض الاماكن على الحدود السورية وفقا للاتفاق الانكلو ــ فرنسي ، عادت المظاهرات الصاخبة تنادي بعدم الاعتراف بالاتفاقات الثنائية ، وتطالب بجلاء الجيوش الاجنبية، وكان هذا التجمع بداية لتأسيس اللجان الوطنية . وأرسل فيصل برقية من باريس الى دمشق يطمئن الشعب السوري حول الاتفاق الثنائي ، على أنه اتفاق عسكري ومؤقت .. ولكن هذه البرقية لم تصل للمسؤولين في سورية ، لان فيصل أرسلها لأخيه ونائبه الامير زيد عن طريق وزارة الخارجية الفرنسية ، فأرسلتها هذه الى « غورو » الذي جمدها عنده(٩) .

قامت اللجنة الوطنية العليا بحملة توعية صحفية، برز فيها الصحفي محب الدين الخطيب من خلال مقالاته في جريدة العاصمة شبه الرسمية في دمشق ــ وكان مسؤولا عنها كرئيس تحرير ــ ومنها مقالة بعنوان وظيفة الارشاد ، يشير فيها بوضوح الى اهمية جماهير الشعب العاملة مبينا أن سواد الامة ليس قاصرا على طبقة المتعلمين والاعيان ، وتجار الحواضر ، الذين يقرؤون الصحف اليومية ، ويراقبون سير السياسة الخارجية ، بل سواد الامة هو المتكون من جماهير العمال ، وسكان القرى والجبال ، والعاكفين على شق الارض واستنباتها ، فهؤلاء هم الذين يجب على المتعلمين أن يصرفوا هممهم الى تنوير قلوبهم وعقولهم وترقية مواهبهم ومداركهم ، ليتكون للامة رأي عام بواسطتهم(١٠). وكان هذا الرأي العام أو الهدف هو : « الاستقلال التام»(١١).

تأييد المؤتمر السوري للحملة الشعبية : وكان أهم ما يدعم الحملة الشعبية ، ومطاليبها الجماهيرية ، بلاغات المؤتمر السوري ، وهو الهيئة التمثيلية القائمة في البلاد التي تمثل جميع مناطق سورية وأجزائها . فقد نقل المؤتمر المطالب الشعبية الى المستوى العالمي عن طريق معتمدي الدول ، محتجا على كل قرار أو اتفاق يخالف ارادة الامة ، وانتدب المؤتمر في احدى جلساته(١٢) لجنة تمثل جميع بلاد الشام ، لابلاغ معتمدي الحلفاء في دمشق أن المؤتمر الذي يمثل الامة السورية يحتج على كل قرار أو اتفاق يخالف تصويت الامة بضرورة المحافظة على وحدة البلاد السورية واستقلالها .

زار الوفد معتمدي بريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا وأمريكا واسبانيا ، وقدم لكل منهم صورة عن بلاغه في هذا الشأن ، مبينا أن الامة تصر كل الاصرار على قرارها الثابت في المحافظة على استقلالها التام ، ووحدة البلاد السورية كلها ، من جبال طوروس شمالا الى حد العريش في الجنوب ، ومن اقصى بادية الشام شرقا الى البحر الابيض في الغرب ، وترفض كل دعوى حق أو قومية في سورية غير حق الامة العربية وقوميتها . وقد أصغى معتمدو الدول الى هذه البيانات الجليلة ووعدوا بابلاغها الى مراجعهم (١٢) .

وعلى أثر بيانات المؤتمر السوري ، تجددت المظاهرات في جميع مدن بلاد الشام بقيادة اللجنة الوطنية العليا ، وأرسلت كل مدينة وفدا ليشترك في المظاهرات الكبرى في دمشـــق(١٤) .

النضال المسلح : ارتفع النضال الشعبي الى مستوى النضال المسلح ، تشجعه اللجنة الوطنية العليا ولجانها الشعبية ، وبعض أعضـــاء جمعية العربية الفتاة الذيـن ظلوا خارج الحكم ، وتفجرت عدة انتفاضـــات ثورية كان أهمهـــا : انتفاضة الحولـة وانتفاضة تل كلخ المعروفة بـ « ثورة الدنادشـــة » ، وانتفاضة بعلبك ، وغيرها مـن الانتفاضات المسلحة في أنحاء بلاد الشام . وتشير وثائق محب الدين الخطيب وغيره من رجال العصر ، الى ما يؤكد تشجيع أعضاء اللجنة الوطنية العليـــا للثوار وتدريب المتطوعين ، ويزيد اللواء عطفة ، أحد ضباط الجيش العربي : « أنه تم الباس عدد من الجنود النظاميين على شكل ثوار لمهاجمة الفرنسيين حتى يظهر الجيش النظامي بأنه حيـــادي »(١٥) .

نادت اللجنة الوطنية العليا من خلال المظاهرات الشعبية بضرورة تكوين جيش للبلاد يحل محل الجيوش المنسحبة حسب الاتفاق الثنائي الانكلو ــ فرنسي ، ودعمت الحكومة وجهة نظر رجال الاحياء في الاستعداد للدفاع(١٦) واستلم الشيخ كامل القصاب رئيس اللجنة الوطنية العليا ، تنظيم النضال الشعبي لما يتمتع به من شعبية في الاحياء، وأخذ يهيىء الجو لاتخاذ قرار شعبي بضرورة الدفاع وتكوين جيش نظامي . وقامت اللجنة العليا بعدة أعمال كان منها :

آ ــ حل الازمة المالية التي كانت مـــن أهم الامور اللازمـــة لدعم حركة الدفـــاع فألفت لجانا فرعية لجمع المال اللازم بنسبة ٢٪ من ثروة كل فرد مـــن أفراد الامة ، وتركت الخيار لمن يريد التبرع ، وذلك بقرار اتخذته في اجتماعها بتاريخ ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩(١٧) .

ب ــ توحيد الجهود الشعبية والطائفية في اجتماع عقدتـــه في النادي التجاري (٣ كانون الاول / ديسمبر) شارك فيه بطريرك الروم الارثوذكس ومطران السريـــان والمفتي والعلماء ، وقرروا باتفاق الاراء لزوم الدفاع عن الوطن ، ودعوة كل الطوائف الوطنية بواسطة رؤسائها الروحيين وزعمائها للاشتراك في الدفاع .

ج ــ وأهم عمل قامت به اللجنة حينذاك ، أن قررت تأليف كتيبة من المتطوعين، يبلغ عددهم الالف ، وارسال وفود الى البلاد السورية للاتفاق على توحيد الخطة .

وأعلن الشيخ كامل القصاب رئيس اللجنة : أن الامة قررت الدفاع ، وبدأ رجال الاحياء بالتطوع ، وأن رجال حي الميدان بدمشق قد تطوعوا فعلا وسيضربون خيامهم غدا في المزة ، وكذلك أهل الشاغور ، وان الاخبار الواردة من بعلبك والبقاع تقول ان اهلها على استعداد للانضمام الى الحركة الوطنية(١٨) .

تأثرت محادثات باريس ، بين الامير فيصل والحكومة الفرنسية ، بهذه الاحداث، فأرسل فيصل برقيات تطالب بالهدوء ، وطلب من أخيه الامير زيد ، وعلي رضا الركابي رئيس الوزراء ، تهدئة الموقف ، وأخبر الامير زيد الامير فيصل ، بقرارات المؤتمر السوري المتعلقة باعلان استقلال البلاد ، وتغيير الحكومة لاقامة أخرى وطنية دفاعية ، فأجاب فيصل بأن لا يصار الى أي تغيير جوهري في نظام الحكم ريثما يتم البث في مصير البلاد ، وأشار بدعوة المؤتمر السوري الى جلسة يتلى فيها بلاغ من الامير زيد موجه اليه ، وعقد المؤتمر جلسة في الفاتح من كانون أول / ديسمبر ١٩١٩ لم يحضرها الامير زيد ولم يرسل علي رضا الركابي ، بل أرسل السيد عيسى العيسى رئيس كتاب ديوان الامير ، فألقى في المؤتمر بلاغا باسم الامير زيد ، يحتوي على كثير من المدح والاطراء لاعضاء المجلس ومواقفهم الوطنية وقال : « غير أنا نرى أن ابقاء التشكيلات الادارية الحاضرة المعلومة لديكم مع بعض التعديل في الفروع أدعى للاقتصاد وأحفظ للنظام وتوطيد دعائم الامن في مثل هذه الاوقات ، الى أن يتقرر مصير البلاد النهائي في مؤتمر الصلح »(١٩) .

وعقد المؤتمر السوري جلسة بتاريخ ٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩١٩ أصدر فيها منشورا وزع على الاهلين جاء فيه : » ان المؤتمر السوري الذي تمنى أن تكون الحكومة مسؤولة لدى الامة ولم يتمكن من ذلك التمني ، فقد قرر في جلسته المنعقدة بتاريخ ٤ كانون الاول ١٩١٩ تأجيل جلساته وفقا لرغبة سمو الامير المعظم ، الى أن تدعوه الحكومة والامة مرة أخرى »(٢٠) .

موقف اللجنة الوطنية العليا : لئن استجاب المؤتمر السوري لمطالب الامير فيصل وحكومته، فان موقف اللجنة الوطنية العليا كان مختلفا ، فقد دعت الى تجمع المعارضة في صفوفها ، من أعضاء الاحزاب والهيئات والقيادات الشعبية ، وأعضاء المؤتمر السوري ، وبدأت بتنظيم النضال الشعبي وتوحيده حتى بلغ مستوى من الشمول والقدرة أجبر الامير زيدا نائب الامير فيصل على قبول استقالة رضا الركابي قبل أن يعود فيصل من أوروبا . وقطع فيصل زيارته تحت تأثير الضغط الشعبي وعاد الى سورية لمحاولة اعادة الوضع على ما كان عليه ، خاصة وأن المظاهرات قد عمت جميع المدن السورية مؤيدة لموقف المؤتمر السوري واللجان الشعبية .

لم يقتصر نشاط اللجنة الوطنية العليا على دمشق ، بل أخذت على عاتقها تنفيذ برنامج اللجنة المركزية بوجوب تشكيل جيش وطني ، يتدرب على التعليم العسكري يوميا في جميع أنحاء بلاد الشام ، من ذلك ما جاء في البرقية التي وردت من فرع اللجنة في عمان الى المركز في دمشق ، ونصها : « دعونا رؤساء العشائر من أطراف معان الى الكرك ، وعشائر البلقاء ، للاجتماع في يوم معلوم للمذاكرة في مصالح الوطن. وسنوافيكم بما يتم . واننا نرجو من اللجنة الوطنية العليا أن تعلمنا بما يجد في العاصمة يوميا لتكون الكلمة والحركة متوحدة » .

وصلت الحالة في البلاد درجة الغليان، فالمظاهرات في كل مكان ، والاضراب يشل حركة الاسواق والتجارة ، والنضال المسلح في كل مناطق الحدود تقريبا . وزاد في تأزم الموقف نشر خبر اتفاق فيصل ـ كلمنصو ، فاضطر الامير زيد أن يقبل استقالة الركابي ، ليعين بدلا عنه عبد الحميد القلطقجي . وبعد بضعة أيام مصطفى نعمة ، كما عين يوسف العظمة رئيسا لديوان الشورى الحربي ، أي وزارة الدفاع . واتخذت الحكومة قرارا بالخدمة العسكرية الاجبارية بتاريخ ١٣ كانون الثاني ١٩٢٠ .

عودة الامير فيصل وموقف اللجنة : عاد فيصل من اوربا الى دمشق في ١٤ كانون الثاني ، وأعلن لمستقبليه فكرة الاتفاق مع فرنسا ورغبته في استشارة الامة قبل اقرار الاتفاق ، « فاستحسن فريق رأيه واستنكره آخرون »(٢٢) وخاطبه الشيخ كامل القصاب رئيس اللجنة الوطنية العليا في احدى خطبه بقوله : « اني واثق أنك لن ترضى ، وحاشاك أن ترضى أن تكون أميرا على بلاد يظللك فيها علم أجنبي »(٢٣) . وتسارعت الاحداث منذرة بوقوع أزمة حزبية ووطنية بين الامير وحكومته من جهة ، وبين اللجان الوطنية والنضال الشعبي والمعارضة من جهة أخرى . وكانت المعارضة الشعبية لموقف فيصل وحماسته للاتفاق مع فرنسا شديدة جدا ، واستنكر الناس خطابه المشهور في النادي العربي ٢٢ كانون الثاني ، الذي تطرق فيه الى الوضع السياسي والى المستقبل ، وابدى تخوفه من خطط الحلفاء حول سورية ودعا الشعب وقياداته الى « الصمت » تحت شعار : « نريد اعمالا لا أقوالا » ، ففجر الموقف(٢٤). ثم خرج ومؤيدوه الى منزل بديع المؤيد للتداول . وقرر المعارضون دعوة فيصل للاجتماع بهم في اليوم التالي ، وتم اللقاء في منزل علي رضا الركابي فحدثت مشادة حادة بين الامير واعضاء الهيئة الادارية لجمعية العربية الفتاة ، بعد خطبة القاها توفيق الناطور ، هاجم فيها الامير باسم المعارضة . « واتسع الخرق في هذا الاجتماع بين الفريقين » كما يقول محب الدين الخطيب في مذكراته ، وعطل فيصل الصحف الوطنية التي كانت تؤيد النضال الشعبي(٢٥) وشكل حكومة المديرين اللا حزبية ، واسس الحزب الوطني من أعضاء جمعية العربية الفتاة الذين التفوا حوله . وبقيت المعارضة

تمثل اكثرية اعضاء جمعية العربية الفتاة ، واللجان الوطنية العليا والفرعية ، ومن التف حولهم من أعضاء المؤتمر السوري ورجال الصحافة وغيرها .

محاولة « تقارب » بين الامير فيصل ـ واللجان الوطنية : حاول الامير فيصل أن يستميل اليه أعضاء اللجنة الوطنية ، ليكسب تأييدا جماهيريا لفكرة اتفاقه مع فرنسا، فطلب من الشيخ رشيد رضا تهيئة اجتماع مع الشيخ كامل القصاب وخالد الحكيم، يحضره الشهبندر عضو حزب الاتحاد السوري المعارض .. ويقول صاحب المنار : « جاء أصحابنا الثلاثة حسب الطلب ، وسهرنا معه الى انتهاء الساعة الحادية عشرة . ودار الحديث في المسألة العربية وذكر لهم موقفه الرسمي بين ابيه والاقطار العربية التي وكلته ، وسألهم رأيهم فيما يجب أن يفعل ، ولم يستطيعوا أن يجيبوه جوابا مقنعا ، ولم يتفقوا على شيء وحلفوا له على الكتمان وانصرفنا »(٢٦) .

يتبين من هذا اللقاء أن اللجنة الوطنية العليا ، كانت في مقدمة المعارضين لمشروع فيصل الذي وعد به (كليمنصوا) وكان يعده هو وأعضاء وفده ، وفي مقدمتهم عوني عبد الهادي « أفضل ما يمكن التوصل اليه من فرنسا وانكلترة »(٢٧) .

وعندما شكل الامير فيصل حكومة المديرين برئاسة أخيه الامير زيد ، تعاون معه الذين انتسبوا الى جمعية العربية الفتاة في عهده ، في حين امتنع الاعضاءالاوائل، وأعضاء التنظيم الشعبي عن التعاون ، وأطلقوا على فيصل وحكومته اسم « أبناء الذوات » وأعضاء حزب « الحاكم » وغير ذلك من الالقاب ، كذلك لم تنفع فيصل وحكومته الجولة التي قام بها في أنحاء البلاد السورية أواخر كانون الثاني ١٩٢٠ ، لشرح الموقف للجماهير الشعبية وكسب تأييدها لاتفاقية فيصل ـ كليمنصو ، وأخذ الشعب في حلب مثلا يهاجم الذين دافعوا عن الاتفاقية ، واتهمهم بالخيانة . وبعد زيارة فيصل لحلب في ٢٨ كانون ثاني ، « أصبحت الجماهير تجاهر بطردهم »(٢٨) . وفي زيارته بيروت في ٣ شباط / فبراير لم يلق تشجيعا من الجماهير ولا من الثوار الدنادشة الذين لم يستجيبوا لمطالبه ، فقرر العودة الى دمشق ليتقرب من المعارضة وأعضاء اللجان الشعبية .

في هذه الاثناء كانت اللجنة الوطنية العليا ، والمعارضة تقومان بحملة توعية شعبية واسعة ، عن طريق الصحف والنوادي، والمظاهرات ، وبدأت المنشورات تهاجم الركابي وغيره من المؤيدين ، مما دعا رئيس دائرة الجنرال غورو السياسية أن يكتب للجنرال مذكرة قال فيها : ان لجنة الدفاع الوطني ، التي كانت قبل وصول الامير فيصل تدير شؤون الحكومة ما زالت حتى الان تنشر في البلاد أفكار الاستقلال التام ، قد قررت محاربة الامير فيصل اذا كان قد وقع معاهدة مع فرنسا . وهذه اللجنة

لا تزال مستمرة مع المعارضة ، ويظهر أنها لا ترغب في مشاركة الامير في غاياته ومراميه الزائدة والناقصة في الاخلاص للقرب منا(٢٩) .

قرر فيصل أن يحضر الاجتماعات الشعبية عله يتفاهم مع أعضاء اللجنة الوطنية العليا بعد سيطرتهم على « الشارع » بهذه القوة الجماهيرية الهائلة ليسعى بالتالي الى مزيد من التفاهم مع صفوف هذه الهيئات الشعبية القيادية .

اجتماع المزة ، ٩ شباط / فبراير ١٩٢٠ : بناء على هذا المخطط الجديد ، حضر فيصل اجتماع اللجنة الوطنية العليا الذي عقدته في المزة في ٩ شباط ، برئاسة الشيخ كامل القصاب ، وخالد الحكيم ، وحضره الكثيرون من رجال الاحزاب منهم عبد الرحمن الشهبندر ورشيد رضا ، عضوا حزب الاتحاد السوري ، وعدد كبير من أعضاء حزب الاستقلال . ويقول الشيخ رشيد رضا : لم تشهد دمشق مظاهرة أكبر وأضخم من هذه المظاهرة التي سبقت الاجتماع ، حيث امتدت من دمشق الى مكان الاجتماع في المزة »(٣٠) . وكان الغرض من هذه المظاهرة ، كما يقول صاحب المنار ، أن يرى الامير فيصل أن الامة كلها كانت متفقة على طلب الاستقلال المطلق من كل قيد ، لا ترضى بما دونه بديلا . وكان الشيخ القصاب وأركان اللجنة قد علموا أن الامير جاء من أوروبا متفقا مع فرنسا على نوع من الوصاية ، ويقول صاحب المنار أيضا انني أخبرتهم بأن فيصل يعتقد « بأنه يقدر أن يأخذ من زعماء البلاد تفويضا بذلك »(٣١) .

أكدت كلمات الخطباء في هذا الاجتماع أن الشعب لا يرضى عن الاستقلال بديلا، وتكلم فيصل فقال : انه يؤيد الامة في طلب الاستقلال المطلق ، وان هذا الاستقلال لا ينال الا بجيش قوي عظيم ، وكان جوابه يتضمن الرد الخفي على الطلب ، من غير أن يؤخذ عليه ما تفهم منه الامة أنه يريد أو يرضى دون ما تريد الامة أو ترضاه . . .(٣٢).

تطورت الامور في سورية تطورا سريعا ، وقررت المعارضة ، بعد انانضمت اكثرية أعضاء الفتاة العربية الى صفوفها ، وضع الامير امام الامر الواقع ، ودعوة المؤتمر السوري للاجتماع ، بدلا من انتخاب مؤتمر جديد . واجتمع المؤتمر يوم ٦ اذار مارس ١٩٢٠ في النادي العربي وانتخب هاشم الاتاسي لرئاسته ، وعزتدروزة سكرتيرا له. وأهمية هذا الاجتماع ، انه عقد للتنفيذ وليس للبحث والمداولة ، وحضر فيصل الاجتماع ، وكان قد اضطلع على البيان المزمع اعلانه في المؤتمر ، والقى رئيس اللجنة الوطنية العليا كامل القصاب ، باسم مجموع الامة السورية ، خطابا أشار فيه الى أن استقلال سورية هو بمثابة حجر الاساس لاستقلال البلاد العربية(٣٣) .

وفي يوم٧ آذار اجتمع اعضاء المؤتمر وقرروا بالاجماع اعلانالاستقلالالتام لسورية بحدودها الطبيعية ، والمناداة بفيصل ملكا عليها . وفي ٨ اذار تشكل وفد من اعضاء

المؤتمر وتوجه الى دار الامارة لتتويج فيصل ــ الذي حضر بموكبه الرسمي ــ ملكا على سورية . ورفع العلم السوري الجديد ،وهو علم الدولة الهاشمية في الحجاز ، مضافا اليه نجمة واحدة بيضاء في المثلث الاحمر ، واطلقت المدافع مائة طلقة وطلقة ، ثم تلا سكرتير المؤتمر محمد عزت دروزة قرار المؤتمر السوري كما تم الاتفاق عليه بين فيصل واعضاء المعارضة والاحزاب ، وجاء أهم ما فيه كما تريد اللجان الوطنية والمعارضة عموما : اعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية بما في ذلك فلسطين ، مع رفض الادعاء الصهيوني بالوطن القومي (وهذه الحدود هي حسب قرار المؤتمر السوري الذي قدمه للجنة الاستفتاء) اعلان الحكم نيابي دستوري ، الاحتفاظ بصداقة الحلفاء، على أن يحترم كل طرف مصالح الطرف الاخر ، المطالبة بجلاء جنود الحلفاء من المنطقتين الغربية والجنوبية ليحل الجند الوطني محلها(٣٥). وهكذا انتصرت المعارضة وأعلن استقلال سورية الطبيعية .

مؤتمر سان ريمو والمعارضة الشعبية : بتاريخ ٢٦ نيسان /ابريل١٩٢٠ أقر مؤتمر « سان ريمو » الانتداب على سورية والعراق وفلسطين ، فهاج الشعب وكادت تقع حوادث واصطدامات كبرى ، واحتج فيصل على الدول التي وصفت أهل سورية بالشعوب والامم ، معلنا ان الشعب السوري شعب واحد وأمة واحدة(٣٦) . وغضبت الجماهير لموقف وزارة الركابي تجاه مؤتمر سان ريمو ومقرراته ، فتشكل وفد من جميع أحزاب سورية ، تؤازره مظاهرة شعبية كبرى ، وتوجه الجميع لمقابلة الملك فيصل . واخذت الجماهير تهتف بسقوط الركابي وحكومته ، فاضطر الملك الى ارسال كبير امنائه ليقنع الركابي بالاستقالة . واقنعه بذلك وفد يضم بعض اعضاء الفتاة تسانده الجماهير الشعبية ذهب الى الركابي في بيته ، فاستقال في ٣أيار / مايو ١٩٢٠ (٣٧) . وطالبت الجماهير بتشكيل : « وزارة دفاعية تصرف جل جهدها في الاستعداد للدفاع عن الاستقلال اذا اعتدى عليه ، أو يكون الاستعداد سببا لعدم الاعتداء »(٣٨) ولم ترض عن اختيار هاشم الاتاسي لتشكيل الوزارة ، لانه رجل مسالم، بالرغم من أن يوسف العظمة شغل منصب وزارة الحربية وعبد الرحمن الشهبندر وزارة الخارجية ، وهما يمثلان الفكرة الوطنية المتطرفة والدفاعية(٣٩) .

قدمت الوزارة بيانها مؤكدة تأييد الاستقلال التام الناجز ، ومن جملة ما تضمنه حق التمثيل الخارجي، والمطالبة بوحدة سورية الطبيعية. وتعرض البيان الى مقررات سان ريمو ، وانها تضمنت الاعتراف مبدئيا باعتبار سورية دولة مستقلة « فنحن نسجل هذا الاعتراف مع السرور ونتخذه اساسا للحقوق الاخرى التي سنطالب بها » (٤٠) .

لم تنلْ وزارة الاتاسي الثقة بسهولة . وكانت الجماهير خارج المجلس النيابي ، وداخله ، تطالب بتأكيد الدفاع ، وعندها قال الشهبندر : « ان الوزارة دفاعية ، قامت لاجل الدفاع وستدافع الى النهاية » فنالت ثقة المجلس الاجماعية (٤١) . واكدت أعمال الوزارة ، ما جاء في بيانها الوزاري ، فاعادت النظر في قانون التجنيد وعدلته لتجند جميع سكان سورية ، محددة الخدمة بسنة واحدة ، وطرحت في الاكتتاب قرضا وطنيا بضمان أملاك الدولة ، ليصرف في وجوه الدفاع الوطني ، مما اكسبها ثقة الشعب .

الازمات التي تعرضت لها الوزارة السورية :

مرت الوزارة السورية بعدة أزمات تعرضت لها البلاد ، من اهمها اشاعة سفر الملك الى أوربا ، والازمة التي خلقتها فرنسا على الحدود بين المسيحيين والمسلمين، والاصطدامات المسلحة في جبل عامل ، والحولة ، وبعض مدن الساحل ، وازمة نقل الجنود والذخائر الفرنسية الى الشمال عن طريق سكة حديد رياق ـ حلب بحجة مقاومة العصابات التركية ، وهدفها الحقيقي الذي أدركته الجماهير هو احكام الطوق على سورية من الشمال بعد نزول القوات الفرنسية في لبنان .

وفي جلسة المجلس بتاريخ ٥/٢٩ ، توالت البرقيات تؤكد ما قام به الفرنسيون على الحدود من فظائع تذوب لهولها القلوب(٤٢) . وتليت برقيات تطلب تدخل الحكومة، وقرر بعض الضباط الحزبيين الاستقالة من الجيش والانضمام الى الثوار في جبل عامل وغيره من المناطق(٤٣) . وكانت المظاهرات الشعبية في هذه الاثناء تطوف العاصمة طالبة تدخل الحكومة بقوة السلاح وتأييد الثوار ، ووعد الملك فيصل بتهدئة الامور في القريب العاجل . وفي جلسة الثلاثاء ١٩٢٠/٦/٩ وردت برقيات تؤكد مرور الاسلحة من رياق الى حلب ، وانها استخدمت ضد السوريين وليس ضد الاتراك ، مما جعلْ الجلسة صاخبة بين أعضاء المجلس والحكومة ، ووجهت الاتهامات للحكومة بلهجة قاسية ، ووجه مندوبو فلسطين سؤالا حول تعيين هربرت صموئيل والهجرة الصهيونية ، فقبلت الاسئلة ، واقترح أن ترفع الجلسة مدة عشر دقائق ، وان تقدم الاسئلة للحكومة مكتوبة ، كي لا تقع ازمة داخل المجلس بين انصار الحكومة والمعارضين(٤٤) .

اللجان الشعبية والمعارضة في مواجهة سفر الملك الى اوربا :

طرح الملك فيصل مسألة سفره الى أوربا(*) على أعضاء المجلس فلم يؤيد وجهة نظره الا اقلية من أعضاء المؤتمر ، أما أعضاء الوزارة فوعدوه ببحث الموضوع

---

* كان عزت دروزة ورفاقه قد وجهوا سؤالا للحكومة عن موضوع سفر الملك الى اوربا .

واعطائه جوابا نهائيا بعد مداولة جميع الاطراف . وتوالت الاجتماعات ، وكان أهمها الاجتماع الذي عقد في بيت جميل مردم في ١٩ حزيران وحضره الشيخ كامل القصاب رئيس اللجنة الوطنية وعدد من أعضائها وفي مقدمتهم خالد الحكيم ، كما حضره عبد الرحمن الشهبندر ويوسف العظمة والشيخ رشيد رضا وجميل مردم .. والهيئة الادارية لجمعية العربية الفتاة . وكان الغرض من هذا الاجتماع بحث المواضيع التي ستتناولها مفاوضات الوفد ، في حال سفره الى اوربا مع الملك .. وكانت اول نقطة استقر رأي المجتمعين عليها هي : ارسال وفد من ١٥ عضوا من أعضاء المؤتمر السوري يمثل جميع الهيئات السياسية في سورية ، وعدم سفر الملك . واستقر الرأي على أن قرارات المؤتمر السوري هو خير ما تجري المفاوضة عليه اي : الاستقلال التام الناجز، ووحدة سورية الطبيعية .. وافق الشيخ كامل القصاب والحضور على ذلك ، ولكن بعد المناقشة تبين أن ذلك يعني ، رفض مقررات سان ريمو ، فقال كامل القصاب : لا حاجة اذن الى سفر الوفد ، ويمكننا رفض المقررات من هنا .. وجرت مناقشات حول تفسير مقررات سان ريمو ، شارك فيها وزير الحربية يوسف العظمة ، ووزير الخارجية الشهبندر الذي اشار الى بلاغ اللورد اللنبي ، وهو أن المؤتمر قرر الاعتراف باستقلال سورية والعراق على قاعدة الانتداب ، وان سورية داخلة في منطقة الانتداب الفرنسي . .وقال امامنا أمران :

الاول : رفض القرار الصادر عن سان ريمو ولا حاجة حينئذ للوفد .

الثاني : الاعتراف بالقرار والبحث في معنى الانتداب ، والطلب الا يمس سلطاننا القومي ، ولم ينته الاجتماع الى قرار معين ، واتفق الحضور على اجتماعات اخرى .

وفي مساء ٢١ حزيران ، اجتمع رشيد رضا ووزير الخارجية، ووزير الحربية ووزير المعارف ، وخالد الحكيم ، في بيت جميل مردم ، ولم يحضر الشيخ كامل القصاب(٤٥) واتفق الحضور في هذه الجلسة على النقاط التالية :

آ ـ أن يسافر الوفد ، ب ـ أن تكون قاعدة مطالب الوفد قرار المؤتمر السوري ، جـ ـ الاحتجاج على مقررات سان ريمو لمخالفتها المادة (٢٢) من معاهدة فرساي ، د ـ البحث في معاني المساعدة الاستشارية المقررة في تلك المادة واشتراطه أن لا تمس الاستقلال التام ، هـ ـ ان لايقرر الوفد شيئا نهائيا ، بل يحمل ما يتقرر الى البلاد ، ويعرضها على المؤتمر، ليقرر ذلك أو يرفضه أو يطلب تعديله(٤٦) .

انذار غورو : في هذه الاثناء ، وجه الجنرال غورو انذارا شفهيا للحكومة السورية لقبول الانتداب الفرنسي على سورية ، وقبول التعامل بالعملة الورقية السورية ،

وتأديب المجرمين ، وضع سكة حديد رياق ـ حلب بتصرف القوات الفرنسية (كانت الانباء قد وصلت بأن القوات الفرنسية قد احتلتها بتاريخ ١٢ تموز)(٤٧) . قـررت الهيئات الشعبية والمعارضة تشكيل وفد لمقابلة الملك واقناعه بضرورة تبديل الوزارة، وأن لم يقبل فالتوجه الى هاشـم الاتاسي ، فاذا رضي واستقال ، عـادة الوفـد لاقناع الملك بتكليف ياسين الهاشمي ، المنادي بالدفاع . تشكل الوفد برئاسـة رشيد رضا ، ولكن الملك رفض طلبه ، وكذلك الحكومة التي أعلنت الاحكام العرفية بعد أن وجه غورو انذارا خطيا ، فازداد الهياج الشعبي وخرجت مظاهرات صاخبة تطالب برفض الانذار . واستقالت الحكومة واندفع ابناء الشعب بالشوارع يدعون للدفاع عن البلد ، ويهاجمون الحكومة والملك . وسعى الملك الى الجنرال غورو ملتمسا تعديل مطالبه فأبى(٤٨) .

جاء الانذار الخطي بتاريخ ١٤ تموز ، وشروطه هي شروط الانذار الشـفهي، محددا مهلة أربعة أيام لتنفيذه جملة ، أو تطلق فرنسا يدها في البلاد . واجتمع المؤتمر السوري ، بعد أن تسربت الانباء بأن الحكومة قبلت الانذار وتعهدت بتنفيذه ، مما ادى الى هياج الشعب وتكتله في مظاهرات اجتماعية تنادي بسقوط الحكومة ،وتطالب باعلان الجهاد. وفي المجلس توالت الخطابات التي تحمل المسؤولية للوزارة ، في حين كانت المظاهرات الشعبية تطوق المجلس ليعلن رايه في الامر ، وتقدم ٤٥ عضـوا باقتراح خلاصته المحافظة على قرار المؤتمر التاريخي في ٧ اذار اي اعلان الاستقلال والملكية وبعد الاقتراع قبل الاقتراح بالاتفاق التام(٤٩) على أن يبلغ للحكومة وينشر على الامة. وهكذا أيد المؤتمر السوري وجهة نظر الجماهير المحتشدة حول مبنى المجلس في ضرورة الدفاع عن :

آ ـ الاستقلال التام والوحدة ورفض الهجرة الصهيونية .

ب ـ ملكية فيصل على الاساس النيابي الدستوري .

جـ ـ وبقاء المؤتمر منعقدا يراقب أعمال الحكومة المسؤولة امامه الى أن يجتمع مجلس النواب بموجب القانون الاساسي(٥٠) .

كان الملك فيصل وحكومته يحاولون الوصول الى طريقة للتفاهم مع اعضاء المؤتمر، فطلب من رشيد رضا رئيس المؤتمر ان يهيء له اجتماعا معهم في ١٧ تموز ، وتم ذلك في حديقة قصره ، وحاول فيصل تبرير ميله الى سياسة التفاهم والسلم ، فاحتد بعض الاعضاء وردوا بلهجة شديدة وذكروه بخطبه الحماسية في النادي العربي ، فطلب

من كل عضو أن يكتب رايه على حدة ليأخذ براي الاكثرية . وانصرف الاعضاء وظـن فيصل أنهـم انصرفوا لتسجيل آرائهـم ، ولكنهـم في الحقيقة لم يفعلـوا ، وقرروا الاجتماع في مقر مؤتمرهم(٥١) .

اللجنة الوطنية العليا تعلن الجهاد : وفي هذه الاثناء ، أعلنت اللجنة الوطنية العليا الجهاد . والافادة من حماسة الجماهير الشعبية التي صممت على الدفاع . وأيد هذا الرأي بعض أعضاء المؤتمر السوري – الذين واصلوا الاجتماع طيلة الايام الاربعـة المحددة لقبول الانذار – وأيد وزير الحربيـة موقف اللجنة الوطنيـة العليا ، كمـا أعضـاء المؤتمر السـوري : « لتثبت سـورية للراي العـام العالمي أن هـذه البـلاد تفضل الموت على الانتداب » . ووقف العسكريون في حيرة من أمرهـم بـين الحقيقة والواجب ، فهم من ناحية ، يرون أن لا فائدة من المقاومة ، ولكن الدفاع عن الاستقلال والموت في ساحة الشرف كان عندهم الضامن الوحيد ليسجل التاريخ أن الانتداب قام في سورية بالقوة والاكراه ، وعلى جثث الشهداء .

وفي الجلسـة القانونية التي عقـدها المؤتمر السوري بعد ظهر يوم الاحـد ١٨ تموز ، قرر الاعضاء استدعاء الحكومة لحضور جلسة الغد الاثنين ، حيث تنتهي مدة الانذار في منتصف الليل . وعقدت الجلسة صباح الاثنين وبدأت سرية ولكن الوزارة لم تحضر ، فقرر الاعضاء أن تكون علنية ... وأعلن رئيس المؤتمر أن الوزارة تنتظر عودة الوفود الذين أرسلتهم الى بيروت لمفاوضة الجنرال غورو في تعديل شروطه الواردة في الانذار ... وتوالت الخطب واكتظت القاعة بالحاضرين ، وأعلن عن سحب الثقة من الحكومة ، لانها خالفت ما جاء في بيانها الوزاري . وكان رد فعـل الحكومـة أن بدأت بتنفيذ الانذار ، وبدأت بتسريح الجيش السوري المدرب.وأرسل الملك والحكومة وزير الحربية الى المؤتمر ليبلغ المجلس مرسوم الملك بوقف جلسات المجلس ، وتأجيله مدة شهرين ، وطلب من الاعضاء الانصراف(٥٢) .

أما خارج المجلس ، فلم تهدأ المظاهرات طيلة الايام الاربعة العصيبة ، واللجنـة الوطنية العليا تقود الجماهير في أنحاء المدينة، تهدد كل من يسعى لهدم استقلال البلاد، وطافت مظاهرة الاحد ١٨/ تموز ، حول مبنى المؤتمر مؤيدة قراراته ، محيية أعضاءه الوطنيين الذين آمنوا بالدفاع عن وطنهم .

ودعت اللجنة الى عقد اجتماع كبير مساء الاثنين ١٩ تموز يحضره رجال الاحزاب والاعيان وكل من يعارض الحكومة ويدعو الى القتـال للمحافظة على الاسـتقلال . ودارت محاورات بين الحضور حول الانذار ومواده ، وأخـيرا قرر المجتمعون تنظيم

مظاهرة كبرى في اليوم التالي (الثلاثاء ٥/٢٠) لم تشهد سـورية ، في فترة الحكم الفيصلي أكبر وأعظم منها ، قادتها اللجنة الوطنية العليا والمعارضة عموما ، وتحولت، بعدما أذيع خبر قبول الانذار وتأجيل جلسات المؤتمر ، الى ما يشبه ثورة وطنية ضد الحكومة والملك ، وتوجه المتظاهرون الى القصر الملكي هاتفين ضد الحكومة ، متهمين الملك بالتآمر معها ، فالتفت فيصل الى من كان بجواره قائلا : هذه هي مكافأتي علـى جهودي التي طالما بذلتها في سبيل بلادي(٥٣) .

ثم توجه المتظاهرون من أعضاء اللجنة الوطنية العليا نحو قلعة دمشق للاستيلاء على ما فيها من أسلحة ، وتمكنوا من فتح أبوابها واطلاق سراح المساجين ، وسقط عدد من القتلى نتيجة الاشتباكات بينهم وبين رجال الامن . ولا يزال سكان دمشق يذكرون « تلك الليلة الليلاء » ، وكيف كانت أصوات العيارات النارية تدوي في أنحاء دمشـق قوية مرعبة(٥٤) .

أعلان الجهاد بقيادة اللجان الوطنية :

وبرغم المحاولات التي بذلتها الحكومة لحقن الدماء وتعرضها لسخط الشعب ، فوجئت البلاد بزحف القوات الفرنسية ، فحاول الملك والحكومة جمـع الجيش مـن جديد ، وزار الملك وزارة الحربيـة وخاطب جموع المتطوعـة وحثهم على الجهاد ، واخبرهم أنه أعلن الحرب رسميا ، وطلب نشر الخبر في الصحف .

ومن ناحية ثانية ، استدعى الملك زعيم اللجنة الوطنية العليا الشيخ كامل القصاب وخاطبه قائلا : لقد نزلت أنا وحكومتي على الرغبة التي طالما ناديتم بها لمقابلة العدوان بالقوة ،وقبلت قولكم بأن القوة الوطنية مستعدة للاضطلاع بتلك المهمة،فهيا أرنا همتك وعلى الله التوفيق(٥٥) .

ويقول محب الدين الخطيب ، ان رجال الاحياء تجمعوا بعصيهم ، وبما تبقى من الاسلحة ، واخذ كل عضو من أعضاء اللجنة الوطنية العليا ، يجمع أقاربه وأصدقائه. واستبشر الاهلون بأن الدفاع عن وطنهم سيتحقق . وبدأت التبرعات لشراء السلاح ، وعمت المظاهرات أنحاء دمشق ، وعادت الحيوية لاحياء العاصمة أشد مما كانت عليـه اثناء فترة الانذار ، وكانت الخطب الحماسية تسمع هنا وهناك ، والكل يتجه نحـو ميسلون بما في يده من أسلحة صالحة وغير صالحة دون زاد أو غذاء ، وتصميم الفداء باد على الوجوه .

ودخل الشيخ كامل القصاب زعيم اللجنة الوطنية مبتهجا لهذا الحشد الجماهيري وقال مخاطبا الهاشمي : انظر الى الشعب المتحمس ، انظر الى القوم وقد صمموا على الفداء ، ولكن الهاشمي ـ بنظرة الخبير العسكري ـ علم أنه ليس بمثل هذا السلاح من هراوات وسيوف ، يمكن مقاومة جيش فرنسا ، وخصوصا أن الجيش المدرب في سورية كان قد سرح ، ولم يبق الا قلة من الدرك المنظم ، أما بقية المقاتلين فكانوا من متطوعي الشعب .

في هذه الاثناء دخل يوسف العظمة وزير الحربية ، معلنا عزمه على القتال قائلا : اني أدافع عن بلادي وعن شرفي العسكري ، فقد ناديت بالدفاع ، وسأموت في أرض المعركة . ويقول مؤرخو هذه الفترة ان التصميم والعزم والتضحية كانت من أهم مزايا يوسف العظمة وكامل القصاب ، ورجال هذا العهد الذين اتجهوا نحو ميسلون(٥٦).

وكان يوم ٢٤ تموز/١٩٢٠ هو اليوم الفاصل بين قوى الظلم والعدوان ، وبين قوى الدولة العربية الفتية ، ودخلت جيوش فرنسا بعددها وعددها الى دمشق على جثث المناضلين الابطال وفي مقدمتهم وزير الحربية الشاب القائد يوسف العظمة ، وآلاف من أبناء الاحياء الشعبية في البلاد السورية .

الحواشي :

(١) محب الدين الخطيب ، المذكرات ، سيرة جيل (مخطوط في مكتبة آل الخطيب في القاهرة) .

(٢) محمد عزت دروزة ، حول الحركة العربية الحديثة ، صيدا ١٩٥٠ ، ج١ ص ١٠٩ .

(٣) نظام اللجنة الوطنية العليا في العاصمة السورية ، مطبعة الترقي ، بمحلة القيمرية في دمشق ١٩١٩ ، المقدمة . وانظر : خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨ـ ١٩٢٠ ، ط٢ ، بيروت ١٩٨٢ ، ملحق ٦ ص ٢٨٧ .

(٤) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، دار احياء التراث بمصر ، م٢ ، ص ١٠٣ .

(٥) جريدة العاصمة ، ١٩١٩/٩/١١ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) جريدة العاصمة ، ١٩١٩/٩/١٤ .

(٨) العاصمة ، بتاريخ ١٩١٩/٩/١٥ .

(٩) أحمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، مطبعة ابن زيدون ، دمشق ، ص ١٠١ وما بعدها . وكذلك جريدة الاهرام ، ١٩١٩/١٠/٢٣ .

(١٠) العاصمة ، ١٩١٩/١٠/١٦ .

(١١) جريدة المفيد الدمشقية ، ١٩١٩/١٠/٢٠ .

(١٢) جلسة المؤتمر السوري ، ٢٧ تشرين أول ١٩١٩ .

(١٣) العاصمة ، ١٩١٩/١٠/٣٠ .

(١٤) العاصمة ، ١٩١٩/١١/١١ .

(١٥) د. خيرية قاسمية ، مرجع سابق ، هامش ص١٥٢ .

(١٦) أوراق الامير زيد ، في كتاب سليمان موسى: الحركة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٢٤ ، بيروت ١٩٧٧ .

(١٧) محب الدين الخطيب : المذكرات ، سيرة جيل .

(١٨) محب الدين الخطيب : المصدر السابق ، وأمين سعيد ، ص ١٠٢ وما بعدها .
(١٩) أوراق محب الدين الخطيب ، ملف الحركة العربية بدمشق .
(٢٠) العاصمة ، ٨ كانون أول ١٩١٩ .
(٢١) راجع نص البرقيات ، في العاصمة ، أعداد كانون أول ١٩١٩ .
(٢٢) المنار ، م٢٢ ، ج٦ ص ٤٦٤ .
(٢٣) جريدة الدفاع (دمشق) ، ١٨ كانون ثاني ١٩٢٠ .
(٢٤) أحمد قدري ، ص ١٦٩ وما بعدها .
(٢٥) العاصمة ، ٢٦ كانون ثاني ، ١٩٢٠ .
(٢٦) المنار ، م٢٢ ، ج١٠ ص ٧٩٣ .
(٢٧) أكد عوني عبد الهادي هذا القول في أكثر من مقابلة معه في القاهرة ١٩٦٦ ، (أوراق الدكتورة سهيلة الريماوي) .
(٢٨) أسعد داغر ، مذكراتي على هامش الثورة العربية ، القاهرة ١٩٥٩ .
(٢٩) جريدة الدفاع ، ١٨/١/١٩٢٠ .
(٣٠) المنار ، م٢٣ ، ج٩ ص ٧١٣ .
(٣١) المصدر السابق .
(٣٢) المنار ، م ٢٣ ، ج٩ ص ٧١٣ .
(٣٣) بين أوراق محب الدين الخطيب كلمة كامل القصاب التي ألقاها باسم اللجان الوطنية والشعبية .
(٣٤) راجع العاصمة ، ١١ آذار ١٩٢٠ . وعزت دروزة ، ج١ ص ١٤٤ .
(٣٥) راجع سهيلة الريماوي ، مجلة قضايا عربية ، الرواد العرب والقضية الفلسطينية ، عدد ١١ / ١٩٨٠ .
(٣٦) راجع أعداد العاصمة أواخر نيسان وأوائل أيار ١٩٢٠ ، وكذلك أمين سعيد ، م٢ ص١٤٤ .
(٣٧) محب الدين الخطيب ، الجيل الذي عاصر بعث العروبة ، وعزت دروزة ج١ ص ١٢٢ .
(٣٨) المنار ، م٢٢ ، ج٤ ص ٣١٥ وما بعدها .
(٣٩) عزت دروزة ، ج١ ص ١٢٢ وما بعدها .
(٤٠) محضر جلسة ٨ أيار ١٩٢٠ في جريدة العاصمة .
(٤١) العاصمة ، محضر الجلسة ، وأوراق الخطيب وأحمد قدري ، ص ٢٠٨ وما بعدها .
(٤٢) محضر جلسة ٢٩/٥ جريدة العاصمة .
(٤٣) مذكرات علي خلقي الشرايري ، (مخطوط لم يطبع) ، وأحمد قدري ، ص ٢٠٩ .
(٤٤) العاصمة ، محضر جلسة ٩/٦/١٩٢٠ .
(٤٥) المنار ، م٣٤ ، ج٥ ص ٣٩٦ .
لم يبين الشيخ رشيد رضا في مذكراته في المنار الاسباب التي دعت الشيخ كامل القصاب لعدم الحضور ، ربما لانه أفصح عن رأيه في الاجتماع السابق كما ورد .
(٤٦) راجع المنار ، واسعد داغر ، ص ١٢٢ وما بعدها . ومكتبة محب الدين الخطيب ، ويرجح أن الورقة بخط الشيخ رشيد رضا .
(٤٧) راجع أمين سعيد ، م٢ ص ١٦٩ . وساطع الحصري ، يوم ميسلون ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٢٩٩ وما بعدها .
(٤٨) المنار ، م٢٢ ، ج٢ ص ٤٦٧ . وكذلك مقابلة مع عوني عبد الهادي ، ومحب الدين الخطيب في القاهرة ١٩٦٦ .
(٤٩) العاصمة : ١٩ تموز محضر جلسة ١٤ تموز ١٩٢٠ .
(٥٠) العاصمة ، ١٩ تموز .
(٥١) العاصمة ، ١٩ تموز . والمنار ، م٢٢ ، ج٦ ص ٤٦٧ .
(٥٢) المنار ، م٢٢ ، ج١٠ ، ص ٧٩٢ وما بعدها .
(٥٣) أحمد قدري ، ص ٢٤٩ .
(٥٤) عزت دروزة ، ص ١٣١ .
(٥٤) عزت دروزة ، ص ١٣١ .
(٥٥) من أوراق محب الدين الخطيب ، ملف الحكومة العربية ، وأحمد قدري ، ص ٢٥١ .
(٥٦) راجع : مذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل (المخطوطة) ، عزت دروزة ، ج١ ص ١٣٢ ، أحمد قدري ، ص ٢٥٢ وما بعد .